

السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

(قراءة جديدة)

محمد الصوياني

الجزء الأول

مكتبة العبيد

٢

مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة. / محمد الصوياني

- الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٨٦ ص، ١٦،٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٩٦٠-٤٠-٣٧٥-٠ (مجموعة)

٩-٣٧٦-٤٠-٩٩٦٠ (ج ١)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان

١٤٢٤/٢٨٧٨

ديوي ٢٣٩

ردمك: ٩٩٦٠-٤٠-٣٧٥-٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٨٧٨

٩-٣٧٦-٤٠-٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م

حقوق الطباعة والنشر محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٧٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



الحمد لله رب العالمين..
والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين..

هذه القصة

قصة طفل طهور كالبرد.. ولد يتيماً.. واستمر اليتيم يلاحقه
ويلاحق طفولته في طرقات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفجعه بأهله
وأحبابه..

ويكبر محمد ﷺ.. وتكبر غربته.. ويكتشف في دروب الحياة يتماً
أكبر من يتمه.. وهماً أثقل من هممه.. فالأرض كلها يتم.. والبشرية تئن همماً
وحزناً يعصر قلبها..

الجزيرة العربية كانت غابةً من الأصنام.. وأوديةً تسيل دماء بريئة..
تسيل عادات بالية وتقاليد محيرة..

ماذا يفعل أمامها.. وماذا بيديه حيالها.. ماذا يفعل سوى الغربة
مهرباً وملاذاً.. يناجي بها ربه ويعج إليه بالتوحيد والدعاء.. وفي غربته
الشعورية تلك تهبط عليه الرسالة.. فيحمل الأمانة وينحدر بها نحو مكة..
نحو أمته فينطق بها بهجة وبشرى لهم.. وينتظر الإجابة.. وتأتي الإجابة
على غير ما يتمنى ويحب.. تأتي الإجابة سيّاطاً وشتائم وتكديباً له وهو
الذي يلقب بالأمين.

فماذا فعل الأمين ﷺ مع هؤلاء؟

الإجابة كانت أكثر من خمسين عاماً من فنّ التعامل مع الغير..
نقشها ﷺ في قلوب من حوله وقلوب غيرهم ممن دبّ على هذه الأرض
إلى قيام الساعة.

الإجابة سيرة لم تكن ماضياً أبداً.. بل شعلة توقد شمس الحياة..
ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال.

سيرته ﷺ في مكة هي واقع هذه الصحوة التي تمز أركان الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. ولا بد لهذه الصحوة من أن تشرب من النبع الذي شربت منه في مكة.. لا بد لها من أن تتقد بشعلتها الخالدة وإلا تحولت إلى رماد تذروها الرياح والأهواء.

أحاول في هذه السيرة - القصة أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في تناول الجميع خاصة من لا يبحثون عن التعقيد أو التفريع.. لذلك صغتها وربطت بين أحداثها الصحيحة لتكون قصة لا روايات أحداث متفرقة فقط.

فالحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته إن كنت قد وفقت في ذلك..
وأرجوه الصفح والغفران إن كنت قد زللت..

جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقتلع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول له: (احفر طيبة)^(١)..

لم يمهل عبد المطلب..

لقد عاجله قائلاً: وما طيبة؟

ولم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولم يرد. وفي الغد..

رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عله يجد لذلك الحلم تفسيراً. وما إن غاص

في سباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احفر بره)^(٢).

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

(يقول عبد المطلب: قلت: وما بره؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فمنت فيه.. فجاءني فقال:

احفر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تتزف أبداً ولا تدم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

فلما بين لعبد المطلب شأنها، ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا بمَعْوَلِهِ ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس له يومئذ وليد غيره.. فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي^(١) كَبَّرَ^(٢). فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته.. فقاموا إليه.

فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. فأشركنا معك فيها.

فقال عبد المطلب: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم.

فقالوا: أنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هلنتم.

قال عبد المطلب: نعم.

(١) طي البئر وهو من الحجارة.

(٢) قال: الله أكبر.

وكانت -هذه الكاهنة- بأشراف الشام. فركب عبد المطلب،
ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا
والأرض إذ ذاك مفاوز^(١)، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب
وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا
عليهم.

وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما
لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرتيه، ثم
واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من
ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نعم ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً^(٢)

لقد كان ذلك الرأي سقيماً، إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة
والضيق الذي لا مبرر له إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك العرب،
لقد أحس عبد المطلب بفساد ذلك الرأي فصاح في تلك الجثث الملقاة في
اللُّحود: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا يضرب في الأرض، ولا
نبتغي لأنفسنا؛ لَعَجْزٌ.. فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارتحلوا.

فارتحلوا، حتى إذا بعث^(٣) عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت
خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب

(١) سميت بذلك لأنها مهلكة.

(٢) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد، انظر ما بعده.

(٣) دفعها للنهوض.

وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال.

فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة^(١) هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم^(٢).

رجع عبد المطلب بقسمة الله لا بقسمة الكاهنة وتمتماها.. وأرجع الله بنبع الماء البارد الحياة إلى جثث التحفت بقبورها.. وقادتهم ناقة عبد المطلب إلى مكة يحملون على عيسهم بعض الماء والتسليم بحق عبد المطلب وزعامته. إنه الآن يتولى سقاية زمزم.. بئر جده إسماعيل عليه السلام.

(١) الأرض التي لا ماء فيها.

(٢) ما بين الأفواس خير صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب، رواه لنا ابن إسحاق فقال: حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله الزبي، عن عبد الله بن زريق، إنه سمع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال عبد المطلب بن هاشم: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال: احفر المضمونة. قلت: وما المضمونة... إلخ. انظر سيرة ابن كثير (١/١٦٧) ودلائل النبوة (١/٩٣). وإسناد ابن إسحاق قوي: يزيد بن أبي حبيب شيخ ابن إسحاق: ثقة فقيه من رجال الشيخين، انظر تقريب التهذيب (٢/٣٦٣). ومرثد بن عبد الله الزبي شيخ ليزيد، انظر التهذيب (١٠/٨٢) وهو ثقة أيضاً وفقهه. انظر تقريب التهذيب (٢/٢٣٦). وأما عبد الله بن زريق فهو تابعي ثقة، انظر التقريب (١/٤١٥) والتهذيب (١٠/٨٢) والتهذيب أيضاً (٥/٢١٦) علي رضي الله عنه لم يدرك جده فهو مرسل سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم.

جده إسماعيل صاحب البئر.. وأول من شرب منها رغم أنه لم يحفرها، لكنها من أجله تفجرت.

جده إسماعيل هو أول من جاء مكة من أجداد عبد المطلب.. بل هو أول من سكن مكة..

عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً.. لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدرانها جبال.. كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر.. تمر بها القوافل فلا تتوقف.. والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقف..

لكن رفقة طيبة توقفت.. رفقة طاهرة قادمة من البعيد البعيد.. تعلق مع الدروب وتنخفض.. تعبر الفيافي والقفار.. تعبر المفاوز والرمال وتشق أمواج السراب.

امرأة طاهرة.. اسمها: هاجر.. جاء بها زوجها الخليل عليه السلام.

[جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت^(١) عند دوحه^(٢) فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها.. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام - الكعبة.

(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.

الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت (الصفاء) (٢) أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي (٣) رفعت درعها (٤) ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة) (٥) فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه (٦)، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.

(٣) وهو ما بين العلامات الخضرة الموجودة داخل المسعى الآن.

(٤) درع المرأة هو قميصها.

(٥) جبل آخر.

(٦) تجمعه.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله.. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقاً من جرهم، أو أهل بيت من جرهم^(١)، مقبلين من طريق كداء، فترلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريراً^(٢)، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نترل عندك؟ قالت: نعم.. ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فترلوا وأرسلوا إلى أهلهم فترلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أليات منهم» وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج بيتغي لنا. ثم سأها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

(١) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إسماعيل، ومع مرور السنين ألدوا فأبادهم

الله (لسان العرب).

(٢) الجري هو الرسول.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟
فقلت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني:
كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟
قالت: نعم.. أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك.
قال: ذاك أبي.. وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج
منهم أخرى.

ولبت عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على
امراته فسألها عنه: فقلت: خرج بيتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن
عيشهم وهيئتهم.. فقلت: نحن بخير وسعة، وأنت على الله عز وجل،
فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال:
اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ.. ولو كان لهم حب لدعا
لهم فيه».

قال ابن عباس: فهما لا يخلو عليهما^(١) أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام
ومريه: يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟
قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة -وأنت عليه- فسألني عنك فأخبرته..
فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم.
وهو يقرأ عليك السلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي،
وأنت العتبة.. أمرني أن أمسكك.

(١) أي اللحم والماء.

ثم لبث عنهم ما شاء الله.. ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم.. فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل.. إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعيني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة^(١) مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»

فجعلا بينان حتى يدورا حول البيت.. وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(٢)

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنه إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.. وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّٔ وَعَهْدِنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

(١) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس.

مَنَاسِكَانَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾^(١).

وكان لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء.. بل فيها الصبر والدماء.. فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه.. ورؤيا الأنبياء وحي من الله.. فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣١﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٢﴾ وَتَدَيَّنُهُ أَنْ يُتَابِرَهُمْ ﴿١٣٣﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَّ الْبَالُوتَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَتَدَيَّنُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾^(٢).

وكان هذا الذبح كبشاً اقتدى الله به نبيه إسماعيل.. وحفظ به نسله من الانقطاع.

سافر إبراهيم.. وماتت هاجر.. وبقي إسماعيل في مكة حتى مات.. ودفن هناك.. ومرت الأيام على بيت الله وكعبته، وسلالة إسماعيل تحيط بها وتوحد الله.. وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

نعم لا تشرك به شيئاً.. حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: عمرو بن لحي.. فأعاد غرس الشك في أرض مكة وقلوب أهلها.. وانحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرسل.. وأنزلت كل الكتب السماوية..

(عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار.. وكان أول

(١) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

من سيب السوائب وبحر البحيرة^(١) وهي شياه وبهائم تترك للآلهة لا
تُمسُّ ولا تُحَلَّب..

غصَّت مكة بالشرك والأصنام.. وشكت الكعبة مما نصب على
ظهرها.. وانحرف بنو إسماعيل عن توحيد ربهم الواحد الأحد وعن ملة
أبيهم إبراهيم.. وكان آخرهم: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف..
وحاز بئر زمزم.. ولكنه لم يجز بعد كل أحلامه.. لقد كان يحلم وينذر..

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّت عبد المطلب فوجد الناس تنظر إليه.. تحبه وتجله وتحمله في
قلوبها.. وتَلَفَّت ثانية وثالثة.. ونظر وراءه فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث..
فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم الذي ساق له المجد.. أن
يقر عينه بأخوة للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حوله..
يشهدهم ويقول لهم إنه (قد نذر إن توافى له عشرة رهط^(٢)) أن ينحر
أحدهم، فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشرة أقرع بينهم أيهم ينحر،
فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد
المطلب.

فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل.

ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل^(٣)

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٦٥٣).

(٢) أي رزقه بعشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن، ورواه ابن جرير في تاريخه (٢/٢٣٩): حدثني يونس بن عبد الأعلى قال:

أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه

إن الله يعطي بلا ثمن.. يرزق من يشاء بغير حساب.. ليس بحاجة
لدماء ذلك الطفل الصغير.. لكن والده شدد فشد الله عليه.. فأصابه
بأغلى ولده فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشلت ذلك الصغير
من السكين ليعيش بقية عمر قصير.. منقوشاً في التاريخ ما بقيت الجبال
على ثباتها والأرض على استقرارها.

الزواج

تربى عبد الله ذلك الطفل الوديع في قلب عبد المطلب.. وتربع فيه..
وبلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سفه.. كأني به هادئ
كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير.. كان
كالعالم من حوله ينتظر وينتظر.. ويبحث عن زوجة له في بيوتات مكة
ويسأل.. فكانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف هي الحبيبة.. وهي
الإجابة.

تزوجا.. فكان الحب.. وامتلاً بيتهما الصغير بالبهجة.. والشباب
الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال..

أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة...

شيخ ابن جرير يونس بن عبد الأعلى الصدي ثقة من رجال مسلم، وشيخه عبد الله بن
وهب، أبو محمد المصري: ثقة حافظ عابد، انظر التقريب (٤٦٠/١). أما يونس بن يزيد
ابن أبي النجار، فهو ثقة، لكن هناك اختلاف في روايته عن الزهري عند النقاد، فالأغلب
يجعله أوثق الناس فيه وبعضهم يرى في رواياته عنه وهماً، لكن الأرجح ما مال إليه الحافظ
ابن حجر في التقريب من أن في روايته وهماً قليلاً. لا يسقط حديثه بل يجعله حسناً لذاته
ما لم يخالف، وهذا ليس من أحاديث الرسول ﷺ بل هو رواية تاريخية. انظر التهذيب
(٤٤٧/١١، ٤٤٨، ٤٤٩) والتقريب (٣٨١/٢).

ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه.. ومن فدية أبيه.. لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغيره.. إنها للعالم أجمع.. أما هو فتوشك أن تدلف بيته الصغير سحابة سوداء.. مشبعة بالحزن والدموع والنواح.. فعبد الله الذي فر من الموت بمائة من الإبل يسعى إلى حياضه على واحد منها.. امتطى راحلته وتوجه نحو يثرب.. حيث كان الموت في انتظاره ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب.. بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنة الحزينة.. التي كانت تحمل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيناً تيمم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

كأني بعبد المطلب والفاجرة أفقدته صوابه يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم.. علّه يسمع تكذيباً لما سمع.. علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يممت ما زال حياً.. وهو قادم إليك..

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هذه الدنيا.. وتودع عبد المطلب.. لينثني ذلك الشيخ الكظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة.. فتبكي حبيها الذي قبض بعيداً عنها.. وفارقها في وقت كانت تحترق لعودته.. تشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

الحيرة والوجوم يملآن مكة لهفاً على عبد الله.. لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة.. فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها.. وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. فمكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف.. وحراب جيش ضخّم زاحف لهدم بيت الله الحرام وطحنه.. كان ذلك الجيش يرح مكة من أقصاها إلى أقصاها.. ومن عبيدها إلى ساداتها.. كأنما كان يدحرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب معها. فتطير أهل مكة فوق ذرى الجبال.. وتفرقوا بين الشعاب.. فالأمر فوق ما يحتملون.. ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم.. وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال لملكهم^(١):

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك:

أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب:

إننا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتحلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأهلّ ثم قال:

اللهم إن لكل إله
حلال فامنم حلالك
لا يغلبن محالهم
أبداً محالك

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمير مصفود على عشرين ألفاً...
ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم فإن فعلت فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيراً أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾^(١). فجعل الفيل يعج^(٢) عجاجاً.. فجعلهم.. كعصف^(٣) مأكول^(٤).

كانت حجارة حقيقية.. وكان عذاباً سماوياً محرقاً ومبيداً لطاغوت من الطواغيت.

كان هناك من لم يستطع الهرب.. كانت هناك آمنة تعاني من آلام الوضع.. ترى هل أقدعها تلك الآلام.. ترى هل تركها أهلها وحدها لتلد

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فينتفت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات عديدة ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم (٥٣٥/٢) وهي من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس، قال رضي الله عنه: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم: ... ورجال هذا الإسناد: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو محمد بن راهويه وهو أحد الأئمة الثقات الحفاظ المجتهدين، قرين ابن حنبل (التقريب ٥٤/١) شيخه جرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة كذلك: التهذيب (٥٧/٢) وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرح الرجل غير مفسر، إلا بقول ابن معين: ثقة جازي الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، ويقول الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح. فقد قال ابن معين كما سبق أنه ثقة جازي الحديث رغم ذكره لسبب الجرح، وقال يعقوب بن سفيان: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجبي: كوفي لا بأس به. وللخير شواهد تقويه.

ابنها (في يوم الفيل)^(١).. وحيداً.. تفرق قومه.. ومات أبوه.. والموت سيوف تحيط ببلده.. لا أدري ربما.. لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم.. وموتاً للهمجية والضلال.. ولد محمد.. ومات أصحاب الفيل.. وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة.. وأسراب الطيور..

(ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)^(٢) لكن كم كان بين وفاة والده ومولده؟ ليس هناك ما يعول عليه^(٣).. وكانت ولادته.. (يوم الاثنين)^(٤) أحد أيام (شهر ربيع الأول)^(٥) من عام الفيل.. وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

(١) حديث جيد الإسناد رواه ابن سعد (١٠١/١) من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، ورجال هذا الإسناد ثقات، ويونس بن أبي إسحاق السبيعي حديثه حسن. انظر الكاشف (٣٠٣/٢) وحجاج كذلك أما سعيد بن جبير وابن معين فأعلام معروفون.

(٢) رواه مسلم (١٣٩٢/٣) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٣) الأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (٨١٩/٢) بلفظ: قال أعرابي: يا رسول الله ما تقول في صوم الاثنين، فقال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٥) كونه ولد في شهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبة وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١/١٩٩) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد بن جبير بن قطع (سيرة ابن كثير ١/١٩٩) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشر من ربيع، فلم أعثر على خير صحيح يحدده، لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجحون يوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

أساطير ومولد

مولد محمد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشرى للقلوب وفرحة للأرواح.. وبداية الإنقاذ لهذه البشرية من تيه الرمضاء المهلكة.. وتحويل هذه الجموع العطشى وردها إلى النبع الذي أضعته وفرطت فيه.. لكن ذلك لا يعني أن تتشقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض السذج.. فصاروا يسقون حدث المولود بأ مطار الأكاذيب.. فنشأت حوله الأساطير والخرافات.

وجاءت الروايات الملفقة تشوه سيرة المصطفى ﷺ تشويهاً كاد يطيح بأحداث السيرة^(١).

لقد حدثنا أولئك الكذابون عنه ﷺ وهو طفل رضيع.. وأنه كان يناغي القمر فحيثما أشار إليه اتجه.. كان يلعب به في مساحات الليل والفضاء. وكذبوا علينا فقالوا: إن النجوم دنت من الأرض عند مولده.. وكذبوا وكذبوا فقالوا: إنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أسرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث.. لقد ركبوا موجة التهويل والعواطف التي لا لجام لها.. فكان ذلك الشرخ العظيم في حياة الأمة وبَعَثَ طاقاتها وأموالها في احتفالات لا سند لها إلا تلال الأكاذيب

(١) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساتذتها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد... وتمييز الغث من السمين، والسقيم من الصحيح. حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

والأساطير المختلفة تنحدر منها البدع.. ينحدر منها العفن فتشوه ذلك
النبع وتلك العقيدة التي تركها ﷺ صافية مثل البيضاء.

إن تلك الغيوم الأسطورية لم تستطع أن تحجب شمس الحقيقة.. فلقد
بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مساس.. وكان منها:

طلوع نجم أحمد

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب حيث يرقد عبد الله
تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم.. كان
يهودياً.. وربما كان فلكياً.. صرخ الرجل بقومه قائلاً:

(يا معشر اليهود:

فاجتمعوا إليه. قالوا: ويلك ما لك؟ قال:

طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)^(١).

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن
تختفي في سراديب اليهود المظلمة.. لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة
من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢١٣/١) سماعاً من صالح بن إبراهيم بن
عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني
من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع
سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غدات...) وهذا
الإسناد قابل للتعيين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلّس، والتابعون لم يتهموا
وربما كانوا صحابة وللحديث شواهد تقويه منها ما رواه ابن إسحاق عن هشام عن أبيه
عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

كبير وشاخ.. ذلك الغلام هو مبدع الإسلام وشاعره العظيم حسان بن ثابت.. إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي.. وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في السماء.

ولم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الذي رأى هذا النجم.. ففي مكة رجل حيران.. يقال له: زيد بن عمرو بن نفيل.. كان يحدق في الأصنام يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله.. فلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها وتختلف عقول أتباعها وعابديها.. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء لا تقدم ولا تؤخر.. ضاقت بها مكة وضاق زيد بها.. فبحث له عن فسحة بين الفيافي والبطاح.. يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل ولا يكف عن السؤال... حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام.. فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمة، فارجع وصدقته واتبعه)^(١).

وهذا زيد بن ثابت يحدثنا فيقول:

(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد،

(١) إسناده حسن، رواه محمد بن حبان وأبو نعيم (سيرة ابن كثير ٢١٢/١)، قالوا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد، عن زيد بن عمرو قال: قال لي حبر من أحبار الشام:... وهذا الإسناد صحيح، وهب بن بقية ثقة. انظر التهذيب (١٠٠/٣) (١٥٩/١١) وخالد هو ابن عبد الله الطحان وهو ثقة. انظر التهذيب أيضاً (١٠٠/٣) ومحمد بن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عن البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

مهاجره يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا^(١) إن اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً.. لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم.. وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب. وقد حاولوا طمس نجم أحمد وإخماده لكنهم لم يفلحوا.

التسمية

قبل عبد الله.. وقبل عبد المطلب.. وقبل مئات السنين كان هذا المولد حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء يوصون به أمهم.. ويشيرون به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم.. ويقول لهم: ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾^(٢).

كشف الله هذا الغيب وبشر به.. وذكر اسمه في الإنجيل.. وفي التوراة من قبل الإنجيل.. ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»^(٣).. ولا أدري من هو

(١) حسن بشواهد وسنده ضعيف فقد رواه أبو نعيم (سيرة ابن كثير (٢١٤/١) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت وهو ضعيف أيضاً. انظر اللسان (٤٢٩/١)، لكن الحديث يشهد له ما سبق، ويشهده له ما سبق ذكره عند البيهقي في الدلائل (٩١/١) وما عند البيهقي أيضاً (٨٩/١) وهو قوي بما لا سيما وأن الأول جيد الإسناد، والثاني علته عن عنة ابن إسحاق ورجاله ثقات.

(٢) سورة الصف.

(٣) رواه ابن سعد (١٠٤/١) بإسناد حسن من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة واسمه: عبد الله بن عامر القيسي. انظر التهذيب، وقد حدثه بهذا الحديث شيخه زهير بن محمد التميمي وهو حسن الحديث إذا روى عنه غير شامي. وهذه رواية بصري وهي مستقيمة كما قال ذلك الإمام أحمد. انظر التهذيب (٣٤٨/٢) وشيخه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ثقة، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.

الذي حقق هذا الغيب ووفقه الله لهذا الأمر.. أهو جده عبد المطلب أم أمه
آمنة بنت وهب.. ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما. ولكنه
في النهاية سمي محمداً.. أما:

رضاعه وحضائته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشاركها حضائته
امرأة تدعى: أم أيمن، واسمها: بركة بنت ثعلبة بن عمرو.. وهناك امرأة
ثالثة شاركت في رضاعه وهي أمة لعمه أبي لهب، واسمها: ثوية. وقد
(أرضعت ثوية رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد
المخزومي)^(١).

هذا في بداية الأمر.. وبعد فترة من الزمن غشيت مكة مجموعة من
نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش.. وكانت
أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.. وربما كان
باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم.. وربما
كان فقيراً لا يستطيع منافسة غيره في حرية الانتقاء والاختيار لحفيده من
بين تلك المرضعات.. ربما لم يكن في بيت آمنة ما يغري المرضعات على
التوجه نحوه.. فيجتمع لهذا الصغير يتم مرير وفقير موجه^(٢).

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف
إسنادها، والضعف سبب الرد فكيف بالتضارب، هناك رواية تقول: إن حليلة لم تجد طفلاً
سوى محمد ﷺ، ولو عدنا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنا عبد المطلب غنياً يملك
قطيعاً من الإبل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائة من الإبل فداءً
لابنه عبد الله بعد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبل هي كل ما يملكه؟!؟

وأخيراً استقر محمد اليتيم في أحضان (حليمة السعدية).. شغفها حباً وحملته على راحلتها ليسترضع في مضارب (بني سعد بن بكر)^(١) قوم حليمة وأهلها.. وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو.. ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين.. وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات.. ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة.. ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.. كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر.. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات ويمرحان ويلعبان.. وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه فيسكن ما بهما من جوع.. كانت أياماً تشع بالبراءة والجمال والبهجة.. لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمداً قد قُتِل

فما الذي حدث.. ولماذا يقتل طفل.. من الذي يستطيع اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

ما حدث هو أن الصباح أيقظ الطفلين.. فخرجا من الخباء خلف أغنامهما.. ولم يذكرأ أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى.. وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه فقال لأخيه: (يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)^(٢).

(١) حديث صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢٢٨/١).

(٢) حديث حسن بالشواهد وإسناده فيه ضعف لجهالة: عبد الرحمن السلمي، وقد رواه أحمد وأبو نعيم. انظر (سيرة ابن كثير ٢٢٩/١) والحديث يشهد له ما بعده. وفيه أي حديث أحمد وأبي نعيم بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه بعمومه يشهد له ما بعده.

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في الصحراء فهل حدث له شيء؟

نعم شق صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.. دعونا نستمع إليه وهو يحدثنا فيقول: (فينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضحعاني فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلوا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه:

زنه بعشرة من أمته. فوزني فوزنتهم.

ثم قال:

زنه بمائة من أمته. فوزني بمائة فوزنتهم.

ثم قال:

زنه بألف من أمته. فوزني بألف فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم^(١).

لقد شق صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً.. بينما هو ينظر ما يفعله هذان الملكان به.. ولقد رأى رسول الله ﷺ أصحابه موضع الشق بعد النبوة.. مما يؤكد أن هذه الحادثة حقيقة مادية.. كانت الطريقة التي تمت بها فوق إمكانات البشر وطاقتهم وتصوراتهم.. يقول أنس بن مالك رضي

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

الله عنه: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره حليلة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون)^(١).

يقول أنس بن مالك مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)^(٢).

هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ.. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة.. فصاروا يلفقون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون نبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. وهو أغنى الناس عنهم وعن أكاذيبهم^(٣).. كما شطح على الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حليماً وليس حقيقة.. فيماذا تراهم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟ نعم لقد رآه.. ولقد صدق. ولقد حدث. وهذا ما جعل حليلة بعد سماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه.. أتراها تعيده من أجل رؤيا.. ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم.. هل دسهم محمد ﷺ قبل نومه في عقله الباطن..؟! لئن هربت عقولنا من كل حديث صحيح النقل لمجرد أننا لم ندركه إن تلك لكارثة^(٤).

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٣) مثال ذلك ما لفته الغلابي وغيره حول هذا الحدث. انظر ذلك في موسوعة السيرة.

(٤) مثال ذلك حديث رواه البخاري وغيره أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحدكم فليغمسه كله في الشراب ثم يخرجه فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر

عاد محمد الصغير إلى أحضان آمنة.. ترعاه وتحنو عليه.. تحدثه ويحدثها تلاعبه ويلاعبها.. وتقص عليه وتملاً دنياه ويملاً دنياها.. فأى براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليلة.. لا شيء كالأطفال براءة.. فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة آمنة وسعادتها به.. ويا لشقاءه بها وحزنه عليها.. بعد أن أخذته معها متجهة به نحو أحواله في (يثرب).. حيث قضى وقتاً هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها.. وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب.. فسأعود لأضع لك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

ثم رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة.. وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة توقفت المطايا.. ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلق عيناها بها وهي تتوجع وتن أمامه.. فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها سوى نظرات حائرة خائفة.. وتزيد آلامها ويزيد أثنينها، وتموت آمنة وتدفن أمام عيني.. بعيداً عن مكة.. بعيداً عن عبد المطلب.. بعيداً عن أعمامه.. تؤخذ آمنة منه.. وتوارى تحت أكوام التراب.. ويعود باكياً وحيداً حزيناً وقد تيمت مرة ثانية.. يعود إلى مكة.. يعود إلى ذلك البيت الصغير.. ويجول ببصره في أركانه الصامتة.. هنا كانت ترقد آمنة..

دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة - والشيعة لا يؤمنون بالأحاديث التي نقلها الصحابة - فماذا كانت النتيجة، لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً بعد أن أجروا التجارب الكثيرة، ولقد تابع هذه التجارب الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر ودونها في كتابه (الإصابة في صحة حديث الذبابة) وهو يبحث في صحة هذا الحديث من الناحية النقدية والطبية.

وهنا كانت تعد له طعامه.. وهناك كانت تلاعبه وتسعى لإضحائه
عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.. وفي هذا المكان كان يستحم
بيديها.

أيها البيت الصامت كالحداد لم يعد هناك صوت.. أيها البيت
الصامت لم يعد هناك أم.. لم يعد هناك أمانة.. إنها ترقد هناك بالأبواء..
فيا للوعته وهفه ويا حر قلبه عليها.

ربما تنبه ليلة فلم يجدها بقربه ففاضت عيناه بالدمع.. وألجمه الحزن
والحنين إليها.. أو ربما كان يسأل جده وأعمامه عنها فيتجرعون
الصمت.. وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتيه عنهم الإجابة.. إن
للطفل أسئلة ملحة ومحرجة.. فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الدهر
بأبيه وأمه.. يسأل عنها ومتى ستعود وإلى أين ذهبت.. وهل ستتركه
وحيداً أم سيذهب إليها.. أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصرتك
خفضت رأسك وبكيت.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقرها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم
بقبرها فرئي له بكاء لم يبكه من قبل.. يقول بريدة رضي الله عنه:
(انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك
رأسه كالمنخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه،
فقال:

يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال:

هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي،
واستأذنته في الاستغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت.

فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة^(١).

ومرة يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

(خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بودان قال: مكانكم حتى آتيكم. فانطلق، ثم جاءنا وهو ثقيل. فقال: إني آتيت قبر أم محمد^(٢)، وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع.. فهو مجرد نبي مرسل.. والأمر كله لله وحده.. فعليه الصبر والاحتساب.. كما صبر في صغره على مرارة اليتيم ووحشته.

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة.. امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً إليه..
حملة إلى بيته حيث تربى في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع..
صاحب الشرف وساقى الحجيج.. فكانت أولى خطواته في درب
الرجولة.. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية.. وكأن اليتيم علمه أن الحياة
لا تستحق شيئاً.. لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح.. لقد أحبه عبد
المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه.. فلم يرسله في حاجة إلا جاء
بها.. ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل. إلا في يوم من
أيام الحج.. حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقى الحجيج وزعيم

(١) ذكر ابن كثير هذا الحديث وعزاه للبيهقي، وأورد إسناده وهو صحيح: سفيان الثوري،
عن علقمة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي. انظر التقريب (٣٢١/١)
وعلقمة بن مرثد الحضرمي، ثقة أيضاً. انظر التقريب (٣١/٢)، ورواه البيهقي أيضاً (سيرة
ابن كثير ٢٣٦/١) بسند حسن لولا عنعنة ابن جريح فيه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وهو حسن بالشواهد لأنه من طريق أيوب بن جابر بن سيار السحيمي
وفيه ضعف. (التقريب ٨٩/١) سيرة ابن كثير (٢٣٦/١).

قريش وسليل الأنبياء.. لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مدهول
يهزول نحو بيت الله لا يلوي على شيء.. وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى
رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً

يا رب رده واصطنع عندي يداً)^(١)

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من
أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل.. ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت
تثير التساؤل.. فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن
ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما
برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني
لقد حزنت عليك حزناً، لا تفارقني أبداً)^(٢).

لم يفارق هذا الصغير جده.. ولم تكن أيامهما كلها رخاء وسعة..

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢٠/٢) وذكره الذهبي في سيرته، من طريق
خارجه ابن مصعب، عن هز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن، لولا
خارجه بن مصعب فقد قال الحافظ: صدوق، لكن في ذلك نظر، لأنه اعتمد على توثيق
ابن حبان فقط وابن حبان قد سكت عنه في الثقات (١٣٣/٨) لذلك فحديثه جيد في
المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً، انظر السيرة (١١٥/١):
عناية جده.

(٢) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢٠/٢) وذكره الذهبي في سيرته، من طريق
خارجه ابن مصعب، عن هز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن، لولا
خارجه بن مصعب فقد قال الحافظ: صدوق، لكن في ذلك نظر، لأنه اعتمد على توثيق
ابن حبان فقط وابن حبان قد سكت عنه في الثقات (١٣٣/٨) لذلك فحديثه جيد في
المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

فلقد (تتابعت على قریش سنون جدبة^(١) أقلحت^(٢) الجلد وأرقت^(٣) العظم).. وبات الناس في شظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال.. طفلة صغيرة كانت تسوق بهمات لأهلها في تلك السنون الجافة.. فيجري لها أمر غريب، تحدثنا عنه فتقول:

(بيننا أنا ومعني صنوي^(٤) أصغر مني، معنا بهمات^(٥) لنا وربا، وأعبد، يردن على السحق^(٦)، فبيننا أنا راقدة - اللهم - أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيت، يصرخ بصوت صحل^(٧)، يقول: يا معشر قریش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه، فحي هلا بالخير والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً^(٨)، أشم العرينين^(٩)، له فخر يكظم عليه، وسنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف^(١٠) إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشئوا^(١١) من الماء، وليمسوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس^(١٢)،

(١) أي سنون لم يترل بها مطر.

(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعاهدها.

(٣) جعلته ليناً.

(٤) الصنو: الأخ الشقيق.

(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.

(٦) السحق هو البالي أو البعيد.

(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.

(٨) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.

(٩) الشمم في الأنف هو ارتفاع القصبه وحسنها واستواء أعلاها، وهو كناية عن الرفعة والعلو والشرف.

(١٠) يمشي.

(١١) يصبوا والمراد الاغتسال به.

(١٢) جبل في مكة.

فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا فغنمتم إذا ما شئتم وعشتهم.

قالت رقيقة: فأصبحت -علم الله- مفؤودة، مذعورة، قد قف^(١) جلدي، ووله عقلي، فاقتصصت رؤيائي، فنمت في شعاب مكة، فو الحرم والحرم، وإن بقي بها أبطحي، إلا قال: هذا شبية..

وتنامت عنده قريش، وانفض^(٢) إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، استلموا، وطاقوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون^(٣) حوله ما إن يدرك سعيهم مهله حتى قر لذروته، ما ستكفوا جنابيه، ومعهم رسول الله -وهو يومئذ غلام قد يفح أو كرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم ساد الخلة^(٤) وكاشف^(٥) الكربة، أنت عالم غير معلم، مسول غير منحل^(٦)، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك -يعني أمانة حرمك- يشكون إليك سنتهم^(٧) التي أقلحت الظلف^(٨) والخف، فاسمعن اللهم وامطرن غيثاً مربعاً مغدقاً.

(١) اقشعر.

(٢) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٣) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والمراد أحاطوا وأحذقوا.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثلثة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزبل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك أحد.

(٧) السنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير

بالانتباه للسنة حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن

السنة أن تمطروا... وتمطروا... ولا تنبت الأرض شيئاً» رواه مسلم وأحمد.

(٨) الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي وغيرها.

فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها، وكظ^(١) الوادي
 بشيجه، فسلمعت شيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب:
 هنيئاً لك يا أبا البطحاء - هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحاء، وفي
 ذلك تقول رفيقة بنت صفي:

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
 فجاء بالماء جوني له سبل ودان فعاشت به الأمصار
 سبيل من الله بالميمون طائرة وخير من بشرت يوماً به
 مبارك الأمر يستسقى الغمام ما في الأنام له عدل ولا
 عادت الحياة خضراء في مكة.. واهتزت الأرض وربت بفضل ربها..
 وضحك الربيع للجميع.. لكن السعادة لم تدم لمحمد.. فها هو بعد مدة
 ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقه ومرارة.. لقد مات
 عبد المطلب جده وآخر آبائه.

(١) ضاق الوادي من كثرتة.

(٢) هذا الخبر حسن، فقد رواه البيهقي من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميد الخلال،
 حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران عن ابن حويصة، حدثني
 مخزومة بن نوفل، عن أمه رقيقة بنت صفي.
 والطريق الثاني: زكريا بن يحيى بن عمر الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن
 منهب، قال: قال عمي عروة بن مضر، يحدث عن مخزومة بن نوفل عن أمه رقيقة...
 وفي الطريق الأول عبد العزيز بن عمران، اختلط فحش غلظه، وهو غير متهم، والآخر
 يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير. انظر التقريب (٥١١/١) (٣٧٧/٢) أما الطريق الثاني
 ففيه زكريا الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١).
 ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتويع الكلبي عند البلاذري. (أنساب الأشراف ٨٢)
 وقد نسب صاحب السيرة الشامية الحديث للطبراني وابن أبي الدنيا. (١٧٨/٢)

في بيت أبي طالب

حن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف السرير.. ورق لحاله وكربه وبثه.. فحمله إلى بيته.. ورعاه كأنه من صلبه.. ينسيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً.. فكان يلازمه في كل مكان.. في مكة في مجالسها وطرقاتها.. كان رفيقه في بعض الرحلات.. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن.. والصفية تتجه نحو الشام.. وللرحلتين أمن كأمن مكة.. ذكره الله فقال سبحانه: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٍ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿١﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾ ﴿١﴾، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشام ومعها (خرج أبو طالب ومعها محمد ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب (بحيرى) هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يعمرون به فلا يخرج، ولا يلتفت إليهم، فترل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم، حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ، فقال:

هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش:

وما علمك؟ فقال:

(١) سورة قريش.

إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً،
ولا يسجدون إلا لنيي، وإني عرفته بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه.
ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل،
فقال: أرسلوا إليه:

فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم، قال بحيرى:

انظروا إليه، عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى
فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه. قال بحيرى:

انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم - أي
بحيرى - وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه
بالصفة فقتلوه، فالتفت، فإذا بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا: فاستقبلهم
بحيرى، فقال:

ما جاء بكم؟ قالوا:

جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه
ناس، وإنا أخبرنا خيره إلى طريقك هذه. فقال بحيرى:

فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا:

لا، إنما أخبرنا خيره إلى طريقك هذه، فقال بحيرى:

أفأريتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟
فقالوا: لا. فبايعوه، وأقاموا عنده، فقال بحيرى الراهب:

أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا:

أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده^(١) إلى مكة خوفاً عليه بعد أن تأكد من صفاته: صفات النبي المنتظر.

الأمين والغنم

الناس وقود الحياة.. يكدحون.. يحترقون ليشعلوها.. ولم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. فيقتات من نسبه.. ويستطعم من شرفه.. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسه لصخورها.. ويشق طريقه بذراع مفتول.. وجبين مرفوع.. وشباب متجدد.. تعاملت معه قريش كلها.. حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل اسم هو له.. ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده يُذكر من يمر بها ويكتفي.. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة.. فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)^(٢). الأمين.. نعم هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يذلوله له بألسنتهم.. لقد جربوه وخبروه.. والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب.. وليس لدى محمد الشاب ما يذله من مال أو سلطة ليرغمهم على قول ذلك.. لا سيما وهو أصغرهم سنًا.. بل وربما كان أفقرهم وأيتهم.

لقد أُلجأه الفقر إلى أشقى المهن وأبسطها.. لقد كان يسير طوال نهاره

(١) إسناده قوي، رواه الترمذي. الخرائطي (سيرة ابن كثير ٢٢٦/١) وأبو نعيم (١٢٩): حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: ... وأبو بكر ابن أبي موسى الأشعري؛ تابعي ثقة، اسمه أبو بكر بن أبي موسى الأشعري. (التقريب ٢) ويونس ابن أبي إسحاق السبيعي، حسن الحديث، انظر تهذيب التهذيب (٤٣٣/١) أما قراد، فاسمه عبد الرحمن بن غزان الضبي، فهو أحد الثقات. التهذيب (٢٤٧/٦).

(٢) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (بين الكعبة ويضع الحجر).

خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)^(١) مهنة شاقة تمارس بأجر
 بنحس.. لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).. مهنة البسطاء وقادة الأرض
 والعظماء.. وهل هناك أعظم على وجه الأرض من نبي.. ومع ذلك (ما من
 نبي إلا وقد رعى الغنم)^(٢) ربما لأن صورة القطيع من الماشية تشبه سير سواد
 الشعوب في العالم وهم يبحثون عن لقمة العيش.. ومهمة الراعي تتطلب
 البحث عن أوفر المراعي عشباً وكلاً وإن لم يكن في هذه المراعي مستراحاً
 للراعي ورفاهية له.. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه
 ومفتريه.. إن الرعي بقدر ما يولد من القسوة والخشونة في حياة الراعي..
 يهب له قلباً حنوناً عطوفاً على رعيته.. والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه
 الصفات.. فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما.
 وبعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام..
 ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشباب ويعيش بينهم.. ويسمع بمغامراتهم في ارتياد
 كهوف البغاء.. والقصف في الخمارات.. لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى
 اسمه ورجولته.. ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش.. والأمر عنده لا
 يتعدى دائرة حديث النفس والأمان لا أكثر.. إنه يتحدث عن تلك الأمور
 التي خطرت عندما كان يمسك بعصاه يهش بها على غنمه:

(ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري بلفظ: (نعم كنت أرها على قراريط لأهل مكة).

(٢) حديث صحيح. البخاري.

ليتين، كلتاهما عصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة -
ونحن في رعاية غنم أهلنا- فقلت لصاحبي:

أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان.
فقال: بلى. فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً
بالغرايبيل والمزامير. فقلت:

ما هذا؟ فقيل:

تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما
أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال:

ما فعلت؟ فقلت:

ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى:

أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة
سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل:

فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما
أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال:

ما فعلت؟ قلت:

لا شيء. ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء
حتى أكرمني الله بنبوته^(١).

(١) حديث حسن. رواه البيهقي (٣١٥/١) وابن حبان (زوائده ٥١٥) أبو نعيم (١٨٦)، من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخزوم، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي، وقد قال ابن حجر رحمه الله في هذا الإسناد: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات.

إن أناساً تعلوهم الغرائز.. وتلوي أعناقهم الشهوات.. فيجهدون في الحصول عليها دون أن يوقفهم نداء ناصح.. أو زجر زاجر.. يبدلون الأموال كالخطوات.. حتى يظفروا بسويجات حمراء وخيمة العواقب.. فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار.. لكن محمداً أوقفته حفلة عرس.. وهددته حتى نام.. لأنه مهذب أتعبته هموم العمل والتزام الوظيفة.. تشقت قدماه من صخور الجبال وأدمتها أشواك الصحاري.. فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً.. فلاح له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب له ذلك.. فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البريء ما أزاح ركام الهم عن قلبه ليقي مشرعاً للسرور والابتهاج.. ولم تكن المرأة بعد ذلك بعيدة عن خياله وأحاسيسه.. وكان -كأي شاب سوي- بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة.. لكنه لم يجد فتاة بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال.. ولها من المال شيء وفير.. سمعت عن محمد بن عبد الله فشدها

وقال الهيثمي (٢٢٦/٩): رواه البزار، ورجاله ثقات. ولكن يلاحظ أن أحد رجال هذا السند؛ هو محمد بن عبد الله بن قيس، وهو وإن كان من رجال الشيخين؛ إلا أن الحافظ قال عنه: مقبول في التقريب (٧٩/٢) وهذا القول يجعل حديثه مقبولاً إذا توبع أو كان له شاهد يقويه، وللحديث شاهد ذكره الإمام الذهبي في سيرته (٤١) من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وعلة هذا السند جهالة حال زياد النخعي، فقد سكت عنه ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٦) ولم يعرفه الدارقطني. انظر المغني (٢/ ٢٤٣)

ما سمعت... أمانة ورجولة واتزان.. فتمنته زوجاً رغم كبر سنها بالنسبة إليه.. ورغم زواجها من قبل.. وتم لها ما أرادت.. لكن أباه كان عقبة تحاول إعتار هذا الزواج.. لكن حب خديجة وذكاءها كانا أكبر من تحريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأسه.. لقد ملك عليها محمد شغاف قلبها.. فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له.

يقول ابن عباس رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أباه وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقتة، وألبسته حلة - وكذلك كانوا يفعلون بالآباء- فلما سرى عنه سكره، نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال:

ما شأني هذا؟ قالت خديجة:

زوجتني محمد بن عبد الله. قال:

أزوج يتيم أبي طالب؟ لا لعمرى، فقالت:

أما تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخير الناس أنك كنت سكران، فلم تنزل به حتى رضي^(١) وأذعن للأمر الواقع. أما محمد ﷺ فلم

(١) رواه الإمام أحمد بسند قوي (الفتح الرباني (١٩٧/٢٠)، من طريق أبي كامل، حدثنا حماد ابن سلمة عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس. وهذا الإسناد قوي، فأبو كامل شيخ أحمد واسمه مظفر بن مدرك الخراساني، ثقة، انظر التهذيب (١٨٣/١٠) والتقريب (٢٥٥/٢)، وأما عمار فحديثه حسن، انظر التقريب (٤٨/١) وأما حماد بن سلمة فمعروف. وهذا هو الخير القوي الذي استطعت الوصول إليه عن كيفية الزواج، فقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في

يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان له في صغيرات قريش ما يريد، لكنه يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة ليواصل حياته و:

يبني الكعبة

ويضع الحجر الأسود

لما بلغ ﷺ الخامسة والثلاثين.. كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح.. فقد كانت (مبنية بالرضم^(١))، ليس فيها مدر^(٢))، وكانت قدر ما يفتحها العناق^(٣))، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم يسدل سداً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، باديماً، وكانت ذات ركنين، كههيئة هذه الحلقة^(٤))، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقدموا بالرومي، فقالت قريش:

بني بهذا الخشب بيت ربنا، فلما أن أرادوا هدمه، إذا هم بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائز، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارتها سعت إليه فاتحة فاهها،

الخامسة والعشرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) الزواج.

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٢) المدر هو الطين اللزج.

(٣) أنثى من أولاد الماعز.

(٤) مثل حرف ٨.

فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا^(١) إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشریف بيتك وترتيبہ، فإن كنت ترضی بذلك وإلا فما بدا لك فافعل.

فسمعوا حواراً^(٢) في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذئبها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً^(٣) وكان محمد ﷺ يشاركهم في ذلك البناء، وكان ممن ينقل الحجارة من الوادي، عندما ناداه مناد لا يعرفه ولا يستطيع أن يراه، وكان سبب النداء، أنه عندما كان (يحمل حجارة من أجياد - وعليه نمرة^(٤)) - إذ ضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فبدت عورته من صغر النمرة فنودي: يا محمد، حَمْرٌ^(٥) عورتك. فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك^(٦).

(١) رفعوا أصواقهم بالدعاء إلى الله.

(٢) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.

(٣) ما بين الأفواس حديث صحيح الإسناد رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢/٥) عن معمر، عن عبد الله، عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال:

وهذا الإسناد صحيح، فمعمر شيخ عبد الرزاق أحد الأعلام الثقات، انظر التهذيب (٢٤٣/١٠) وتقريب التهذيب (٢٦٦/٢).

وعبد الله شيخ معمر وهو التابعي: عبد الله بن خثيم، وهو ثقة حجة، انظر تهذيب التهذيب (٣١٤/٥) وأما أبو الطفيل فهو صحابي. وقد صحح هذا الحديث الإمام الذهبي، في سيرته (٢٠) حيث قال إنه: صحيح.

(٤) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

(٥) أي غط عورتك.

(٦) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

وربما كان هذا هو

النداء الأول لحمد ﷺ

قبل النبوة فقد جاء ذلك في وصف الكعبة وبنائها، وأنه (كان برضم^(١)) يابس ليس بمدر، تتروه العناق، وتوضع الكسوة على الجدار، ثم تدلى، ثم إن سفينة لروم أقبلت، حتى إذا كان بالشعبية انكسرت، فسمعت بها قریش، فركبوا إليها، وأخذوا خشبها، ورومي يقال له: باقوم. بنجار، بان^(٢)، فلما قدموا مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا عزوجل، واجتمعوا لذلك، ونقلوا الحجارة، من أجياد الضواحي، فبينا رسول الله ﷺ ينقل إذ انكشفت نمرته فنودي: يا محمد عورتك. فذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رؤيت له عورة بعد^(٣).

وكان الذي أشار عليه ﷺ برفع إزاره هو عمه العباس رضي الله عنه، فقد قال له: (يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة. ففعل ذلك، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً^(٤)).

وقد شهد العباس هذه الحادثة، وكتمها، ولم يقصها إلا بعد زمن طويل على ابنه عبد الله فقال: (كنت أنا وابن أخي - محمد ﷺ - ننقل

(١) الرضم: صخور بعضها على بعض.

(٢) أي كان يعمل في النجارة والبناء.

(٣) إسناده صحيح، ذكره الذهبي بإسناده (٣٦) ورواه البيهقي (٣٢٦/١). وهو من طريق

داود بن عبد الرحمن العطار، وهو ثقة. انظر التقريب (٢٢٣/١) عن ابن خثيم، وقد مر

معناه، عن أبي الطفيل رضي الله عنه.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه.

الحجارة على رقابنا، وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشنا^(١) الناس اثترنا، فبينا هو أمامي خر على وجهه منبطحاً، فجئت أسعى إليه، وألقيت حجري - وهو ينظر إلى السماء- فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره، وقال: نُهيت أن أمشي عرياناً. فكنت أكتمها مخافة أن يقولوا مجنون^(٢).

وارتفعت الكعبة من جديد.. وشمخت شموخ التوحيد.. تشير بوحدانية الله.. وابتهجت قريش بصنيعها وترتيب بيت رها.. ولم يبق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه.. ووضعه في زاويته من الكعبة.. فمن سيعيده.. من سيضعه.. من هو الأحق بهذا الشرف؟ إن بناء الكعبة واسع لدرجة استيعاب الآلاف للمشاركة فيه ونيل شرفه.. لكن الحجر الأسود لا يحتمل أكثر من أذرع قليلة تحمله.

اختلفت بطون قريش.. وحق لها أن تختلف في مثل ذلك الزمن المتكئ على تلك العقول المتصخرة التي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأسنة الرماح.. وأنهار الدماء.. ألم يحدثنا التاريخ عن حروب دامت عشرات السنين وثار غبارها من أجل سنام جمل أو مضمار خيل.

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حديث حسن لغيره، وذكره الذهبي في سيرته (٣٨) من طريقين عن: سماك عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، عن العباس رضي الله عنهم. وهذا الحديث رجاله ثقات، عكرمة تابعي معروف وهو ثقة. وسماك جيد الحديث، لكن سماك بن حرب رحمه الله منتقد الحديث عن عكرمة، فقد امتدح النقاد حديثه ما عدا حديثه الذي يرويه عن عكرمة مولى ابن عباس، فقد قالوا كما في التهذيب والتقريب (٣٣٢/١): إنه اضطرب فيه. لكن هذا الحديث له من الشواهد التي مرت معنا، والتي ذكرتها في موسوعة السيرة ما يشهد له ويرفعه إلى درجة القبول، فهو حسن لغيره قوي بالروايات الأخرى. والقائل: كنت أكتمها. هو العباس خوفاً على ابن أخيه من التكذيب.

إن جمال الدنيا وخيلها والخصومة عليها.. لا تطاول الخصومة على
أقدس الأشياء التي احتلت قلوب العرب قبل أراضيتها.. الكعبة والحجر
الأسود.

فهل ستصبغ قريش كعبتها بدماء أبنائها.. هل هناك مخرج آخر لهذه
الأزمة. لهذه الكارثة التي تطل من موضع الحجر.

كان الله رحيماً بهؤلاء العرب عندما قرروا تحكيم أول رجل يدخل
عليهم المسجد.. فكانت هذه القصة التي يرويها لنا شاهد عيان شارك
وبنى وحضر الخصومة حيث يقول: إني كنت (فيمن يبني الكعبة في
الجاهلية، ولي حجر أنا نحتته بيدي أعبدته من دون الله، فأجيء باللبن
الخائر، الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسه، ثم
يشغر^(١) فيبول. فبنينا حتى بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو
وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل، فقال بطن
من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحن نضعه. حتى كاد أن يكون
بينهم قتال بالسيوف. فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع
من الفج^(٢) فجاء النبي ﷺ. فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في
ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو^(٣) وبيده الكريمة

(١) أي يرفع إحدى رجله ليبول.

(٢) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٣) إسناده صحيح، رواه عبد الصمد بن النعمان (سيرة الذهبي ٤٠) وأبو نعيم في الدلائل، من
طريقين أما عبد الصمد فقال: حدثنا ثابت بن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن
مولاه قال:.... وثابت بن يزيد الأحول ثقة، انظر التهذيب... وكذلك هلال بن خباب
العبدى، انظر التقريب (٢٣/٢)، وطريق أبي نعيم: عباد بن العوام عن هلال... وعباد
ثقة. انظر التقريب (١/٣٩٣).

أوقف سيلاً من الدماء كاد أن ينفجر.. وفرقة بين أهل مكة كادت أن تبيدهم.. ساقه الله إليهم فلما لحوه أشارت قلوبهم قبل أصابعهم: أتاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها من رجالها ونسائها وأطفالها.. من شوارعها وأزقتها.. من أبوابها وجدرانها.. من نسيمات الهواء وحببات الرمل.. مكة كلها سمته الأمين.

سمته الأمين وهو يرعى أغنامها.. وسمته الأمين وهو يتعامل معها ولعل أشد الناس تأثراً بأمانته وصدقه: صفيه وحببيه وصديقه: عبد الله بن أبي قحافة الملقب بـ: أبي بكر.. لقد تأثر الجميع بأمانته لا سيما بعد أن بدأ:

يشتغل بالتجارة

فلقد كبر محمد وكبرت أمانته.. فترك رعي الأغنام ليدخل إلى عالم آخر.. عالم الاقتصاد.. لبيع ويشترى.. ويربح.. ويتنامى نشاطه وماله وعلاقاته.. إنه الآن يقيم شراكة مالية متينة بينه وبين رجل من قومه اسمه: السائب بن أبي السائب.. وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ. يحدثنا عن ذلك السائب نفسه فيقول:

(أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي [مرحباً بأخي وشريكي] (١) كنت شريكي [في الجاهلية] (٢) فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري) (٣).

(١) زيادة عند الحاكم (٦١/٢١).

(٢) زيادة عند الحاكم (٦١/٢١).

(٣) زيادة عند الحاكم (٦١/٢١).

إذا فقد (كان شريك النبي ﷺ.. في التجارة)^(١) وكان عنوان تجارته هو: الأمانة وإلا لما لقب بالأمين.. أصبح لدى محمد مال.. فاشترى عبداً اسمه زيد بن حارثة^(٢) لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم.. كان زيد كالابن لمحمد.. بل سماه زيد بن محمد.. أدب وتحضر وأخلاق عذبة.

لقد أجّله الجميع.. واحترمه الجميع.. وأحبه كل من عرفه.. ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب.. لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

حتى الحجارة تحبه

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها.. فكان يحمل ذكراها في قلبه ويحدث بها أصحابه.. يحدثهم عن ذلك الحب فيقول: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)^(٣).

إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدر ما نشهده من صمت وسكون.. لكن الكون يريد قلباً.. يريد عقلاً ليكتشف ذلك المعبد فيه.. وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمداً.. أم وهب محمداً إدراكاً ليفهم لغة الحجر.. فكان ذلك السلام.. وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ﷺ ومكة.. وانتهى بمحمد وما وراء مكة.. أشياء غريبة تحدث لا يجد لها تفسيراً.. فيلجأ إلى حبيته خديجة.. إلى قلبها الحنون فيقول يا خديجة: (إني أرى ضوءاً، وأسمع

(١) زيادة عند الحاكم (٦١/٢١).

(٢) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك وستأتي أحاديث أخرى.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

صوتاً وإني أحشى أن يكون بي جنن - فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبد الله^(١).. ثم تذهب تستفسر ذلك القس الطاعن في السن - ابن عمها- ورقة بن نوفل فتذكر له ما يحدث لزوجها.. فيقول لها: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به)^(٢) حتى هذا القس النصراني كان يحس.. كان ينتظر.. فالوضع على الأرض أكثر من سيئ وهو بحاجة إلى منقذ يحطم هذه الأصنام.. ويرتقي بهذا الإنسان المرتكس في الوحل.. أما محمد فكانت أقواله وسلوكياته تقول:

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقر أصنامهم ويرفض كل ما يمت لها بصلة.. ها هو مع مولاه زيد بن حارثة.. أمام أحد الأصنام.. وها هو زيد يحدثنا عما جرى فيقول: (كان صنم من نحاس يقال له إساف، أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطففت معه، فلما مررت مسحت به. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت - في نفسي-: لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته. فقال رسول الله ﷺ: ألم تُنه؟. فوالذي أكرمه وأنزل

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد. الفتح الرباني (٢٠٧/٢٠) من طريقين:

أ- حماد أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس.

ب- حماد أخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلأ. والمسند أصح، لأن الراوي عن حماد في المرسل: هو عفان وهو ثقة ثبت لكنه ربما وهم. أما الرواة عن حماد في المسند. فهما ثقتان لم يذكر لهما أوهام، وهما: مظفر بن مدرك (أبو كامل) والحسن بن موسى الأشيب. ثم إن المرسل عندما يسأل عن مصدر خيره فإنه يسنده فلا اضطراب هنا.

(٢) حديث صحيح. سيمر معنا.

عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه^(١).

حتى في الحج.. وفي يوم الوقوف بعرفة.. يخالف قومه الذين أرادوا منح أنفسهم امتيازاً على بقية الناس.. وذلك بوقوفهم عشية ذلك اليوم بمزدلفة.. أما هو فقد كان ﷺ يخالفهم.. كان يقف بعرفة من بين قومه كلهم. يقول جبير بن مطعم: (لقد رأيت رسول الله ﷺ - وهو على دين قومه - وهو يقف على بعير له بعرفات، من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل له)^(٢).

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كانت قريش، ومن يدين دينها - وهم الخمس^(٣) - يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات)^(٤).

(١) حديث حسن. رواه البيهقي من طريق: الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة (التهذيب ٣٠٢/٢)، حدثنا أبو أسامة: حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص، وهو حسن الحديث (التهذيب ٣٧٥/٩) عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان. التقريب (٤٣٠/٢) و (٣٥٢/٢).

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق فقال: حدثنا عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه جبير قال: وهذا السند (سيرة ابن كثير ٢٥٤/١) صحيح، فابن إسحاق ثقة لكنه مدلس، وهو هنا لم يدل بسند صريح بالسماع من شيخه عبد الله. وشيخه ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم تابعي صغير وثقة معروف. انظر التقريب، وأما عثمان بن أبي سليمان، فهو أيضاً تابعي ثقة. انظر تهذيب التهذيب والتقريب (٩/٢). وكذلك نافع بن جبير بن مطعم تابعي ثقة. فالإسناد بذلك صحيح متصل.

(٣) سموا كذلك لتشدهم في دينهم وقيل لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٤) متفق عليه.

ويقول جبير بن مطعم أيضاً: (أضللت بعيراً لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)^(١).

كان امتياز قريش هنا زائفاً.. ففر الصواب من بين جموعهم واستقر على بعير محمد ﷺ.. تلك هي الفطرة السليمة التي تأبى الانحراف وتلك هي الغربة المريرة التي يعانيتها أفاذا من الـ:

غرباء

كان محمد ﷺ غريباً في أرض مكة.. وجوه يعرفها وقلوب ينكرها.. كان موحداً على دين أبيه إبراهيم.. يدرك أن الله أعظم شأناً من أن يصاغ من حديد أو نحاس.. أو ينحت من الصخر أو الخشب.. كان يدرك عظمة هذا الكون وعظمة خالقه.. وفي الغربة نفسها يعيش أفراد قليلون جداً.. يتوجهون إلى خالقهم الأحد ويعرضون عن هذه الأصنام التي زاحمت الناس على هذه الأرض بغير حق.. عبر الروابي والهضاب والصحاري.. سير حثيث بحثاً عن الحق.. زيد بن عمرو بن نفيل.. وورقة بن نوفل.. بعض هؤلاء الغرباء أصحاب عقول ناضجة.. لم يستسيغوا تلك الحجارة الموضوعية فوق الكعبة.. ولا ما ينسج حولها من أساطير وخرافات.. فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم. فقال:

إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال:

إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله. قال زيد:

(١) متفق عليه.

وما أفر إلا من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئاً، ولا أستطيعه فهل تدلني عليه؟ قال اليهودي:

ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال اليهودي:

دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد، فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال:

لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله. قال زيد:

ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله. ولا من غضبه شيئاً

أبداً، ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره. قال:

ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً. قال زيد:

وما الحنيف؟ قال النصراني:

دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال:

اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم^(١).

ويعود زيد إلى مكة غريباً كيوم غادرهم.. يرمق مكة ويرمق

جموعها.. أحقاً كانت هذه الأرض أرض التوحيد.. ما بالهم يشركون..

ينظر نظرة من ملأ قلبه الأسى واللهف.. رآته أسماء بنت أبي بكر على

هذه الحال (مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس

زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري - ثم يقول -: اللهم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم^(١). ثم يؤدي حركة غريبة كغربته تتوهج شوقاً إلى الله، وشوقاً يعبر به عما في قلبه، تقول أسماء: (ثم يسجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)^(٢).

لقد كان هذا الغريب إنساناً عظيماً في زمنه.. لا يتفوق عليه في سلامة الفطرة وصفاء الفكر إلا محمد ﷺ. لقد كان يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه مسرعاً بها نحو حفرة تلتهب بالرمضاء ليدسها فيها.. فينهض مسرعاً ويعترض طريقه.. ويتوسل إليه ألا يفعل.. فإذا أصر (أن يقتل ابنته قال له: لا تقتلها ادفعها إلي أكفلها، فإذا ترعرعت فخذها، وإن شئت فادفعها)^(٣). ثم يأخذ تلك البريئة الضعيفة.. يحملها إلى بيته يرعاهما ويحنو عليهما.. لأنه يعرف أن الله أرحم من عباده.. وأنه لم يخلقها لتدفن بعد مولدها.

(١) ما بين الأقواس: سنده صحيح. رواه ابن إسحاق. (سيرة ابن كثير ١/١٥٤)، فقد قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، وابن إسحاق ثقة مدلس، وهو هنا لم يدلّس بل صرح بالسماع من شيخه: هشام بن عروة بن الزبير، أما شيخه، فهو ثقة معروف، ووالد عروة إمام المغازي والتابعي الثقة العظيم، عروة بن الزبير ابن العوام، ووالدته هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) (٣) ما بين الأقواس: سنده صحيح. رواه ابن إسحاق. (سيرة ابن كثير ١/١٥٤)، فقد قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، وابن إسحاق ثقة مدلس، وهو هنا لم يدلّس بل صرح بالسماع من شيخه: هشام ابن عروة بن الزبير، أما شيخه، فهو ثقة معروف، ووالد عروة إمام المغازي والتابعي الثقة العظيم، عروة بن الزبير بن العوام، ووالدته هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

أمة وحده زيد بن عمرو بن نفيل.. هكذا عاش وهكذا سيبعث
عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)^(١).

ولم تكن عودة زيد لمكة ليأسه مما ملأ الأرض من رموز الشرك.. بل
عاد لينتظر.. فلقد أرشده بعض الرهبان إلى قرب مخرج نبي مرسل.. في
أرض الحجاز.. زيد نفسه يقول: (شامت النصرانية، واليهودية
فكرتهما، فكنت بالشام، وما والاه، حتى أتيت راهباً في صومعة،
فوقفت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبادة الأوثان،
واليهودية، والنصرانية. فقال له الراهب: أراك تريد دين إبراهيم، كان
حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت
الذي ببلاذك، فالحق ببلاذك، فإن نبياً يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين
إبراهيم بالحنفية، وهو أكرم الخلق على الله)^(٢).

(١) حديث صحيح، رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة (سيرة ابن كثير ٥٦/١) من طريق
تابعي ضعيف هو عطية بن سعد العوفي، لكن له شواهد قوية، عند الباغندي (سيرة ابن
كثير ١٦٢/١) وعند أبي داود الطيالسي (١٦١/٢)، كما رواه محمد بن عثمان بن أبي
شيبة (سيرة ابن كثير ١٦١/١) وسند الباغندي قال عنه ابن كثير: صحيح وهو كما قال،
وطريق ابن أبي شيبة قال عنه ابن كثير أيضاً: إسناده جيد حسن، لكنه ليس كما قال:
ففيه مجالد وفيه ضعف، والحديث بهذه الطرق صحيح.

(٢) حديث حسن رواه ابن سعد (١٦٢/١)، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن
مجالد، عن أبيه عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، قال: قال زيد بن
عمر... وعلي ثقة رغم ما قاله ابن عدي (اللسان ٢٥٣/٤) وقد قال عنه ابن معين: ثقة،
ثقة، ثقة، وإسماعيل حسن الحديث: التقريب (٧٣/١) وعلة الحديث من والده، ففيه
ضعف وحديثه جيد بالشواهد والحديث يشهد له حديث البخاري السابق، وحديث آخر
عند الطيالسي (١٦١/٢)، وفيه جهالة حال نفيل، ولا ينفعه قول ابن حبان، روى عنه
المدنيون فلا بد من التوثيق اللفظي لكن حديثه جيد في الشواهد.

أما الرجل الآخر.. فهو ورقة بن نوفل الذي انتظر ذلك الخروج كما انتظر زيد... وبقي ينتظر حتى نزل الوحي.. وقد كانت خديجة تتردد عليه كلما حدث لرسول الله ﷺ شيء غريب لا يعرف له تفسيراً.. وكان ورقة يطمئنها ويأمل أن يكون نبي هذه الأمة المنتظر. فهذه الأمور:

لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ.. وتنحدر في نفسه الوجوم والاستفهام.. أصوات وأضواء.. أسرار وأقوال.. وماذا بعد؟ الناس لن تصدق.. والصمت مرير.. وليس سوى خديجة من منصت.. ربما لدى بعض الناس من تفسير.. لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت أقدام السؤال طريقها.. والنتيجة كلمات كالحميم: محمد مجنون.

لكن لليل نهاية.. ولا بد أن لهذا الكهف من مخرج.. إن الله رحيم ولن يترك هذا العبد الحائر في حيرته.. وها هو الوحي يبدأ خفيفاً كهواء البحر المنعش.. يبشر بحياة جديدة لمحمد وللأرض كلها.. فكان (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)^(١).

ذات يوم رأى رؤيا (فشق ذلك عليه، فذكرها ﷺ لامرأته خديجة بنت خويلد بن أسد، فعصمها الله عز وجل من التكذيب، وشرح صدرها بالتصديق، فقالت: أبشر، فإن الله عز وجل لن يصنع بك إلا خيراً، ثم إنه خرج من عندها، ثم رجع إليها، فأخبرها، أنه رأى بطنه

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان. قالت: هذا والله خير فأبشر^(١).

عندها علم أنه سيكون نبي هذه الأمة يقيناً من الله.. لقد قال ﷺ يوماً والصحابة حوله يبتهجون به وبأحاديثه: (ما علمت ذلك -أي أنه نبي- حتى أتاني ملكان ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما: أهو هو؟ قال: نعم. قال: زنه برجل. فرجحته. قال: فزنه بعشرة، فوزني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة، فوزني بمائة، فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف، فرجحتهم. فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأمته لرجحها، ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه. فشق بطني، ثم أخرج منه فعم الشيطان، وعلق الدم فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، فاغسل قلبه غسل الملائم، ثم دعا بالسكينة كأنها رهرره بيضاء، فأدخلت قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطني، وجعلا الخاتم بين كفتي، فما هو إلا أن وكيًا عني كأنما أعين الأمر معاينة^(٢).

(١) حديث حسن بالشواهد، له سندان مرسلان، أرسلها عروة والزهري، لكن يشهد له ما بعده.
(٢) حديث حسن بما قبله، رواه ابن عساكر (سيرة ابن كثير ١/٢٣٠) والبخاري. انظر مجمع الزوائد (٨/٢٥٥) وهذا سنده: جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي، أخبرني عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير، سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال: ... وجعفر ثقة، لكن شيخه عمر مجهول الحال سكت عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٧/٦) ويقويه ما عند أبي داود الطيالسي بسند فيه جهالة. انظر (منحة المعبود ٢/٨٦) ثم وجدت في دلائل أبي نعيم أن الراوي عن عروة هو ابنه عثمان وهو ثقة، وقد روى الحديث عن جعفر فيكون قد تابع عمر بن عبد الله، وهذا ما يدل عليه قول صاحب المجمع بعد أن تكلم عن جعفر: وبقية رجاله ثقات، وهو لم ينتقد من السند سوى جعفر وهو كما علمت ثقة كما قاله الإمام أحمد، انظر كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وقد عزاه صاحب السيرة الشامية إلى الحارث بن أبي أسامة. انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/٨٥).

أتذكرون مضارب حليلة.. حيث الأطفال والحملان الصغيرة..
عندها أقبل ملكان أبيضان كالسلام.. أضجعا ذلك الصغير وشقا صدره
وغسلاه.. وها هو طفل الأمس.. رجل يصافح الأربعين.. يعود إليه
الملكان ببطحاء مكة ليغسلاه مرة أخرى بماء السماء.. وينهض يحمل
فضل الله.. فما حدث يبشره ويقول: أنت النبي.. المنتظر حتى رأى.

الرؤيا الأخيرة

محمد ﷺ أصبح يفضل العزلة والتعب (حبب إليه الخلاء، وكان يخلو
بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعب الليالي ذوات العدد- قبل أن يتزع
إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)^(١)، ثم يعود
لذلك الغار المترقب على قمة جبل النور.. والذي يستغرق الصعود إليه
أكثر من ساعة.. ولم يكن ذلك طوال العام.. بل (في كل سنة شهراً
يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ
يجاور ذلك الشهر من كل سنة)^(٢) ولم يكن يمارس العبادة فقط.. بل كان
(يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول
ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا
كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج
إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي
أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

(٣) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

وبينما كان نائماً (جاءه جبريل بأمر الله تعالى. قال ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال:

اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ ففتني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال:

اقرأ. قلت: ماذا أقرأ؟ ففتني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال:

اقرأ. قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتدأء منه أن يعود لي بمثل ما

صنع بي. قال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

فقرأتها، ثم انتهى وانصرف، وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فرفعت رأسي إلى السماء، فأنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها، فقالت:

يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي. ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت:

أبشر يا ابن العم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة ابن نوفل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ، فقال ورقة بن نوفل:

قدوس.. قدوس.. والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى، وإنه لني هذه الأمة وقولي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقى ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة فقال:

يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت.. فأخبره، فقال له ورقة:

والذي نفسي بيده، إنك لنيبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر، الذي جاء موسى، ولتكذبه، ولتؤذينه، ولتخرجنه، ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله^(١).

(١) إسناده صحيح: رواه ابن إسحاق: حدثنا وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عميرة بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة.. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق لم يدلّس، ووهب تابعي ثقة.. انظر: تخريج أحاديث السيرة (٢٢٣/١) وسيرة ابن كثير (٤٠٢/١).

ليلة الحياة والقرآن

انصرف إلى منزله بعد أن حمل تفسير تلك الرؤيا.. لكنه لم ينقطع عن عبادة ربه.. واستمر على ما كان عليه ف (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليلي ذوات العدد- قبل أن يرتع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)^(١).

كان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرفة نوراً يهمس: لا إله إلا الله.. أما ليله فتبتل وتضرع.. كأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة (حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ).

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني.. زملوني.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).

فزملوه، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة -وأخبرها الخبر- لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة:

كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة:

يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبر رسول الله ﷺ خير ما رأى.

فقال له ورقة بن نوفل:

هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟

قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١).

إذا فهذه هي النبوة.. وهذا هو القرآن العظيم كلام الله يتزل على نبيه.. كلام الله الذي علم بالقلم.. وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمني

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

مطراً ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك وأشواكه.. المحفور بالجهل والتخلف والسحر والشعوذة.. فيرويه حياة ونضارة.. ويمسك الإنسان المؤمن من جديد بزمام الخلافة في الأرض ليعمرها بالحب والعدل والسلام.. فقد تعبت البشرية من ملاحقة الأشرار لها بأسلحة الظلم والضلال. نزل القرآن فقام محمد ﷺ برسالة ربه.

أسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق.. وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ فكان أول من أسلم من الرجال.. لكنه لم يعيش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشب ورقة أن توفي)^(١) بعد أن زفر بتلك الأمنية.. وتمنى الشباب للكدر لا للمتعة.. للبذل والفداء لرسالة جديدة ونبي يتربص له الاضطهاد خلف أشجار مكة.. ويكمن له الظلم في طرفاتها.. مات ورقة بعد أن حباه الله برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثاً عنه.. وقبع على قوارع الجهول ينتظره.. هذا بعض ما حدث على الأرض أما في السماء فهناك:

ثورة في السماء

فعندما نزل الوحي اشتعلت أرجاء السماء حمماً.. ولهيباً.. وشرراً يفتك برؤوس الشرك.. ومصانع الخرافة والضلال.. شياطين الجن الذين أرهقوا بعض البشر ودحرجوهم للحضيض.. كانوا (يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث جنوده، فوجدوا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه، فأخبروه. فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض^(١).

إن الله قد وهب الجن قدرات لكن منهم شياطين أساؤوا استغلالها.. جعلوا يسترقون السمع.. ثم يلقون ما استمعوه في بركة من الكذب.. ثم يسقونها الكهان الذين يتصلون بهم ويتقربون إليهم.. فزادوهم رهقاً وتخويفاً.. وجعلوهم يرتكسون في الشرك والشعوذة.. والجن قبائل منهم الصالحون ومنهم الفاسدون.. (لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع، فإذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديد ألقيتها على الصفا. فإذا سمعت الملائكة خرروا سجداً، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى يترل، فإذا نزل قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فإن كان مما يكون في السماء، قالوا: الحق، وهو العلي الكبير. وإن كان مما يكون في الأرض من أمر الغيب، أو موت، أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به فقالوا: يكون كذا وكذا، فتسمعه الشياطين، فيتزلونه على أوليائهم، فلما بعث النبي ﷺ دحروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأسرع الناس في أموالهم. فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يهتدون بها، وإلا فإنه لأمر حدث. فنظروا فإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شيء، فكفوا، وصرف الله الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، وانطلقت الشياطين إلى

(١) حديث صحيح. رواه أبو نعيم (سيرة ابن كثير ٤١٥): حدثنا الطبراني، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مریم حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا الإسناد صحيح رجاله ثقات ولا يعكر صحته سوى عننة أبي إسحاق عمر بن عبد الله وللحديث شاهد وهو ما بعده.

إبليس فأخبروه، فقال: هذا حدثٌ حدثٌ في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة، فقال: ها هنا الحدث^(١). وهذه قصة أخرى يرويها ويروي مثلها رجل رموز قريش وأقويائها اسمه: عمر بن الخطاب:

كاهن وجنية

في يوم بعثته ﷺ.. كان لأحد الكهان ارتباطه مع جنية.. يتحدث الكاهن إلى عمر بن الخطاب عنها وعن فرعها في ذلك اليوم العظيم فيقول: (بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني، أعرف فيها الفرع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسهـا
ويأسهـا من بعد إنكاسهـا
ولحوقهـا بالقلاص وإحلاسهـا

فقال عمر رضي الله عنه:

صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول:

يا جليلح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله.

فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله فقمتم فما نشبنا

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة، وابن سعد (١٦٧/١) والبيهقي. ورواية ابن أبي شيبة: محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وسند البيهقي: حماد بن سلمة عن عطاء، وسند ابن سعد: ورقاء بن عمر عن عطاء... وهذا الإسناد صحيح لولا اختلاط عطاء بن السائب في آخر عمره، لكن بعض العلماء قال: إن حماد بن سلمة قد سمع منه قديماً، وسواء كان ذلك أم خلافه فالحديث حسن بما قبله، لأن حديث عطاء جيد بالشواهد.

أن قيل: هذا نبي^(١). لقد ثار الجن.. واضطربوا وطاروا.. وضافت الأرض بهم والسماء.. وأمسى شبح المستقبل يتهادى خلف دخان الشهب الحارقة.. كالجريح يترنح بين آثار القنابل.. لقد أمسى مستقبل الشياطين مخيفاً مرعباً مجهولاً بعد نزول القرآن.. بعد بعثة هذا النبي ﷺ.

توقف الوحي

هذا النبي الذي انقطع عنه (وفتر الوحي)^(٢) فترة من الزمن.. أصبح بعدها في حيرة لا يدري ماذا بعد هذا النبأ.. ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته وما مهمته.. ولك أن تتصور أحاديث النفس ووحشتها في مثل ذلك الظرف.. لكن الوحي عاد من جديد.. وعادت معه الحياة.

عودة الوحي

يتحدث ﷺ عن ذلك الأمر الذي أخافه حتى وقع على الأرض فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فحشنت منه فرقاً، حتى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني.. زملوني.. فزملوني، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۖ وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۖ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ ۖ﴾^(٣) قم وأزح عنك هذه الأغطية.. فما كان بالأمس حلماً جميلاً أصبح اليوم حملاً ثقيلاً.. قم يا محمد فالأرض قلوب خاوية.. وبطون جائعة.. واستبداد وسلاسل.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. مناقب الأنصار.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري. وأحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٠٩) واللفظ له.

(٣) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.

ها قد قام محمد ﷺ بحمل سطرين من القرآن.

سطران طالما بحث عنهما أفكار البشر.. وصل من وصل وتعثر الملايين.. فهل هناك حياة دون علم دون قراءة.. دون كتابة.. دون نظافة.. دون ترك للأوثان ووحل الخرافة.. هل هناك حياة دون إقرار بأن هذا الخالق الكريم هو الإله الواحد العظيم.. ولا معبود سواه؟

كان هذا الأمر يتم بالخفاء يقوم به ﷺ سراً.. فالأمر جد خطير فللأصنام جيوش من الغضب مستعدة لنحر من يقرب منها ومن يعتدي عليها.. وتقديمه قرباناً لها.. وقد تناسلت في عقول القوم حتى أصبح الفرد يصنع صنماً يتبلغ به في سفره.. ولو اضطر إلى صنعه من ثمرات هي زاده الوحيد.. فإذا ما عبث الجوع في بطنه.. قام يدس هذا الإله الرخيص في جوفه لكي يطارد ذلك الجوع المحرق.. يا ترى هل علم أن جوعه قد فتك بإلهه؟ لا أدري.

إن من بلغ بهم الحمق هذه الدرجة.. يصعب انقيادهم لهذا الأمر الجديد.. فقد عبثت الأهواء في عقولهم حتى أفسدتها.. فالعلاج يجب أن يبدأ بالعقل والفكر.. وأمام رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة ركام هائل من العادات والطقوس والتقاليد الموروثة.. يتداعى بعضها على بعض على مر السنين.. حتى أمست أساطيل من الأوثان والكهان والناس لها عبيد ذليلة قد حنت ظهورها ركوعاً.. فمن يريد رفع الرؤوس للسماء.. فعليه بالصبر والحذر الشديدين.. ولا بد من أن يُسَرَّ دعوته ويخفي اتباعه حتى من أقرب الناس إليه إذا ما أحس بخوف منه.. فهؤلاء القوم يفني بعضهم بعضاً من أجل ناقة.. فما بالك من أجل آلهة يذبحون لها آلاف النياق ليرضوها بزعمهم.. فليكن الأمر:

سرية

السرية الشديدة يجب أن تحيط كل عمل يقوم به هذا الرسول الأمين ﷺ.. فعلى جدار التاريخ الطويل قد عقلت رؤوس الأنبياء والمصلحين والدعاة.. وأعواد المشانق لا تزال رطبة بدمائهم.. ضريبة الإخلاص فادحة.. تكلف كثيراً.. تسفح الدماء.. لكن لهذه الدماء الزكية روائح وأطياف تعيش تنعش الأجيال.. وتبعث الحياة فيهم للخلاص.

والحق لا يخفى.. يعرفه الجميع.. عندما يرونه يقولون هذا هو الحق.. ولا يحتاجون لتمييزه إلى غسل أعينهم ولا إلى عركها.. فما سبب التأخر.. لماذا تثقل الخطى؟ السبب هو:

الوحوش

وحوش عملاقة تمتد داخل كل فرد منا.. كأننا لها ثياب.. وحوش تتصلب حتى تشلنا وتعجزنا حتى عن الجبو نحو الحق.. إذا كان الحق يرفضها أو يريد إخراجها من ثيابها.. فأى مهمة أمام ابن عبد الله ﷺ وأي حذر يجب أن يتوخاه في ذلك العصر.. عصر الوحوش.

وهذا ما فعله ﷺ.. عندما بدأ بدعوته.. فقد أسلمت خديجة.. وأسلم ورقة.. وكتمت خديجة إسلامها.. ومات ورقة.. وبقي السر مكتوماً.. ولما أمر ﷺ ببداء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سرايب من الكتمان والتستر.. استمر يسير تحت الأرض يغرس في باطنها جذوراً قوية.. تؤتى ثمارها بعد حين.. بعد أن ترتفع على سطح الأرض.. عندها يستحيل انتزاعها أو إنكار وجودها.. وقد يقول قائل: إنك تبالغ في ذلك.. فالرسول ﷺ معروف لدى قريش.. وأصحابه معروفون.. ولم تكن دعوته

سراً في يوم من الأيام.. وأصحابه محميون من قبل قبائلهم وأهلهم.. فأين تلك السرايب.. والخنادق. أين الدليل على ما تقول؟ والإجابة عندي واضحة كشعر الشمس الذهبي.

الإجابة عندي هي في مشكلة لم تحسم حتى الآن ألا وهي.. من أول من أسلم بعد خديجة.. أبو بكر الصديق أم علي أم غيرهما رضي الله عنهم جميعاً. أتدرون لماذا؟ دعونا أولاً ننظر إلى إسلام كل فرد منهم:

إسلام أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق.. اسمه: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة.. صديق الطفولة والشباب.. ذهب إليه رسول الله ﷺ.. وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء.. وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام. فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة. لقد قال: صدقت. أما لماذا.. فلأنه لم يجرب على رسول الله ﷺ كذباً.. وهو الذي عاشه منذ الطفولة. لقد عرفه عبداً خاشعاً تاركاً للأصنام.. فهل سيكذب على ربه. لقد خلد التاريخ كلمة أبي بكر وحفظها له.. ونال من رسول الله ﷺ شهادة تتناقلها الأجيال.

ففي أحد الأيام كان الصحابة أمام الرسول ﷺ.. وكان من بينهم أبو بكر.. ولعل أحداً منهم تناول أبا بكر فأغضبه.. فغضب ﷺ لأبي بكر.. وقالها ليس للصحابة فقط بل للأمة كلها.. للأجيال كلها: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)^(١).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٦١)

ولما حوَّصر أبو بكر ببعض الكلمات.. أرغمه هذا الحصار على أن
يزفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست
صاحب كذا)^(١).

ولما سئل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب -ابن عم رسول الله ﷺ-
عن أول من أسلم.. أرشد سائله إلى أبيات من الشعر قالها شاعر الإسلام
حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها بعد النبي وأوفاهما بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا^(٢)

هذه الأبيات الشجية ملأت القلوب بأيادي أبي بكر ومبادراته
لخدمة الإسلام.. لقد سمته الأمة بـ (الصديق) ونسيت الاسم الذي
سماه به أبوه.. فإذا ما نطق أحد باسم (الصديق) انتصبت تلك الأيدي
البيضاء المبسوطة في الأذهان. وتذكر الناس صديق نبيهم وحببيه فترحموا
عليه.

(١) حديث صحيح الإسناد، رواه الترمذي وابن حبان (سيرة ابن كثير ٤٣٤/١٠) من طريق
شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال أبو بكر: ...، وأبو
نضرة تابعي ثقة، اسمه: المنذر بن مالك العبدي. انظر التقريب (٢٧٥/٢) وسعيد الجريري
ثقة. التهذيب (٧/٤) لكنه اختلط قبل موته بثلاث سنوات، وهناك من روى عنه قبل
الاختلاط وبعده، وشعبة سمع منه قديماً فصح بذلك السند.

(٢) حديث حسن، رواه الحاكم (٦٤/٣) وابن أبي شيبه، ويعقوب بن سفيان (سيرة ابن كثير
٤٣٥/١) وقد رواه الحاكم من طريق، ورواه ابن سفيان من طريق آخر، وفي كل منهما
ضعف ليس بالشديد، ففي طريق الحاكم: مجالد بن سعيد بن عمير وهو ليس بالقوي. وفي
سند ابن سفيان تابعي مجهول، والطريقان يقوي بعضهما بعضاً.

إسلام علي

علي بن أبي طالب.. أحد فتيان الإسلام.. وابن عم رسول الله ﷺ..
وأحد السابقين إلى الإسلام.. هناك من يقول إنه أول من أسلم.. لكونه
تربى في بيت رسول الله ﷺ.. لكنه ليس هناك حديث صحيح^(١) يدل على
أنه تربى في بيت النبوة.. لكن رسول الله ﷺ لم يكن منقطعاً عن علي..
أما أن يكون علي أول من أسلم فهذا ليس بصحيح لأن خديجة هي
الأسبق.. هي أول إنسان قابله بعد انخداره من الجبل خائفاً.. لقد قال زيد
بن أرقم: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه. أول من
أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)^(٢).

وقال ابن عباس:

(أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي. وقال مرة: إن أول من
أسلم مع النبي ﷺ بعد خديجة علي)^(٣).

وقال بريدة:

(١) الحديث الذي ورد في ذلك من قول ابن إسحاق. البيهقي (١٦٠/٢) ومن قول مجاهد.
المصدر السابق (١٦٢/٢).

(٢) إسناده صحيح. رواه النسائي في خصائص علي (٢)، من طريق شعبة، عن عمرو بن مرة،
عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم: ... وهذا الإسناد صحيح. عمرو بن مرة: ثقة عابد
(التقريب ٧٨/٢)، أبو حمزة اسمه طلحة بن يزيد الإيلي وهو ثقة، التهذيب (٢٩/٥).

(٣) سند حسن، رواه أحمد في مسنده (الفتح الرباني ٢٠/٢١٤) من طريق أبي داود الطيالسي،
حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس. وهذا الإسناد جيد
رجالته ثقات، عمرو بن ميمون مخضرم ثقة عابد. (التقريب ٨٠/٢) وأبو بلج حسن
الحديث. التهذيب (٤٧/١٢)، واسم أبي عوانة: وضاح بن عبد الله الإشكري وهو ثقة
مشهد، التقريب (٣٣١/٢/٢).

(وأوحى إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء)^(١).
وهناك آخرون غير أبي بكر.. غير علي.. ظنوا أنهم أول من أسلم..
دعونا نستمع إلى أقوالهم.. دعونا نعرف أخبارهم.. ثم بعدها سنعرف سر
ذلك الازدحام على الصدارة.

سابقون.. سابقون

لدينا سابق آخر هو: سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (ما أسلم أحد في
اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)^(٢).
ترى هل كان سعد رضي الله عنه ثلث الإسلام.. لا شك أنه يقصد
أن خديجة ورسول الله ﷺ هما بقية أضلاع ذلك المثلث.. ثلثي الإسلام.
وهو المكمل لهما.

حتى ذلك الغريب القادم من ديار غفار.. يطوي الأرض يبحث عن
محمد ﷺ.. ذلك الغريب المسمى (بأبي ذر) يقول: (كنت ربع الإسلام،
أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا
رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فرأيت
الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)^(٣).

(١) رواه الحاكم بسند جيد، أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن يوسف بن
مهيّب، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، وهذا السند جيد، لصحة سماع أحمد للسيرة،
ويونس حديثه قوي، ويوسف بن صهيب ثقة. التقريب (٣٨١/٢) ولعل المقصود في هذا
الحديث. أوحى إليه بالصلاة.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٣) حديث حسن، رواه البيهقي (٢١٢/٢) والحاكم (٣٤١/٣): حدثنا الحسين بن محمد بن
زياد وهو ثقة حافظ (التقريب ١/١٧٩)، حدثنا عبد الله بن الرومي نزيل بغداد وهو
صدوق (٤٤٩/١)، حدثنا النضر بن محمد بن موسى الجرشي (ثقة - التهذيب

عمرو بن عبسة سابق آخر. يقول: (لقد رأيتني وأنا ربيع الإسلام)^(١).

أما بلال بن رباح.. فلا أعرف أنه قال عن نفسه ذلك.. لكن غيره شهد له بالمسارعة للإسلام.. هذا: عمرو بن عبسة يشهد بأن بلالاً كان ثلث الإسلام.. فقد قال للرسول ﷺ: فمن تبعك على هذا. قال: حر وعبد (يعني أبا بكر وبلال)^(٢).

وهناك غير بلال ممن هبوا لقبول الحق واعتناق الحقيقة.. شهد لهم بذلك التاريخ والروايات الصحيحة. هذا عبد الله بن مسعود يقول: (أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)^(٣) رضي الله عنهم جميعاً.

عمار أحد هؤلاء يقول رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)^(٤). هذه الكلمات كلها صادقة ثابتة ضاربة جذورها داخل أعماق الحقيقة.. لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها.. لماذا؟

١٠/٤٤٤) حدثنا عكرمة ابن عمار (وهو حسن الحديث) عن أبي زميل وهو سماك بن الوليد الحنفي اليماني (ليس به بأس ١/٣٣٢) عن مالك بن مرثد الزماني وهو تابعي ثقة، وللحديث شاهد بمعناه عند البخاري.

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٣) حديث حسن رواه أحمد (الفتح الرباني ٢/٢١٤) والبيهقي والحاكم، من طريق: زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن عبد الله بن مسعود، وهذا الإسناد جيد لولا كلام في زائدة بن أبي الرقاد، ثم إن له شاهداً من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلًا. ذكره ابن كثير (١/٤٩٤) وبه تقوى.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

للدعوة أسرارها

ماذا يُتوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد.. وشرف الآباء والأجداد.. والثارات.. وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرصف.. وفي مداخل البيوت.. وحتى في خرج المسافر.. وقبل ذلك كله فوق حجارة الكعبة.. تسال لها الدماء.. ويحلف بها.. وتستشار ويصلى لها.. ويزاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها.

ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الأشياء بنبي يتيم.. كل ما يملكه: شهادة قومه بأنه: صادق أمين.. ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الجيوش بفرد أو أفراد يريدون أن يجثوها من القلوب.. ويغسلوا الأرض والنفوس منها.

إن من أشعلوا أربعين عاماً بلهب الحروب.. وتركوا جماجمهم تمتصها الشمس والرمضاء.. وخلفوا نساءهم تنوح حتى أبكت الخيام.. من أجل بعير أو حصان.. إن من ارتكبوا ذلك لعلى استعداد لارتكاب أشرس من ذلك من أجل عقيدتهم وأصنامهم وميراث أجدادهم.. فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمة بأسماء السابقين إلى دعوته.. ويأمرهم بالمجاهرة بما أمام قريش.. هكذا وبكل سداجة؟!!

إن هذا النبي لم يأت ملكة فقط، إن مكة خطوة أولى.. والأرض كلها طريق.. إن هذا النبي جاء ليحيي أموات القلوب لا ليقامر بحياتهم.. لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته.. ويأمر أتباعه بهذا الكتمان والتستر.. والله قد أنطق له الأحجار.. وأمال عليه الأشجار وأظله بالسحاب.. وشق صدره دون أن يمس بأذى.. أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟.. بلى والله.. إنه على ذلك لتقدير.. لكن دين الإسلام الجديد

عقيدة وحياء للبشر.. ولن تستقيم حياة البشر بالمعجزات ينتظرونها كلما
أقعدهم الخمول على قوارع الطرقات.. ستستحيل الحياة انتظاراً..
وانتظاراً.. وعيون ترقب المجهول.. لم يخلد نبي.. ومحمد ﷺ سوف يموت..
وبعده ترفع المعجزات.. عندها الأمة أيضاً سوف تموت.. لكن دين
الإسلام لم يموت ولن يموت.. لأنه وضع للبشر لم يكلفهم فوق طاقتهم...
ولم يطالبهم بالمستحيلات.. ولم يدعهم إلى مثاليات.. لا يقول لهم: كونوا
ملائكة.. ولا يقول: أنتم شياطين. بل يقول: كونوا بشراً لكن صالحين..
وفي الطريق عشرات.. والصالحون بشر يعثرون وينهضون.. والإسلام يرفع
الإنسان من عثرته.. ولا يرتفع عنه لأنه نزل من أجله.. فبتوفيق الله ثم
بجهد رسول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم سوف يستمر
الإسلام.. سوف ينتصر.. ذلك هو ما أراده الله.. وبضعفهم ينحسر..
ويقع في زاوية من الأرض كالمشلول.

وهنا وفي بداية الدعوة نبي يتيم.. ودعوة مستهجنة.. وأمة مجنونة
بحب أصنامها.. ومواجهتها تعني الموت.. فلا بد للرسول ﷺ من تطبيق
منهج ربه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سراً.. يطرق البيوت ليلاً..
يحمل النور إلى حجراتها.. وهكذا فعل ﷺ.. لقد كان يحدث أبا بكر
رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان.. وإن دعا.. ويحدث علياً رضي الله عنه
ثم يشير بالكتمان.. وإن دعا.. وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع
أبي ذر.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة مع غيرهم.. مع
غيرهم..

إذا فكيف سيعرف أبو بكر أن غيره قد سبقه.. كيف سيعرف علي
أن هناك من دخل في دين الإسلام قبله.. كيف يقول سعد إن هناك من

أسلم.. في اليوم الذي أسلم فيه.. كيف سيعلم البقية.. ورسول الإسلام ﷺ يشير عليهم بكتمان دينهم حتى عن أقرب الناس إليهم.. وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده لولا أنها أوامر الله.. إنه لا ينطق عن الهوى.. فهل سيتصرف بدون أمر الله.. إنها سنة الله في عمل الأسباب وجعل نتائجها على الله.. وهذه بعض الأمثلة التي توضح سرية ﷺ وخوفه على دعاة الإسلام.

حرو عبد

هذا عمرو بن عبسة السلمي.. يمتطي راحته نحو مكة.. فإذا ما احتضنته شعابها وجبالها.. جد في بحثه عن محمد ﷺ وفي ذلك يقول: (أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال ﷺ: أنا نبي. فقلت: وما النبي؟ قال ﷺ: رسول الله. قلت: الله أرسلك؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قلت: بم أرسلك؟ قال ﷺ: بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وتكسر الأصنام، وتوصل الأرحام. قلت: نعم ما أرسلك به، فمن تبعك على هذا؟ قال ﷺ: حر وعبد -يعني أبا بكر وبلال-^(١). فكان عمرو بن عبسة يقول: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)^(٢).

يا الله.. رجل غريب لا يضممر إلا خيراً.. جاء يبحث عن الحق.. فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه.. ويريد أن يستزيد.. أن يعرف أسماء هؤلاء الأتباع.. فلا يعطي أي اسم رغم أنه لا يخيف فهو ليس من أهل مكة.. لكن الرسول ﷺ يقول له: (عبد وحر) فقط عبد

(١) القائل عمرو بن عبسة وليس رسول الله ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

وحر.. لم يقل: بلال لم يقل: أبا بكر. الذي قالها هو عمرو بن عبسة.. عرف ذلك فيما بعد.. إن كلمة عبد وحر لباس يتسع ويمتد حتى ليشمل كل أحرار مكة وعبيدها.. وقفل عمرو بن عبسة راجعاً بدين الله.. لم يعده ﷺ بانتصار دنيوي.. لم يعده بمنصب.. وعده فقط بالجنة إن سار على الحق.. ولم يمكنه من شيء من أمور الدنيا حتى ولو كانت أسماء أصحابه التي قد لا تعني له شيئاً.. وعمرو بن عبسة لم يجد رسول الله قبل ذلك بسهولة.. لقد وصفه بأنه كان مستخفياً.. كان متسترأ لا يظهر نفسه.. ولا يكشف أتباعه.. إن قريشاً شرسة.. كالموج، لكن محمداً ﷺ كان رباناً ماهراً.

الجهر بالدعوة

بعد فترة من الزمن لا أستطيع تحديدها^(١).. جاء الوحي الكريم.. يأمره بالجهر بدعوته.. الجهر أمام الناس جميعاً بأنه نبي مرسل.. لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه خوفاً عليهم.. ولا من اتبعه ولا كيف اتبعوه.. لقد ظل ذلك مدفوناً عن العيون.. فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف.. ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيباً.

وقصة ذلك أنه عندما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢).

(انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجراً. ثم

(١) لأن الروايات فيها ضعيفة. وهي مقدار ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغاً بدون إسناد. ورواها ابن سعد (١٩٩/١) من طريق الواقدي - وهو ضعيف - عن القاسم بن محمد مرسلأ. وجاءت عروة مرسلأ أيضاً.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربؤ أهله، فخشى أن يسبقوه، فهتف: يا صباحاه^(١).

(يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سألها ببلالها)^(٢).

(يا معشر قريش، اشتروا بأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سألني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)^(٣).

مفاجأة لمعظم قريش.. ما الذي يحدث؟ ولم هذا التحذير؟ الكل مذهول.. الكل مأخوذ وعم رسول الله ﷺ:

أبو لهب.. أول مكذب

لقد جعل ﷺ (ينادي يا بني فهر، يا بني عدي: ببطون قريش)^(٤).

وسكتت بطون قريش كلها.. أجمها هول ما يقوله الأمين ﷺ.. إلا رجلاً ركب رأسه كما ركبه الأصنام.. ذلك الرجل هو: أبو لهب عم

(١) حديث صحيح: رواه مسلم - الإيمان.

(٢) حديث صحيح: رواه مسلم أيضاً - الإيمان. أي سأصلكم لأنكم أقاربي.

(٣) حديث صحيح: رواه البخاري - الوصايا.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

الرسول ﷺ.. يحدثنا عما قاله ابن أخيه عبد الله بن عباس فيقول:
(لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين،
خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا. فهتف:

يا صباحاه. قالوا:

من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه. قال ﷺ:

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي.

قالوا:

ما جربنا عليك كذباً. قال ﷺ:

فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب:

تبا لك أما جمعنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي
لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ
﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾^(١).

وقف أبو لهب في أول الطريق.. وفتح ألسنة من اللهب على ابن أخيه
الأمين ﷺ.. لكن هذه الألسنة أحرقتة هو.. لقد بدأ أبو لهب المواجهة..
وبدأ التكذيب.. جحد تاريخ محمد الأبيض الذي شهد هو وقومه به قبل
لحظات عندما صاححت مكة بصوت كالرعد يتبعه المطر: ما جربنا عليك
كذباً.

ولم يكن أبو لهب لوحده في هذه الأولوية.. لقد شاركته أم جميل

(١) سورة المسد. والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان.

زوجته التزقة التي داست على أنوثتها ونافت الرجال شراسة.. لقد استحق هذان الاثنان تاريخاً أسود لا يزول أبداً.. ولعنة تلوكمهم بها ألسن الأجيال.. يحملها جبريل.. سورة تشهد تخلف ذلك الرجل وزوجته وهمجيته.. واستحقاقه لنار ذات هب. لكن أبا هب لا يعيق الإسلام ولا نبيه.. ها قد توجه ﷺ لـ:

دعوة بني عبد المطلب فقط

كان هذا النداء لعشيرته ﷺ.. يعلن فيها رسالة ربه بأعلى صوته.. ويعلن بداية العزلة الشعورية بينه وبينهم إذا لم يتبعوه على هدى الله.. ثم توجه بعد ذلك النداء إلى أقرب الناس إليه.. لقد (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط^(١) كلهم يأكل الجذعة^(٢))، ويشرب الفرق^(٣))، فصنع لهم مدأ^(٤) من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر^(٥) فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب فقال ﷺ:

يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيت من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي، فلم يقم إليه أحد، فقامت إليه^(٦) -وكنت أصغر القوم- فقال:

(١) رجال أقل من عشرة.

(٢) الجذعة ولد الشاة. له سنتان.

(٣) الفرق مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلاً.

(٤) المد مكيال يساوي (١,٥) رطل أو رطلين.

(٥) الغمر: القدح الصغير.

(٦) المتكلم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو الذي روى لنا هذا الحديث.

اجلس - ثلاث مرات - كل ذلك أقوم إليه فيقول لي:

اجلس. حتى كان في الثالثة، ضرب بيده على يدي^(١) معلناً تفوق هذا الفتى على كافة رجال وشيوخ أسرة النبي ﷺ.. ومسارعتة للحق وهو في زهرة الشباب.. في الوقت الذي تراجع فيه أعمامه وكبار السن من أسرته.. تخلفوا وترددوا.. وعجيب أمر ترددهم وتخلفهم فالمعجزة أمامهم تغمرهم.. تلجمهم إجماءً.. هاهو الطعام لا ينقص.. وشراب الفرد يكفي العشرات.. وقبل ذلك صانع الطعام.. إنه محمد ﷺ الذي لم يجربوا عليه كذباً ولا غشاً.. فكيف وقد أتى برهان صدقه المعجز: مدّ من الطعام لا يشبع فرداً واحداً.. يلتف حوله مجموعة من الرجال.. الفرد منهم يتربّع أمام الجذع المطبوخ.. فلا ينهض إلا وقد التهمه كله.. ما الذي حدث حتى تقوم كل هذه المجموعة من فحول الرجال.. وقد شبت من طعام قليل.. بل إنها لا تنقص منه شيئاً. تلك معجزة لا شك.. برهان على صدق ما سيقوله ﷺ لأسرته.. ومع ذلك لا ينهض منهم مساند إلا فتى.. هو أصغر القوم.. إنهم ليل.. وعلي كالصباح نضارة.

إذا فقد أعلن ﷺ حربه على الشرك لا على قريش وأعلن أن:

الله وحده لا شريك له

لم تترك قريش محمداً ييوح بما كان يضمّره في نفسه ونفوس أصحابه دون أن تطرح عليه أسئلة ملحة.. عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله

(١) إسناده قوي. رواه الإمام (الفتح الرباني ٢٠/٢٢٣) وعد من طريق: عفان، حدثنا أبو عوانة - وهما ثقتان، عن عثمان بن المغيرة، وهو ثقة، عن أبي صادق - وهو تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، وهو ثقة أيضاً، وقد بنيت في (موسوعة السيرة) سبب جرح الذهبي له، وبينت سبب العلة الحقيقي للرواية التي قصدها الذهبي (٢٤).

الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد وسحقها.

فقال لهم ﷺ وحيأ ترتكز عليه كل الحقائق.. وتنطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسراره.. فيخشع الكون كله وهو يستمع لمحمد ﷺ يتلو حقيقة طالما أضعها الإنسان فتاه في تلك السراديب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١).

نداءان منه ﷺ في اجتماعين مع أهل مكة.. ومع أهله.. وضعت أرواح بعض السابقين في أكفهم.. دروعاً يحمون بها رسولهم ﷺ.. فلقد هانت تلك الأرواح في سبيل الله.. ولئن كانت الجنة هي المصير فلتذهب الدنيا غير مأسوف عليها.. ستة عمالقة جاهرُوا بإسلامهم.. ولم يأبها بما قد يلاقون من عنت: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد) (٢).

ولئن لم تسعفنا الروايات في ذكر بقية لهم فلقد أسعفنا ذلك الاجتماع السابق بفتى صغير السن هو (علي بن أبي طالب) فلقد وضع يده بيد رسول الله ﷺ أمام أهله.. وكفى بتلك مجاهرة.

بدأ هؤلاء الأفذاذ يدعون لدين الله جهرة.. فأسلم بإسلامهم خلق كثير.. مما أقض مضاجع عباد الأصنام.. فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ

(١) سورة الصمد.

(٢) حديث حسن رواه البيهقي (١٧٠/٢) والحاكم (٢٨٤/٣) وأحمد (الفتح الرباني ٢٠٤/٢٠) من طريق زائدة، عن عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود وقال: أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر.. وفي سنده ضعف من أجل زائدة أبي الرقاد، فقد اختلف النقاد في الحكم عليه، لكن له شاهد يقويه ذكره ابن كثير وهو من طريق شعبة عن منصور، عن مجاهد مرسلًا. انظر سيرة ابن كثير (٤٩٤/١).

يحملون في أيديهم ألواناً من الأذى والعذاب لعله يتراجع.. ويتراجع أصحابه معه.

يُؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة.. امرأة تدعى أم جميل بنت حرب.. زوجة أبي لهب.. انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ حشرتها هذه الآيات.. وضاق صدرها بهذا اللهب.. فخرجت كالمجنونة لا تلوي على شيء.. تبحث هنا وهناك.. في الدور والطرقات.. عن انتقام يخمد هذا الجمر في قلبها.. تبحث عن محمد ﷺ.. قصدت المسجد الحرام فرأت أبا بكر الصديق فأقبلت عليه (ولها ولولة، وفي يدها فهر^(١))، وهي تقول:

مذمماً أبنينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا

والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، قال النبي ﷺ: إنما لن تراني، وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت، أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها^(٢).

(١) الفهر: الحجر.

(٢) حديث حسن بما بعده، فقد رواه البيهقي من طريق الإمام الحميدي، حدثنا الوليد بن كثير المخزوم (وهو ثقة من رجال الشيخين) عن محمد بن مسلم بن تدرس (أبي الزبير) عن

لقد كانت تظن تلك الآيات شعراً.. فقد قالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، ما شأن صاحبك ينشد في الشعر. فقال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، فما يدريه ما في جيدي. فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً، فإنها لن تراني، جعل بيني وبينها حجاب، فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحداً^(١) ثم عادت هذه المرأة إلى بيتها تحمل الفشل.. تحمل عارها.. وتحمل المزيد من الحطب والشوك تضعه في طريقه ﷺ.. تفتح الأبواب لسفهاء مكة ومراهقيها تخرجهم من منازلهم ليؤذوا معها رسول الله ﷺ.. ليحملوا معها مزيداً من الشوك والحطب.. ولما رأى صحابة رسول الله ﷺ ذلك حزنوا وتكدروا.. وقرر بعضهم الخروج من كتمانهم والدفاع عن رسول الله ﷺ علانية.. فبدأ في مكة مشروع لـ:

تعذيب الصحابة

يقول عبد الله بن مسعود:

(أول من ظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم

أسماء، أبو الزبير ثقة لكنه مدلس وهو هنا قد عنعن ولم يصرح بسماعه من أسماء، فيكون في السند مقال، لكن يقويه ما بعده.

(١) رواه البيهقي (١٩٦/٢):... علي بن مسهر (ثقة)، عن سعيد بن كثير (ثقة) عن أبيه كثير ابن عبيد التيمي عن أسماء، وقد سكت عنه ابن حبان في ثقاته، فحديثه جيد في المتابعات وهذا منها، فالحديث حسن بما قبله.

المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد^(١).

وعندما سئل عبد الله بن عباس ذات يوم:

(أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟) أجاب رضي الله عنه فقال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجمعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله. فيقول: نعم. افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)^(٢).

لقد افترش العذاب هذه الأجساد الطاهرة.. وطاب له المقام فغرز أنيابه بلا رحمة.. بلا شفقة.. يشرحها ويشرب من دمه.. وقهقهات السكارى والطواغيت حول هذه الأجساد المطروحة لا تجد من يخرسها.. حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئاً.. وكيف يفعل وهو لا يستطيع حماية نفسه من هؤلاء الأوغاد.. لقد اضطر الصحابة إلى اتخاذ إجراء يحمون به رسولهم.. فكانوا يتناوبون في حراسته ليلاً ونهاراً.. فالنهار لا يخلو من السفهاء والمتهورين.. والليل مثقل بخناجر الغدر يسدها المتلثمون.

(١) حديث حسن مر معنا نخرجه.

(٢) حديث حسن سنده جيد، فقد رواه ابن إسحاق فقال: حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد ابن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: ...، حكيم بن جبير فيه كلام حول تشيعه، وقد قال أبو زرعة: محله الصدق ثم تكلم على مذهب وانتقده، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له فهو حسن لذاته أو لغيره.

ياسر وزوجته سمية وابنه عمار.. أسرة ضعيفة فقيرة لكنها حرة..
ولما رفع ياسر الشيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والألم لمح رسول الله ﷺ فرأى الحزن والدمع في وجهه فهانت نفسه.. وهان العذاب أمام حزن رسول الله ﷺ وأحب أن يواسي رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه الرسول فقال: (يا رسول الله الدهر هكذا. فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)^(١).

(أبشروا آل عمار، وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٢).

(اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)^(٣).

كأن ذلك الشيخ الساخر بالعذاب.. أراد أن يطمئن رسول الله ﷺ أنه لا يخشى السياط ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن هناك من سبقه.

أول الشهداء

إنها امرأة.. أول المسلمين كان امرأة.. أول اعتداء على رسول الله ﷺ كان امرأة.. وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة طاعنة في السن.. اقتادها رجل شرس يقال له أبو جهل.. فاق أبا لهب قسوة وغلظة.. هاهو يجر هذه

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد (الفتح ٢٠/٢٢٠).. عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد، عن عثمان. وعلة هذا السند انقطاع بين سالم وعثمان فسالم لم يدرك عثمان رضي الله عنه، لكن الذي بعده يقويه.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي (٢٨٢/١) مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، عن أبي الزبير عن جابر وهؤلاء الرجال ثقات، لكن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، وحديثه في هذه الحالة يحتاج إلى شاهد وهو ما سبقه.

(٣) حديث رواه الطبراني وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٣/٩) رجاله ثقات، وهو يقوي ما قبله.

المرأة المسكينة ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة.. ثم يرمي بها نحو الأرض.. رغم أنها امرأة عجوز ضعيفة.. وبعد أن سلخ جلدتها بالسياط وحطم أضلاعها بالحجارة.. تناول رماً فطعنها به في موضع عفافها أمام زوجها وابنها.. ثم تركها تتخبط بدمائها حتى لفظت أنفاسها وروحها.

سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر هي تلك الشهيدة التي زحفت نحو الموت دون أن تتنازل لأي جهل عن شيء من إسلامها. إنها كما قال جابر: (يقتلوها فتأبي إلا الإسلام)^(١).

يسرقون الفقراء

سمية الراحلة.. لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة.. أرادتهم قريش عبيداً.. فانتزعوا حريتهم بأيديهم.. عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك.. فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا. أحد هؤلاء حر اسمه: خباب بن الأرت.. كان عبداً.. فلما أسلم عذبه المشركون حتى تعبوا.. لكنه لم يتعب.. سرقوا دراهمه.. فصبر واحتسب فأنزل الله في ذلك قرآناً يخلده.. تتلوه الأمة كلها. يقول هذا الحر الأبي: (كنت رجلاً قيناً^(٢))، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أطلبه، فقال: والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث. قال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك.

فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَّوَلَدًا﴾^(٣).

(١) قطعة من حديث سابق هو حديث جابر، وهو حسن.

(٢) عبداً.

(٣) متفق عليه.

ولما ازداد إصرار خباب على هذا الدين وتمسكه برسول الله ﷺ،
أخذه (فكان ممن يعذب في الله) ^(١) ليتراجع.. فلا يتراجع.. ليذهب ماله..
إنه لا يهمله.. لكنه شحيح بدينه كسمية بنت خياط ف (لم يكن أحد إلا
أعطى ما سألوه يوم عذبهم المشركون، إلا خباباً، كانوا يضجعونه على
الرضف ^(٢)، فلم يستغبوا منه شيئاً) ^(٣).

لقد كشف خباب يوماً ظهراً له تقلب في جمر العذاب وتشقق من
السياط.. كشف خباب ظهره لأصحابه فإذا البرص والألم ينتشر فيه
كله.. وبعد أن أراهم تلك الآثار المحزنة.. التفت إليهم ثم قال: (لم يكن
لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني
فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض
إلا بظهري) ^(٤).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٣/١) بسند صحيح: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي أبو العباس
وثقة تلميذه أبو نعيم، انظر تذكرة الحفاظ (٦٦١/٢)، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي
شيبه، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة. انظر التقريب (٣٠٢/١)، حدثنا سفيان
ابن عيينة عن مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة وهو أحد الأعلام الثقات. انظر التهذيب
(٤٠٣/٨) عن قيس بن مسلم وهو ثقة أيضاً. التقريب (١٣٠/٢) عن طارق بن شهاب،
وطارق بن شهاب روى عن الصحابة ورأى الرسول ﷺ.

(٢) الحجارة الحامية.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٤/١) بإسناد صحيح: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس
ابن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شعبة، وهما إمامان معروفان، حدثنا أبو
إسحاق وهو التابعي الثقة. وقد صرح بالسماع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب،
قال: قال خباب...

(٤) رواه ابن سعد (١٦٥/٣) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن
بحالد عن الشعبي قال:..، وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن له شواهد كثيرة ترفعه
إلى درجة الحسن.

وقال خباب مرة وهو يحكي مأساته مع مجرمي مكة: (أوقدوا لي ناراً، فما أطفأها إلا ودك^(١) ظهري)^(٢).

كان خباب يقول ذلك لمن حوله يحمل شهادته ومعاناته على ظهره وذلك عندما تحدث الجميع عن مأساة أخيه بلال.. وتلك الخطوط التي رسمها في طرقات مكة بجسده العاري عندما كان سفلة قريش يسحبونه هنا وهناك.. ولم يستطيعوا أن يسحبوا كلمة إذعان واحدة ترضي طواغيت مكة.. كان بلال المنحدر من شلالات أفريقيا وأهوارها شجاعاً كأسودها.. سخياً كسهولها.. ساق القدر أمه وأباه إلى مكة.. وولد كالليل مليئاً بالأسرار والحزن والعبودية.. هموم تملأ قلبه.. وقبود تحز رقبتة وآدميته.. كانت حياة آسنة عكرة لا بشائر فيها.. حتى سمع برسول الله ﷺ فوجده يحمل ما كان يبحث عنه.. الحرية والعدالة.. كم تشققت قدماه وهو يبحث عنها فلم يجد عند قريش والعالم إلا سراب.. ووجد الحقيقة والحلم عند محمد ﷺ.. فماذا ينتظر.. لقد أدرك أسرار القوافل التي تمر بهذه الدنيا ثم ترتحل.. وأدرك أين تستقر.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تبخر.. ومهما طالت فلن تدوم وأن الحياة هناك: خلف السحاب خلف السماء في مدائن الجمال والسحر والبهجة الخالدة.. في جنات عدن.. أو بين أهوار الحميم والتنن والعذاب المقيم وله الخيار.. اختار بلال الرحمن.. ولفظ الشيطان من حياته وتصدى كجيش من حديد لتعذيب قريش.. (هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)^(٣).

(١) الودك هو الشحم.

(٢) رواه أبو نعيم (الحلية ٤٤/١) عن الشعبي قال: سأل عمر بلالاً.. وظاهر هذا السند الإرسال. لكن يشهد له ما سبق.

(٣) مر معنا وإنه حديث حسن.

هذا هو بلال الجديد رفض أن يقضي حياته منحياً لسوط وحجر.. كان يرمي جسده كأنه يقول خذوه فهو لكم.. لكنكم لن تنالوا من روحي وإرادتي شيئاً ما دمت مع الله.. فالروح لها طريق لا تعرفه قريش ولا أصنامها.. طريق فسيح لا تردمه الجبال.. طريق طاهر لا تمسه أيدي المشركين.

كانت مأساته مع قريش دامية مؤلمة.. وكان منظره يذيب الصخر وهو يسحب في دروب مكة وشعابها.. يلعب به الصبيان والسفهاء.. وهو يسقط المرة تلو المرة من الإعياء.. ثم يضطر إلى الوقوف مرة أخرى من لسع السياط والعصي على رأسه وجسده.. كان المسلمون حوله يتحرقون عليه لكن ماذا يفعلون وهم ليسوا بأحسن حال منه.. حتى أشرفت شمس الحرية يوماً يحملها أبو بكر الصديق الحنون فقد تقدم نحو مالك بلال.. نحو المجرم: أمية بن خلف فعرض عليه شراءه.. فوافق الطاغية بعد أن كلت يدها وقدماه من الصفع والركل والضرب فلم يظفر بشيء من ذلك العملاق المتلبط بين السياط.. ودفع أبو بكر الثمن.. وقبض المجرم وتوجه أبو بكر نحو ساحة التعذيب يمد يده لينتشله.. فكيف كانت حال بلال.. وعلى أي صورة وجدته.. هذا هو قيس بن أبي حازم يروي لنا آخر فصول المأساة البلائية فيقول: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة)^(١).

(١) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣٤/٢) انظر سير الأعلام النبلاء (٣٥٣/١) من طريق حامد بن يحيى، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل عن قيس وهؤلاء الرجال على درجة من التوثيق كبيرة، فحامد بن يحيى بن هانئ البلخي قال عنه الحافظ في التقریب: ثقة حافظ (١٤٦/١) وسفيان بن عيينة إمام معروف، أما أستاذه في هذا الحديث وهو إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي فهو ثقة ثبت تجد ذلك في التهذيب (٦٨/١) وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، رأى رسول الله ﷺ، وهو ثقة مقبول. انظر التقریب (١٢٦/٢).

هذه هي منزلة بلال الإنسان عند هؤلاء الملحدين.. إما أن يختار ما اختاروه له فيكون كادحاً طوال الليل والنهار مهاناً ذليلاً.. وإما أن يرفض إرادتهم ويسلك دروب الدعاة فيدفع الثمن باهظاً.. أكوام من الحجارة تغطي جسده المنهك.. وشمسٌ لاحفة تحمي عليه تلك الحجارة وتزيد في تعذيبه وإيلامه.

مد أبو بكر يده إلى هذا المسكين لتنتفض عنه قريش والحجارة.. مد أبو بكر يده لأخيه بلال لا لعبه بلال.. فلقد اشتراه ليحرره من قيد العبودية والمهانة.. ليطلقه في البداء وفي السماء.. يشرب الماء عذباً.. يتنفس الهواء نقياً.. ويعبد ربه أينما شاء.. بعد أن كان يكذب ويكسح طوال يومه دون مقابل.. دون أجر أو كلمة شكر..

لقد قدم بلال تضحيات وتضحيات.. وها هو اليوم.. حر وسيّد من سادات الإسلام.. بشهادة أحد أعظم رجالات الإسلام حيث يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا) أما لماذا فلأنه اختار طريق محمد ﷺ وصبر مع محمد ﷺ.. لقد كان يجوع يوم يجوع رسول الله ﷺ.. ويتألم عندما يتألم ويجعل من جسده درعاً أمام الرماح الموجهة إلى نبيه.. كان يخاف على رسول الله ﷺ أكثر مما يخاف على نفسه.. إنه باختصار: يحبه أكثر من نفسه.. وهذا ما جعل الدنيا كلها تحب بلالاً وتجله.. لقد كان رسول الله ﷺ يتحدث بنفسه عن بطولات بلال رضي الله عنه.. عن معاناته فيقول:

(لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون -من يوم وليلة-، وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال)^(١). لقد حولت عقيدة الشرك قريشاً إلى كتلة من

(١) إسناده صحيح. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، انظر سيرة ابن كثير (٤٧٢/١)، كلهم

العنف والحقد والبخل.. هكذا تعامل قريش ابنها البار.. وابن سيدها وسيد العرب الكريم.. تحشد له الشوك والسياط والجوع والخوف.. حتى يمر به الشهر حزيناً لا يحمل إليه سوى لقمة يشاظرها بلال في وقت يتقلب فيه زبانية قريش في أنواع الملهذات دون أن ينغص عليهم أنين المؤمنين تحت أقدامهم وسياطهم.. أو يحرك عواطفهم.

لقد كانوا مجرمين

يحملون المال والجاه والحسب والنسب والسياط.. لكن أيديهم وعقولهم خالية من الحجة والمنطق والحقيقة.. ليس لديهم سوى أشياء.. ورثوها عن آبائهم.. فيها اختلط الحق بالباطل دونما تمييز.. أما محمد ﷺ فقد جمع الحق كله.. ورفض الشر كله.. فكانت النتيجة أن صادموه عندما أراد أن يطهرهم ويشدهم من مستنقعات الرذيلة التي يرتكسون فيها.. وكان يقود ذلك الصدام مجرمون.. تفننوا في التعذيب والسحل والتنكيل.. كان من هؤلاء عم رسول الله ﷺ: أبو لهب.. وكان منهم أمية بن خلف.. وعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة.. وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.. لكن هناك من يتفوق على هؤلاء كلهم قسوة وشراسة: رجلان هما: عمرو بن هشام (أبو جهل) ورجل آخر.. أما أبو جهل فكان جباراً شقيماً يتلذذ بتعذيب المؤمنين.. حتى بلغ من قسوته أن طعن سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر بحربة في موضع عفافها حتى لفظت أنفاسها والحياة.. طعنها وهي المرأة الضعيفة الرقيقة.. إنها لم تشتمه.. ولم تسبه إنما قالت: لا إله إلا الله.

من طريق: حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وهو على شرط مسلم من أجل حماد بن سلمة، وهو أوثق الناس في شيخه ثابت.

لقد علمنا التاريخ دروساً عديدة.. وما زال يعلمنا أن للطغاة موقفاً من المؤمنين الدعاة عجبياً.. هذا الموقف يقول: (من كان داعية فهو عدوي)، وقد يكون الطاغية مخيراً أو مسيراً أو ساذجاً.. لكن هذا الموقف لا يتغير. ومن يعير سمعه وبصره للتاريخ والأيام.. يجد المشانق والزنازين تنن أمامه من رقاب الدعاة وأجسادهم الطاهرة.. حتى رياح الحرية التي تهب أحياناً على الشعوب نراها تمر على الجميع وتستثنى الدعاة فهم ينتزعونها انتزاعاً بدمائهم.. ويمنحوها للجميع حرية للبشر للشجر.. لكل من حوته السماء وساح على وجه الأرض. ولم تكن سمية بنت خياط أول الشهداء ولا آخرهم.. ولا كان أبو جهل أول المتسلطين ولا نهايتهم.. كان هناك رجل يزاحمه ينافسه اسمه:

عمر بن الخطاب

لعلكم تذكرون ذلك الرجل العظيم: زيد بن عمرو بن نفيل.. هذا الرجل له ولد عظيم مثله اسمه سعيد بن زيد.. تزوج سعيد من أخت عمر ابن الخطاب.. فكان من السابقين إلى الإسلام.. سمع من رسول الله ﷺ فوجد الحقيقة ووجد نفسه.. ودعا زوجته -وهي أخت عمر بن الخطاب- فأمنت بما آمن به.. فكانت أسرة صغيرة سعيدة بالحب والإيمان والبهجة.. وبعد فترة تسرب الخير إلى عمر بن الخطاب.. فتطير الشرر من عينه ويديه.. وبدأ بتعذيب أخته وزوجها.. فما حدث عار على ابن الخطاب ولن يسمح عمر للعار أن يدخل بيته.. لكن أدوات عمر فشلت.. فالقلوب لا تدخلها السياط والمبادئ لا يثنيها الحديد.. وعمر لا يملك من أدوات الإقناع والحوار سوى بسطة في الجسم وحفنة من السياط والعصي الغليظة.. أحضر الأغلال والحبال.. وقيدهما، وفي ذلك

يقول سعيد بن زيد: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)^(١) هكذا كان عمر.. وهذا ما فعله قريش بأطهر أبنائها المؤمنين. وليس لدى الضعيف المظلوم سوى الدعاء:

دعوة نبي مضطهد

أطال ﷺ التأمل بين صحابته.. يفتش عن أحد.. لكنه لم يجده.. لقد وجد أتباعاً مضطهدين.. مغلوباً على أمرهم.. يتحملون كثيراً.. لكن إلى متى.. إلى متى وهم يتدسسون.. يخفي بعضهم بعضاً كأنما ارتكبوا جرماً.. كان يفتش عن شخص جبار قهابه قريش.. فتراجع أمامه قليلاً.. لعل فسحة من الحياة المشروعة تتسع له ولأصحابه.. فيستمتعون بها كما يستمتع غيرهم.. ويعبدون الله وهم آمنون.. لكن الطغاة لا يرحمون.. إن البهائم والطيور تطوف في مكة آمنة.. أما محمد ﷺ وصحبه المساكين.. ففي الشعاب هائمون.. يأتي إليه خباب بن الأرت يحمل جلدًا مسلوخاً وجروحاً نازفة وهماً كالجبال.. يأتي إليه خباب المسكين وقد لقي أشد العذاب من المشركين. فيقول: (يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)^(٢).

ليس هناك سوى الصبر يا خباب.. هذه هي حياة الأنبياء وأصحابهم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٦٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٥٢).

وأتباعهم.. إن احمرار وجهه ﷺ لم يكن لعدم مشروعية الدعاء.. بل كان لهباً يذهب ما قد يعلو في نفوس أصحابه من الملل والضيق.. إن هذا الاحمرار يقول: إن كل ما يقدمه الداعية في سبيل الله من تضحية.. من مال.. من جهد.. رخيص.. رخيص في سبيل الله.. إنها الجنة يا خباب.. فلا عجب أن مشط الأنبياء السابقون وأتباعهم بأمشاط الحديد.. ونشروا بالمناشير.. فقد كانت الجنة في قلوبهم.. أما الدعاء فمشروع في كل لحظة.. فالدعاء في الإسلام (هو العبادة)^(١).. حتى الأماني التي تجول في الخواطر تسيل عند الله في مجرى الدعاء الجميل المحبوب.. حتى الأماني الحلوة حَوَّلَهَا الإسلام إلى عبادة.. يقول ﷺ: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه)^(٢) وسأل محمد ﷺ ربه.. دعاه وتضرع إليه أن يرزقهم ما يبحثون عنه.. رجلاً يعز الله به الإسلام.. وكانت أميته ﷺ تحوم حول أقسى رجلين وأشرسهما في مكة كلها على المؤمنين.. توجه ﷺ إلى ربه ضارعاً وقال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطاب)^(٣) فقد بخلت مكة وشحت.. وضافت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. ولم يكن هناك متسع للحياة فيها.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن ولا حرام.. ألم تر إلى أبي جهل يقول: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)^(٤).

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١٥٠/٢).

(٢) حديث صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير (١٧٨/١).

(٣) إسناده حسن رواه البيهقي (٢١٥/٢) وابن سعد (٢٦٧/٣) وأحمد (الفتح ٢٣٠/٢٠) من طريق أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة (التقريب ٥٢١/١) أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسن الحديث (التهذيب ٧٦/٣) عن نافع عن ابن عمر قال.
قال: رسول الله ﷺ.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبتة، ولأعفرن وجهه في التراب)^(١).

حبيب الله ﷺ يهدده هذا الجعظ بأن يطأ على عنقه الطاهر.. فماذا ينتظر البقية سوى الموت. أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أطهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها.. لكن هل البقاء فيها من أركان الإسلام.. هل يتحتم على المسلمين أن يربطوا مصيرهم بمكة وقد ضاقت بهم.. وحاصرتهم جبالها.. وكشرت وديانها وشعابها.. هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم.. وكعبة ربهم تنن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية؟.

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء واضحة لا غموض فيها.. الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن.. لا يرتبط بشخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.

إنه من السعة بحيث تستطيع أن تضع هذا الكون كله في زاوية من زواياه.. ومكة جزء من هذا الكون.. الإسلام لا يرتبط بمكة.. ولا بفلسطين ولا ببقية أراضي الأنبياء مهما كانت.. فلا حرج على هؤلاء الضعفاء من المغادرة والهجرة من أكرم بقاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها لكن إلى أين؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله امرأة مسلمة تدعى: أم سلمة (هند بنت أمية) التي عذبت هي وزوجها مع سائر المؤمنين لأنهم يقولون لا إله إلا الله.. تقول أم سلمة رضي الله عنها:

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

لما ضاقت مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه، ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره وما ينال أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلادها، يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فترلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظملاً^(١). كان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً يحمل الصليب على صدره لكنه كان عادلاً.

أرض بلال تجود مرة أخرى.. وشلالها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم وتطهر جرحهم من أشواك قريش ورماحها.. لكن لماذا الحبشة؟ هل لأنها أرض النصرارى.. والنصارى أهل دين نزل من السماء كالإسلام تماماً.. ربما.. لا سيما وجزيرة العرب غابة من الأصنام.. وأرض فارس تتأجج ناراً تحرق أهل فارس.. وتحرق فطرتهم وتذيبها كلما ركعوا لها أو تمسحوا برمادها وتمرغوا.. ربما كانت في هذه بعض الإجابة.. لكن الإجابة المؤكدة هي ما قاله رسول الله ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) إذاً فهو العدل والعدل فقط.. وقريش قد فرغت جيوبها وقلوبها من العدل.

ابتسم المتسلطون وهم يرون هؤلاء الفقراء يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة تبللهم الدموع ويتقلب الجمر في أكبادهم.. يتركون بيوتهم.. يتركون نبيهم ﷺ وإخوانهم يتلبطون بين السياط.

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق، (سيرة ابن كثير ١٧٢/٢) فقال: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، عن أم سلمة رضي الله عنها، وابن إسحاق لم يعنعن بل صرح بسماعه من شيخه الإمام المعروف: الزهري، وشيخ الزهري هنا هو تابعي ثقة فقيه معروف. التقريب (٣٩٨/٢).

فرح الطغاة والمتسلطون كلهم إلا واحداً كان يرقب المشهد بعمق
يقف ملجماً بالحزن.. مثقلاً بالندم.. ينظر إلى ضحاياه.. يتأمل مطاياهم
وهي تتمايل مغادرة مكة فتنتزع من قلبه بعض قسوته وعروقه.. كان
صامتاً يخاطبه الندم ويقول له:

ماذا فعلت يابن الخطاب.. وماذا جنت يداك.. ويحك يا عمر إنهم
أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم.. ألا يلين قلبك لهذا المنظر..
نساء حزاني.. وشباب حيارى.. وأطفال لا ذنب لهم.. ورجال كرام
أهنتهم وشردتهم وضيقت عليهم حتى ملوا الحياة.. وهم الذين كانوا
يكرمون الضيف.. ويحنون على الضعيف.. إلى أين أُلجأهم يا عمر؟ إلى
بحر يتقلب بهم.. أم إلى أرض لا يعرفون بها أحداً.. ماذا سيكون
مصيرهم.. أنت لا تعرف وهم لا يعرفون.. هل خلقت بلا قلب يا عمر؟
تقدم أيها القاسي وقل شيئاً يخفف من لوعتهم.

وتقدم عمر.. وتحرك قلبه وتحركت شفتاه في هذا المشهد المعبر الذي
ترسمه لنا أم عبد الله زوجة عامر بن ربيعة بقولها:

(كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا
للخروج إلى أرض الحبشة. جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعير نريد أن
نتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟

فقلت له: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في
عبادة الله [والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى
يجعل الله لنا مخرجاً]^(١).

(١) هذه الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

[ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا].

ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ابن الخطاب فقال: ترجين يسلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب - وهذا من شدته على المسلمين - ثم رزقه الله الإسلام^(١).

وتحركت المطايا والقلوب تلوح لمكة.. وركب المعذبون البحر.. وارتفعوا مع الموج وانخفضوا حتى قذفتهم المراكب على سواحل الحبشة فرأوا الأمان وتلمسوه فعانقوه وارتاحت قلوبهم.. واستراحت أبدانهم من شراسة قريش.. أما رسول الله ﷺ وبقية أصحابه فمكثوا في مكة يمشون على الأشواك.. ويحشى عليهم التراب.. ويصق في وجوههم.. لكنهم لا يتراجعون يدعون ويدعون.. ويكثر أتباعهم كل يوم.. فتضطرب قريش من هذا الدين الذي يشتد عوده كلما اضطهد وعذب أتباعه.. كأنهم يقتاتون الشقاء والمعاناة.. يحتسون المرارة.. فيزدادون صفاءً وتألُقاً.. هذا عبد الله بن عمرو بن العاص.. يحدث رجلاً ويخبره عن أشد المناظر فظاعة.. أشد مناظر قريش قسوة وهي تنال من رسول الله ﷺ فقال: (لقد رأيتهم - وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر -، فذكروا رسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا^(٢)، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم.. أو كما قالوا.

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣٣/٢) (والمغازي والسير لابن إسحاق واللفظ له ١٨١)، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلي. وسندها فيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز بن عبد الله فهو يحتاج إلى توثيق فقد سكت عنه ابن أبي حاتم (٣٨٥/٥) وابن حبان الذي أورده في الثقات (١١٥/٧) لكنني أوردها لأنه تابعي كبير ولأنه يروي هذه القصة عن أمه - جدته.

(٢) عقولنا.

فبينما هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فلما مر بهم طائفاً بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفت في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنا على رأسه طائر^(١) واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه^(٢) أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرت ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكروهون تركتموه، فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع رداءه وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبكي دونه^(٣) وذكر عبد الله بن عمر اسم ذلك الجلف فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط - ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة - فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول

(١) أي أنهم قد سكتوا وخيم السكون عليهم.

(٢) يداريه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٢٧٥)، حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه عروة قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وهذا السند قوي: ابن إسحاق لم يدلّس، ويحيى بن عروة ثقة. انظر (التقريب ٢/٣٥٤).

الله ﷺ ثم قال: أقتتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم^(١).

ووصف عبد الله الحارث مرة فقال:

(ما تنول من رسول الله ﷺ شيء كان أشد من أن أطاف بالبيت - ضحى - فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع رداثه وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا. فقال ﷺ: أنا ذلك. فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من رداثه ثم قال: أقتتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)^(٢).

كل هذا ورسول الله ﷺ يتجرع مرارة الأذى صابراً.. فالدروب حوله أمر.. ولا بد من المعاناة.. فقد بعث ليعث الحياة في نفوس مريضة.. ليلتقط أشلاءها الممزقة.. أشلاءها المبعثرة.. ليجعل من هؤلاء الجفاة شמוש حضارة تمنح الضياء للعالم.. ولا بد أن يكون في دربه قلوب مطموسة.. وصخور عناد قاسية.. مشركون تكومت في قلوبهم أسباب النعمة وبين أيديهم سبل الانتقام.. لن يتورعوا عن ارتكاب الحماقات مهما كانت فادحة.. وسيتلذذون بذلك.. وسيشربون الخمر بهجة بانتصار مزيف.. لكن كل ذلك سيتلاشى مع الليالي والأيام والصبر والمصابرة.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. كتاب الفضائل.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي (٢٧٧/٢) من طريق العباس بن محمد بن حاتم، وهو ثقة

(التهذيب ١٢٩/٥) حدثنا ابن مخلد وهو صدوق (التهذيب ١١٦/٣) حدثنا سليمان بن

بلال وهو ثقة (التقريب ٣٢٢/١) حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله.. وهشام

والده ثقتان مرا معنا كثيراً فالسند صحيح.

الإيمان في الشدة والأزمات عمود نور كلما ضرب توغل في شغاف القلوب.. الإيمان مطر تنشره رياح الحرية في الأرض.. فإذا قلوب البشر قد اهتزت وربت وأنبئت فيها الحياة العذبة الجميلة.. هذا رسول الله ﷺ يفر من مكة.. ويلوذ بالفرار معه أبو بكر.. تطاردهما وحوش قريش وسفهاؤها.. فيجدان الأرض خارج مكة أدغالاً من الخوف والرعب.. صحارى وعطش ورمضاء وعرق.. هذه الشدائد وهذه الأزمات الحرجة تشققت عن مولود إسلامي عظيم أصبح أحد رموز هذه الأمة وعلماؤها رمز يدعى:

عبد الله بن مسعود

يقول رضي الله عنه:

(كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر -وقد فرا- من المشركين فقالا: يا غلام، عندك لبن تسقين؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم يتر عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا..، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعة، فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقاني، ثم قال للضرع، اقلص. فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب -يعني القرآن- فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد^(١)).

إنها لمعجزة أن يدر ذلك الضرع باللبن ثم يقلص.. كذلك الإسلام..

(١) إسناده حسن، رواه البيهقي (١٧١/٢) وأبو دازد الطيالسي (سيرة ابن كثير ٤٤٤/١) من طريق: حماد بن سلمة وهو ثقة وإمام معروف، عن عاصم بن ممدلة، وهو حسن الحديث. انظر التهذيب (٣٨/٥) عن الثقة المخضرم زر بن حبيش. فالسند بذلك حسن.

معجزة فقد جعل من رويي الغنم عالماً عظيماً.. في وقت كان زبانية قريش ينتظرون خبر موت محمد وصاحبه خارج مكة.. ولكن كانت مكة لا تأبه كثيراً لإسلام عبد الله بن مسعود لأنه في نظرهم مجرد راعي غنم قصير القامة.. ضعيف البنية.. دقيق الساقين جداً.. إذا كانت قريش لا تأبه لإسلام ابن مسعود فالإسلام يأبه كثيراً بابن مسعود ويوظف قدراته العقلية.. الإسلام يحتفي بهذا المسكين كاحتفائه بـ:

إسلام حمزة

إذا كان ابن مسعود الضعيف قد أسلم خارج مكة ورسول الله ﷺ هارب من تعذيب أهلها له.. فإنه قد قيل إن حمزة بن عبد المطلب ذلك الأسد الفاتك.. عم رسول الله ﷺ قد أسلم أيضاً بعد عملية اضطهاد لرسول الله ﷺ (كان إسلام حمزة حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا.. وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رمية ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة، ماذا ألقى ابن أخيك من أبي جهل بن هشام: شتمه وتناوله، وفعل وفعل، فقال: هل رآه أحد. قالت: أي والله لقد رآه ناس فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا.. وكذا وفعلت كذا.. وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بين أذني أبي جهل فصدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله. قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت أفضل منه ما أقررنك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً^(١).

(١) أقول: قيل لأن الرواية لم تثبت عندي، فهي مرسلة عند الطبراني، معضلة عند كل من: ابن

قد تكون هذه هي قصة إسلام حمزة وقد يكون لإسلامه قصة أخرى.. الله أعلم.

وسواء كان ذلك الذي حدث أم لا فإن إسلام حمزة كان نصراً هز مكة من أقصاها إلى أقصاها.. فالأمر يبدو خطيراً.. والأقوياء الذين كانوا يخشون من زوال سمعتهم وما تجنيه لهم تلك القوة من أضواء بدأوا ينضمون إلى صفوف المؤمنين ويزيدونها قوة.. فقد أدركوا كم هم ضعفاء أمام قوة الإسلام.. أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه.. فهل من سبيل إلى خروج من هذا المأزق الذي ألجأهم الإسلام إليه.. هل من مهرب قبل أن يجدوا أنفسهم غرباء خارج مكة مهزومين أذلاء.

المفاوضات بعد إسلام حمزة

لم يصدق عتبة بن ربيعة أن حمزة أصبح اليوم مع ابن أخيه.. درع يحميه.. سيف يشق به صفوف قريش.. سيصعب الوصول إليه وحمزة معه.. ها هو ابن أخيه يصلي دون خوف عند الكعبة.. اغتاز عتبة أحد أسياد مكة مما يحدث.. (فقال يوماً وهو جالس في نادي قريش -ورسول الله ﷺ في المسجد وحده-: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرُونَ فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حين جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم،

إسحاق، وابن أبي حاتم، والطبراني أيضاً، انظر مجمع الزوائد (٢٦٧/٩) والسيرة الشامية (٤٣/٢) فهي ضعيفة.

وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد.. أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال رسول الله ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَرَفٌ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَرَفٌ﴾ كُنْتُ فُضِّلْتُ عَائِنْتُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿حَرَفٌ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿حَرَفٌ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقُرْءٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿حَرَفٌ﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿حَرَفٌ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿حَرَفٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿حَرَفٌ﴾ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْنَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿حَرَفٌ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّسَائِلِينَ ﴿حَرَفٌ﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿حَرَفٌ﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿حَرَفٌ﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ

أَنْذَرْتَكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٥﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنَ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ
﴿١٦﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ
أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ
صَعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ وَبَعَثْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾
وَبِیَوْمٍ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُودِهُم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا
قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا
كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ
اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ
مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٦﴾ * وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ
الَّذِينَ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا
الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٣﴾
تُرَاةً مِنْ عَفْوَهِمْ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا

الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَجْوً فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَلْتَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ (١) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال:

قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نلخف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد. قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم (٢) لقد هزت الآيات قلبه لكنها

(١) سورة فصلت: الآيات ٣٨-١ التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

(٢) حديث حسن، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢٦٢/١) بسند صحيح مرسلًا: حدثني يزيد ابن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش..

وزيد ثقة وهو مولى عبد الله بن عياش. التهذيب (٣٢٨/١١) وكذلك محمد بن كعب فهو تابعي ثقة. لكنه لم يذكر اسم من حدثه قد يكون صحابياً، وقد يكون تابعياً. لكن للحديث شاهدان يتقوى بهما. الأول عند عبد بن حميد (ابن كثير ٥٠٢/١) وفيه ضعف يسير. من أجل رجل لم يوثقه إلا ابن حبان وهو الذيال بن حرملة. وشاهد قصير عند ابن

وجدته صخراً.. أما عقله فقد أدرك سحر هذا القرآن وأثره.. لكن أنياب العادات والتقاليد وبقايا سمعته كانت مغروزة فيه.. وهو أضعف من أن يتخلص منها.. فهو في ريبة يتردد لا يجد له استقراراً.. في نزاع بين ما هو صحيح وبين ما يهواه.. وأخيراً دحرجته جموع الكفر إلى الكفر.. دحرجت قلبه الصخري على عقله فانطمس ولبث في عماء حتى ألقى مكفناً بالشرك والعفن.. أما محمد ﷺ فأعلنها:

لا تنازل

هذا هو مبدأ سيد البشر ﷺ وإمام القادة.. لا يقبل إطلاقاً أي تلفيق في المنهج.. لا جسور في العقيدة بينه وبين الكفر إطلاقاً.. لقد نثروا بين يديه خيارات مغرية.. الزعامة.. والمال والسيادة عليهم وهم سادة العرب شم الأنوف في الذرى بين الجميع.. لكنه ﷺ رفض ذلك كله.. كان بإمكانه أن يتزعمهم ثم ينقلب عليهم إذا اشتد عوده وكثر أتباعه.. كان بإمكانه أن يعقد هدنة معهم ثم يأخذ من المال ما يتيح له أن يعد جيشاً من المرتزقة يحطم به أعداء الله.. لكنه الأمين.. والأمين يقول: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)^(١) ولن يخون ﷺ مسلماً ولا كافراً ولا مشركاً مهما كانت الأسباب فالأمر عقيدة.. والقيادة عقيدة عند رسول الله ﷺ.. فإما أن تكون لله أو تكون للشيطان.. ولن يشاطر الشيطان قيادةً ولا نهجاً.

لقد كان ﷺ يتنازل عن حقه.. يؤذى فيصير.. يسيل دمه فيمسحه

إسحاق، عن نافع عن ابن عمر وفيه ابن إسحاق لم يصرح بالسماع من نافع فالحديث بهذه الطرق حسن.

(١) حديث صحيح.

ثم يعود إلى بيته مكسور الخاطر صابراً حزيناً محتسباً.. كانوا يضعون النجاسة على ظهره وهو ساجد لوجه ربه وأمام كعبته فيصير أيضاً ويحتسب.. كان الصحابة يتهافتون عليه ليكون جراحهم يبحثون عن خلاص.. فيطالبهم بالصبر.. ورغم ذلك كله.. وبعد هذا العذاب كله.. تجده يذهب إلى أنديتهم مبتسماً يدعوهم ويدعوهم ولا يمل من دعوتهم.. وكانوا يأتونه في بيته رغم عداوتهم له يضعون أموالهم وودائعهم عنده ويلقبونه بالأمين.

ما الذي يجري وما تفسيره.. سيأطهم على ظهره وأموالهم ودائع محفوظة عنده.. لم يقل هؤلاء مشركون نجسون فما لهم حلال لي.. ولا عهد لهم ولا ذمة ولا كرامة.. لم ينتقم لنفسه أبداً.. لم يعاقب أحداً لأنه ضربه أو شتمه.. بل كان يدعو لهم بالهداية.

هذا هو الفرق بين رسول الله ﷺ وبين متحمسين شوهوا الإسلام وأعاقوه أكثر مما أعاقه أعداءه.

هناك من الدعاة من يتنازل عن بعض مبادئ العقيدة من أجل مكسب سياسي.. وهناك من الدعاة من يرى أن السياسة رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه مع أن الحكم والسياسة من توحيد الألوهية الذي هو حق لله سبحانه وحده.

ومن المتحمسين من يحمل بضعة أحاديث يغلفها بسوء ظن ويرصد من حوله ليرميه بالكفر والمروق أو الفسق والانحلال.

وهناك من يحاسب الناس وكأنهم يعلمون كل شيء عما يحاسبهم عليه مثل علمه تماماً.. وهناك من يدعو الناس وقد حرم على نفسه الابتسامة ورسم على وجهه كل أنواع العبوس والتكشير.. كأنه خارج

من معركة ضاع فيها الشرف وسالت فيها الدماء.. وكان رسول الله ﷺ لم يكن أكثر الناس تبسماً.. وأكثر الناس تطيباً.. وأزكى الناس رائحة.. كأن الرسول ﷺ لم يقل إن الله جميل يحب الجمال.

وهناك من يعامل اليهود والنصارى وغيرهم وكأنهم علماء متبحرون في دينهم.. كأنهم يتعمدون الكفر.. وكان المسلم غير ملزم بدعوتهم قبل بغضهم واضطرارهم إلى أضييق الدروب. ويغفل هؤلاء - وهم في غمرة حماسهم - ويتناسون:

ما حدث لركانة

مشارك قوي البنية.. لم يتمكن أحد من طرحه على الأرض.. ويبدو أنه قد تميز عن أهل عصره بتلك البنية البدنية الجبارة.. هذا الرجل يرى في جسده كل ثروته وشهرته.. أما رسول الله ﷺ فكان يرى في تلك العضلات المنحوتة بالنشاط أبواباً إلى عقل ركانة وروحه.. فلا بأس من طرقها لعل الله أن يهديه للإسلام.. فيقرر ﷺ ممارسة لهو مباح مع هذا المشرك.. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ما قام به ﷺ ليس من اللهو.. فماذا فعل ﷺ مع ابن ركانة؟ لقد (جاء يزيد بن ركانة إلى النبي ﷺ ومعه ثلثمائة من الغنم فقال: يا محمد، هل لك أن تصارعني؟ قال ﷺ: وما تجعل لي إن صرعتك؟ قال: مائة من الغنم، فصارعه، فصرعه، ثم قال: هل لك في العود؟ فقال ﷺ: وما تجعل لي؟ قال: مائة أخرى، فصارعه، فصرعه، وذكر الثالثة، فقال: يا محمد، ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقام عنه ورد عليه غنمه)^(١).

(١) رواه الخطيب وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٥٠١).

هل هناك من يقول إن رسول الله ﷺ كان يمارس شيئاً غير اللهو المباح.. هل كان ﷺ بتلك المصارعة يتدارس معه علماء.. أديباً في صلاة..؟ بالطبع لا.. لكن من المؤكد الذي لا شك فيه أن لرسول الله ﷺ هدفاً من تلك المصارعة أسمى من غنماته وعضلاته.. كان ﷺ يسعى لإسلامه.. يفتش داخل هذا الجسد القاسي عن توحيد مكبل ليحرره.. كان ﷺ يقدم درساً لأُمَّته يكشف فيه مدى حاجة هؤلاء المشركين إلى التوحيد والإيمان.. وأن هؤلاء المشركين مهما بلغت قسوتهم وطفح طغيانهم مساكين.. غرقى بجاجة إلى من ينتشلهم من قلب الظلمة.. من أجل ذلك قدم ﷺ درساً يبيح فيه الخوض في أبعاد الحلال وأعماقه من أجل إنقاذ إنسان كركانة.. لكن ماذا يقول المرء وهناك من يتناسى -باسم الإسلام- فعله ﷺ وهو مع ركانة وهو ليس بمسلم.. ماذا يقول المرء.. وهناك من يرى أن اللين لا يجوز إلا مع الملتزمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ وأن اللين الشدة والغلظة وعدم السلام أشياء مطلوبة مع من لا يظنهم كذلك.

ويصنف الناس وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم.. ينسى أخوة الإسلام ويحاول التملص من واجبات تلك الأخوة.. إنها ميول مغلفة بطابع ديني.. وما كان رسول الله ﷺ يمرر شهوته من خلال الدين.. لقد كان ﷺ يرسم يطبق شرعاً في التعامل والقيادة.. لقد كان سمحاً مبتسماً.. لا ينتقم لنفسه أبداً.. ولا يرصد الأخطاء على من ظلموه ليتشفى.. بل كان يتسامح.. كان يصل هؤلاء المشركين ويعرف حق القرابة والرحم رغم افتراقه عنهم في العقيدة.. لأنه مكلف بتسليمهم رسائل ربهم فرداً فرداً.. ومكلف بالصبر والانتظار حتى ولو تحولت الأرض كلها إلى كفر بالله.. هذا هو الفرق بين هؤلاء ورسول الله ﷺ.. هؤلاء يذلون القليل وينتظرون الكثير ويغضبون إن لم يظفروا بنتائج.. أما رسول الله ﷺ فكان يكدح ويعمل ويذل ويصبر ولا

ينتظر شيئاً من أحد.. كان ينتظر الجزاء من الله.. فإن ظفر بنتائج وظفها
كما وظف نفسه وجعلها للأرض سلاماً وشعاع نور للتائبين.

إسلام عمر^(١)

كل الروايات تقول إن القرآن العظيم هو سبب إسلام ابن الخطاب
العظيم.. فهو لم يستطع مقاومة تأثيره.. ولم يستطع إنكار إعجازه..
فألقي بسلاحه عدة مرات أمامه.

أول الدرب دعاء

كان ﷺ حزينا لما يجري لصحابته وأتباعه من تعذيب وإيذاء..
وتنكيل شديد على أيد طغاة قريش وزبائيتها.. كانت الأحداث التي
تعصف بهم تؤذيه.. وتعصر قلبه.. فيتوجه بهذا الدعاء الحار إلى ربه:
(اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو
عمر بن الخطاب)^(٢) فقد كانا أشد من يسلخ الظهور ويعذب فوق
الرمضاء.. وكان عمر أكثرهم رقة.. وقد لاح ذلك عندما وقف ممثلاً
بالحزن وهو يودع الصحابة المغادرين إلى أرض الحبشة.. لكن قسوته
تغلب على رفته.

(١) لإسلام عمر بن الخطاب قصة حيرتني روايتها كثيراً.. ليس من ناحية الثبوت.. ولكن لأن
هناك فقرة تاريخية لم أصل إليها تجمع بين تلك الروايات التي يحيل إلى من يقرأها متضاربة.
(٢) حديث حسن الإسناد، رواه البيهقي (٢١٥/٢) وابن سعد (٢٦٧/٣) وأحمد (الفتح
الرباني ٢٣٠/٢٠) من طريق: أبي عامر العقدي، أخبرنا خارجة بن عبد الله سليمان بن
زيد بن ثابت، عن نافع عن عبد الله عن عمر. وهذا الإسناد جيد، اسم أبي عامر: عبد
الملك بن عمرو القيسي وهو ثقة. التقريب (٥٢١/١) وشيخه خارجة ثقة. التهذيب
(٧٦/٣)، ونافع إمام وثقة معروف.

بدأ ابن الخطاب يمارس دوره في التعذيب مع أقرب الناس إليه وأقربهم وألينهم قلباً وجسداً أخته المسكينة التي ليس لها جريرة سوى أنها تقول ربي الله وزوجها المعذب.. الصابر: سعيد بن زيد.. الذي لم يسلم من بطش عمر القاسي.. يقول سعيد رضي الله عنه:

(والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)^(١).

حبال وسياط هي أدوات الحوار التي كان يجيدها عمر ويكثر من حملها.. فالجاهلية التي كان يعتنقها لا تستطيع البقاء إلا بالحبال والسياط لكن القلوب لا تدخلها السياط.. والأفكار لا يثنيها الحديد.. مهما كانت قسوة عمر فإنه ما زال بشراً يحمل قلباً.. ما زال يحمل عقلاً.

عمر يلقي آخر السياط

عمر بن الخطاب.. الرجل الحديدي أسلم.. تلك القوة التي كانت ترزح فوق أنفاس المستضعفين انزاحت.. فهل ستستحيل بين أيديهم سلاحاً يشقون به طريقهم وسط غابة الخناجر والسيوف وأغصان من المشانق والقيود.. أم أن عمر سينضم إلى قافلة المستضعفين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً..؟ كل تلك التساؤلات.. أجاب عنها عمر.. فهو لم ينتظر أن يسأله أحد كيف أصبحت.

لم ينتظر عمر أن تزحف الأخبار إلى بيوت مكة بخبر إسلامه.. أن يقول إنه تخلص من شركه كما تخلص الأشجار من أوراق الخريف الصفراء.. على الطرقات وفي البيوت ويحملها الهواء في أجواء مكة.. إنه

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

يسأل من حوله فيقول: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أي أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح^(١) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا. فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة^(٢) وقميص موسى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل - يقول ابن عمر - فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك. قال: ذاك بني: العاص بن وائل السهمي^(٣).

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣٨/٢) حيث قال: حدثني نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: ...

وهذا الإسناد صحيح، فيه تابعي معروف هو: نافع مولى ابن عمر، وهو ثقة ثبت فقيه مشهور، وابن إسحاق صرح بالسمع منه.

يقول ابن عمر: (ف عجبت من عزه)^(١).

ولم يكن عز هذا الرجل بأعظم من إجابته المفحمة لفلول الكفر.. إنه يرفض مبدأ قريش في تكميم الأفواه وتقييد الحريات.. فالرجال أحرار في اعتناق ما يرونه.. وعمر حر في اعتناق ما رآه صواباً وحقيقة.. فلماذا التبرم يا قريش؟ صممت قريش لأنها تفتقر إلى أسلحة العقل والإقناع.. لا تملك شيئاً يبرر أصنامها وطقوسها.. إنها تملك صراخاً وضجيجاً تراحم به أجواء الحوار الهادئة.. فإذا ما ماجت الساحة بالفوضى والغبار والضجيج، مررت ما تريد وفرضت ما تشتهي.. وأبقت الدعاة في جو من الخوف والرعب فربما يتراجعون عن رسالتهم التي تخطف القلوب والعقول بهدوءٍ من صفوف قريش.. لكن رسول الله ﷺ استمر في هدوئه ودعوته.. يزداد سكينه كلما ازدادوا شراسة.. وييشر كلما عسروا وشددوا.. ويتسم كلما كثرنا عن أنياب دامية.. ويلالظ الناس جميعاً بأسلوب ساحر آسر.. كله حب وشفقة.. كله ود وجمال.. كأنه خير ماء.. كأنه ساحة من الزهور فسيحة.. هذا الأسلوب جعل معسكر الكفر يفقد أعصابه وأفراده.. فبالأمس كانت قريش تفقد أفراداً ربما لم يكن لهم تأثير.. أما اليوم فهي تفقد أقوياء مفتولين كالحديد.. هاهو حمزة ينسحب منهم.. ويتبعه عمر بن الخطاب.. وهاهم الضعفاء يقتربون من الكعبة.. يطوفون بها.. بل يصلون عندها.. وهاهو أحدهم.. راعي الغنم الفقير.. يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)^(٢).

فقد وجد بعض المسلمين ساحة آمنة يركعون فيها ويسجدون قرب الكعبة.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري في (المنقب).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)^(١).

يا لها من دعوة نبي.. اليوم عمر بن الخطاب صار سيفاً لا يفل.. ولا يحول بينه وبين وجوه الطغاة حائل.. فأصبح لأقدام المستضعفين مكان في بيت الله الحرام.. وجوار الكعبة.. يتجمهرون حول نبيهم ﷺ عند الكعبة.. ويسمع المهاجرون إلى الحبشة بتلك الأحداث فيركب بعضهم الأمواج والبهجة عائداً إلى رسول الله ﷺ..

وفي يوم من تلك الأيام التي يلتف بها الصحابة حول رسولهم ﷺ.. وقد زاحمهم المشركون أيضاً تنغيصاً ونكداً.. في مجلس الأخلاط هذا.. كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتَ (١) الَّذِي تَوَلَّى (٢) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ (٤) أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٥) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٦) أَلَا نَزَرُ وَإِرْزَاقٌ (٧) وَذَرَّ أُخْرَى (٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٩) وَأَنْ سَعَاهُمْ سَوْفَ يَرَى (١٠) ثُمَّ يُجْرَاهُ الْجُرَاءُ الْآوْفَى (١١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (١٢) وَأَنْتَهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (١٣) وَأَنْتَهُ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا (١٤) وَأَنْتَهُ خَلَقَ الرَّجْجَيْنِ الذَّكْرَ وَالْأُنثَى (١٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (١٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخْرَى (١٧) وَأَنْتَهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى (١٨) وَأَنْتَهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (١٩) وَأَنْتَهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٢٠) وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى (٢١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى (٢٢) وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى (٢٣) فَغَشَّهَا مَا عَشَى (٢٤) فَبَئِيَ آلَآءَ رَبِّكَ نَتَمَارَى (٢٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٢٦) أَرَفَتِ الْآرِزَةَ (٢٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٢٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٢٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّكِنُونَ (٣٠) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (٣١) فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٣٢)﴾ (٣)

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) بدأت الآيات من هنا لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن الإسراء والمعراج، فكأنها هناك.

(٣) سورة النجم.

وبعد أن قرأ ﷺ هذه الآيات سجد (وسجد معه المسلمون
والمشركون والجن والإنس)^(١).

(غير شيخ أخذ كفاً من حصيٍّ أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال:
يكفيني هذا)^(٢).

سجد الكفار المعاندون وسجد المؤمنون.. أخذتهم هذه الآيات
فساحت بهم في رحلة بدأت من الآخرة.. حيث القبور الثائرة المبعثرة..
حيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون يخرجون يبحثون
عن الداعي والمنادي.. وتنتهي بهم الرحلة هناك بين الخرائب الصامته..
خرائب عاد وثمود وقوم لوط حيث الجثث منثورة متورمة من الماء.. جثث
قوم نوح التي طوح بها السيل في كل مكان.. وأثناء هذه الرحلة المخيفة
يدخل المسافرون عالماً مدهشاً وعجيباً يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة
لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.. تحنى الرقاب.. وتخضع
القلوب والجباه لقدرة الله واعترافاً بعظمته.. تأثر السامعون المسلمون..
والمشركون أيضاً فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر^(٣).

حتى ذلك الشيخ الحجري لم يستطع كبت شعوره نحو هذه الآيات
وتأثره بها.. فرفع كف الحصى ووضع على جبهته.. لحظات من الخضوع
والخشوع كانت تطوف بالكعبة والملتفين حول نبي الرحمة ﷺ.. لكن
تلك اللحظات لم تلبث طويلاً.. لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان..

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) أقصد بالشيء الآخر تلك القصة الغريبة (قصة الغرائق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة
سنداً وللعلامة الألباني رسالة سماها (نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق) ولأستاذي الشيخ
الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد لها في (مغازي عروة).

عاد الشيطان من جديد يتمدد في الشرايين والقلوب.. يثير في نفوس المشركين الرعب والخوف من المستقبل المجهول.. من محمد ﷺ وصحابته.. يقول إنهم في طريقهم إلى السيطرة على مكة وغيرها.. ولا بد من إيقاف ذلك الزحف المفزع.. لا بد من إيقاف عمر بل يجب:

قتل عمر

لكن عمر شجاع.. عمر قوي.. لا بد من حشد يحملون عليه حملة رجل واحد.. واتفقت قريش على هذا الأمر، وسارت مجموعة كبيرة لا قبل لعمر بها فلزم بيته لا يغادره و (بيننا عمر في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، وعليه حلة حيرة، وقميص مكفوف بجرير فقال: ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلوني لأنني أسلمت. قال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبا. قال: لا سبيل إليه. فكر الناس وتصعدوا^(١) عنه^(٢) ورجعوا والغيط يملؤهم.. لكنهم ما كانوا ليركوا فرصة صفاء لمحمد ﷺ وأتباعه.. ما كانوا ليركوا دقيقة صفاء إلا وحاولوا التسلل لتعكيرها.. هاهم يجتمعون مرة أخرى.. ويقررون:

الذهاب إلى أبي طالب

كما أن العاص قد أجار عمر.. فإن أبا طالب يحمي ابن أخيه محمداً ﷺ ولا بد من التدخل في تلك الحماية.. لا بد أن تكون تلك الحماية بشروطهم.. لا بد من الضغط عليه وعلى عمه لعله يتراجع..

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

وكان ذلك التراجع هو الحلم لقريش.. وهو الأمل عندما (جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فأنه عنا، فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد. يقول عقيل: فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس^(١) -بيت صغير- فجاء به في الظهيرة، في شدة الحر، فجعل يطلب الفياء^(٢)، يمشي فيه من شدة الحر الرخص^(٣)، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم، فأنته عن أذاهم، فحلق^(٤) رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة. فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا^(٥). لقد امتزج هذا الدين بلحمه ودمه..

(١) ويعني أيضاً بيت الأسد.

(٢) الظل.

(٣) العرق.

(٤) أي رفع وأجال.

(٥) إسناده جيد، رواه البخاري في تاريخه (٥١/٧) والبيهقي (١٨٦/٢) من طريق: يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى بن عبد الله، عن موسى بن طلحة، قال: أخبرني عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب:....

يونس بن بكير بن واصل الشيباني حديثه حسن، انظر التقريب (٣٨٤/٢) والتهذيب وطلحة بن يحيى من رجال مسلم وهو حسن الحديث إذا لم يخالف، أما موسى بن طلحة ابن عبيد الله التيمي فهو تابعي ثقة جليل، ويقال إنه ولد في عهد رسول الله ﷺ (التقريب ٢٨٤/٢) وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي (١٨٧/٢) وقد جاء فيها لفظ:

يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه، وسبب ضعف هذا اللفظ هو أن راوي الحديث هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأحنس لم يذكر من هو شيخه بل قال: حدثت أن قريشاً قالت: ... ثم الحديث هناك جهالة الصحابي، وجهالة التابعي أيضاً لأن ترجمته في التهذيب ليس فيها

فتألق معه وسما.. وأنتم أعجز من أن تنهضوا من مستنقعات الوحل
والطين.. إنكم تتمرغون فيه وتصنعون منه أصنامكم.. فأين أنتم من
الشمس والهواء النقي.. وأين أنتم من رسول الله ﷺ.
أدرت قريش ذلك فعادت إلى:

الاضطهاد من جديد

ها قد سقط أمل كان يترنح في الأفق.. واتضح الرؤية على أرض
مكة.. إما الله وإما الأصنام.. إما التوحيد وإما الشرك.. لا جسور بينهما
ولا اتصال.. سقط أحد الآمال التي كانت تحمله قريش فأغضبها ذلك
السقوط.. وأغضبتها تلك الهزيمة.. فعزمت على العودة من جديد..
للتعذيب من جديد.. وسيكون هذه المرة أقسى وأغلظ وأشد.. ستصل
أنبياه إلى الجميع دون تفريق.. لقد قررت قريش أن تملأ مكة بالدماء..
هاهم وقد أمسكوا برسول الله ﷺ يضربونه ضرباً شديداً حتى أسالوا
دمه.. فيهرب هائماً مغموماً كثيراً.. فيأتيه جبريل عليه السلام (وهو
جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟
فقال ﷺ له:

فعل بي هؤلاء.. وفعلوا.. فقال جبريل:

أتحب أن أريك آية؟ قال:

نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال:

ادع تلك الشجرة.

ذكر صحابي واحد ضمن شيوخه، فهو كما قال العلامة الألباني: من أتباع التابعين. انظر
التهديب (١٩٢/١٣) وانظر تعليق الإمام الألباني على فقه السيرة الغزالي (١٠٩-١١٠).

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل:
مرها فلترجع.

فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: (حسي) (١) آية
عظيمة.. تسليه ﷺ.. تمسح عنه دماء نازفة.. ودموعاً حارقة. فيعود لمكة
مرة أخرى.. متخفياً عن أعين القوم وأيديهم.. فيجد أتباعه يفترشون
الرمضاء.. يلتحفون السياط يعجون إليه يطلبون الإذن بالهجرة من جديد
فيأذن لهم.. وكانوا هذه المرة أكثر من ثمانين صحابياً معذباً.. يريدون أن
يعبدوا الله بحرية.. ويعمروا الدنيا بسلام.. فأذن لهم ﷺ.

الهجرة إلى الحبشة الثانية

إحدى المعذبات هي أم سلمة رضي الله عنها.. تحدثنا عن رحلة الآلام
كاملة فتقول: (لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا،
ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع
دفع ذلك عنهم) (٢) ..

فقال لهم رسول الله ﷺ:

(١) إسناده صحيح: رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٢٠)، حدثنا أبو معاوية، عن
الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن يذهب
شبهة تدليس كونه راوية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة بن نافع القرشي، فقد
جاء في التهذيب (٥/٢٦): روى عنه الأعمش وهو راويته، وقال ابن عدي روى عنه
الأعمش أحاديث مستقيمة، بالإضافة إلى أن تلميذ الأعمش الثقة: أبو معاوية: محمد بن
خازم الكوفي قد قال عنه وكيع ما أدركنا أحداً كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية
هذه الميزات في الشيخ والتلميذ تنفي شبهة التدليس.
(٢) مر معنا تخريج هذا الجزء.

إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أتمم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فترلنا بخير دار، وإلى خير جار، آمناً على ديننا ولم نخش منه ظملاً. فلما رأت قريش أننا قد أصبنا داراً وأمناً اجتمعوا على أن يبعثوا إليه^(١) فينا، فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم.

فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا، ولبطارقتة^(٢)، فلم يدعوا رجلاً منهم إلا هياؤا له هدية على حدة، قالوا لهما:

ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن استطعنا أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقتة إلا قدموا إليه هديته، وكلموهم، فقالوا لهم:

إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا:

نفعل. ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم^(٣)، فلما أدخلوا عليه هداياه، قالوا له:

(١) أي إلى النجاشي.

(٢) البطريق أو البطريرك هو رئيس الأساقفة، والأسقف العالم النصراني وهو فوق القس والقس غالباً هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة.

(٣) الجلود.

أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم فهم أعلاهم عيناً. فقالت بطارقتة:

صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب، ثم قال:

لا، لعمر الله لا أردتهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي واختاروا جوارى على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أنعمهم^(١) عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقال:
ماذا تقولون؟ فقالوا:

وماذا نقول: نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي:

ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟ فقال جعفر:

(١) نعمة العين أي قربتها، أي أقر أعينكم برجوعهم إليكم.

أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

فقال النجاشي:

فهل معك شيء مما جاء به -وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله- هلم فأتل علي ما جاء به. فقرأ عليه صدراً من:

﴿كَهَيْعَاصَ ۝۱﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝۲ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا ۝۳ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝۴ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝۵ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝۶ يَنْزَكَرِيًّا إِنَّا نَبِئُشْرُكَ يُعَلِّمُهُ يَحْيَىٰ لَمَ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝۷ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝۸ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝۹ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝۱۰ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝۱۱ يَبْيَحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝۱۲ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝۱۳ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝۱۴ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝۱۵ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝۱۶ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝۱۷ قَالَتْ إِنَّيَأُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا ۝۱۸ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

عَلَّمَا زَكِيًّا ﴿١٦﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿١٨﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١٩﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٠﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا
أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢١﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا
جَثِيًّا ﴿٢٢﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ
لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٤﴾ يَتَّخِذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ
بَغِيًّا ﴿٢٥﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٨﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٩﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٠﴾ ﴿١﴾

فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته^(٣)، وبكت أساقفته حتى
اخضلوا مصاحفهم ثم قال:

إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة^(٣) التي جاء بها عيسى، انطلقوا
راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عينا.

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفرًا قرأه بالتأكيد وقد ذكرته ليستشعر
القارئ ذلك الموقف.. ولم أكمل الآيات لأنه لم يقرأ السورة كاملة، ثم إنه من المؤكد
كما يفيد السياق أنه لم يقرأ ما بعدها. لأن الآيات التي تلي هذه الآيات تتحدث عن
وحدانية الله، وعن بشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

(٢) تبلت بالدموع.

(٣) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.

فخرجنا من عنده، وكان أبقي الرجلين فينا^(١) عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم^(٢) إهم يزعمون إن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة:

لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال عمرو بن العاص: والله لأفعلن. فلما كان من الغد دخل عليه فقال:

أيها الملك إهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم رسولاً فاسألهم عنه، فبعث إليهم - ولم يتزل بنا مثلها، فقال بعضهم لبعض:

ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال:

نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه، فدخلوا عليه، وعنده بطارقه، فقال:

ماذا تقول في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر:

نقول عبد الله ورسوله، وكلمته^(٣)، وروحه^(٤)، ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(٥).

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال:

ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد^(٦).

(١) أي أشفق وأرحم.

(٢) أصلهم.

(٣) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.

(٤) روح الله، مثل قولك للكعبة إنها: بيت الله.

(٥) العذراء المنقطعة عن الزواج.

(٦) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.

فتناخرت بطارقتة، فقال:

وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم في أرضي -والسيوم الآمنون- من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم -ثلاثاً- ما أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم -والدبر بلسانهم: الذهب- والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها فاخرجنا من بلادي.

فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به. فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونستغفره للنجاشي، فخرج إليه سائراً.

فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض:

من رجل يخرج فيحضر الواقعة حتى ينظر ما يكون، فقال الزبير - وكان من أحدثهم سناً:

أنا. فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم خرج يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الواقعة، فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي، فجاءنا الزبير يليح علينا بردائه، ويقول: ألا أبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة وأقام من أقام^(١).

(١) سيأتي تخريجه في نهاية الخبر التالي، فهو جزء منه.

هذه هي قصة النجاشي مع المهاجرين فما هي قصة الرشوة التي تحدث عنها ذلك الملك الطيب.. هدية الحبشة للإسلام.. وما معنى قوله: (ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)؟

ذلك أمر حدث بين أنهار الحبشة وأدغالها، تحدثنا عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: (إن أباه كان ملك قومه، وكان له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيتها، فقالوا:

إنا إن قتلنا أب النجاشي وملكنا أخاه، فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك لبقية الحبشة عليهم دهرًا طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه، فقتلوه، وملكوا أخاه، فدخل النجاشي لعمه حتى غلب عليه، فلا يدير أمره غيره، وكان لبيباً، فلما رأت الحبشة مكانه من عمه قالوا: لقد غلب هذا الغلام أمر عمه، فما نأمن من أن يملكه علينا وقد عرف أنا قد قتلنا أباه، فإن فعل لم يدع منا شريفاً إلا قتله، فكلّموه فيه، فلنقتله أو نخرجه من بلادنا فمشوا إليه فقالوا:

قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قد قتلنا أباه، وجعلناك مكانه، وإنا لا نأمن أن تملكه علينا فيقتلنا، فإما أن نقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس، وأقتله اليوم، بل أخرجته من بلادكم، فخرجوا به، فوقفوه بالسوق، فباعوه من تاجر من التجار، فقذفه في سفينة بستمائة درهم أو بسبعمائة درهم.. فانطلق به، فلما كان العشي هاجت سحابة الخريف، فجعل عمه يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته،

ففزعوا إلى ولده، فإذا هم محمقين^(١) ليس في أحد منهم خير، فمرج علي الحبشة أمرهم، فقال بعضهم لبعض:

تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلح أمركم غيره للذي^(٢) بعتم بالغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدر كوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فردوه ف عقدوا عليه تاجه، وأجلسوه على سرير، وملكوه، فقال التاجر:

ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامي، فقالوا:

لا نعطيك، فقال: إذاً والله أكلمه.. فقالوا: وإن.

فمشى إليه فكلمه فقال:

أيها الملك، إني ابتعت غلاماً فقبضوا مني الذي باعوني ثمنه، ثم عدموا علي غلام، فترعوه من يدي، ولم يدرؤا علي مالي، فكان أول ما خبر من صلابة حكمه وعدله أن قال:

لتردون عليه ماله، أو ليجعلن غلامه في يده، فليذهبن به حيث شاء، فقالوا: بل نعطيه ماله. فأعطوه إياها، ولذلك يقول:

ما أخذ الله مني الرشوة فأخذ الرشوة منه حيث رد علي ملكي، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه^(٣).

(١) الحمق: قلة العقل.

(٢) لا يصلح أمركم غير النجاشي الذي بعتم.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣٠١/٢) وأحمد (الفتح الرباني

(٢٢٤/٢٠) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم

سلمة زوج النبي ﷺ. وهذان الإسنادان صحيحان، الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو

بكر تابعي ثقة فقيه عابد (التقريب ٣٩٨/٢) وعروة تابعي معروف.

ذلك هو النجاشي.. وتلك قصة تنويجه.. تنويج العدالة الحبشية..
ذلك الملك الأسمر نال شهادته من السماء بعد أن عدل بين شعبه.. نال
شهادته قبل أن ينصف المسلمين.. لقد قال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً
لا يظلم أحد عنده) قبل أن يصل أصحابه.. قبل أن يسمعوا عنه.. قبل أن
يحكم بالحق. فلتهنأ الحبشة بسبقها.. فلقد أنصفت المسلمين من برائن
مشركي قريش.. وآوهم بعد أن ضاقت عليهم مكة.

في حين كانت يد قريش تمتد في حقد عجيب.. في تسلط حقير
لتكلم الأنوف والأفواه.. وتمنع الهواء.. إنها تحسدهم على أرض يمشون
عليها.. وتحسدهم على حصر يلقون عليه أجسادهم التي نخرها الترحال
والشقاء.. ترى أي قلوب كانت تضمها أجساد المشركين حتى يركضوا
خلف الراحلين.. ويدفعوا الرشوة لطرده هؤلاء الضعفة المساكين.. رجلا
أرسلتهما قريش: عمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.

دعونا نستمع إلى أحدهما: عمرو بن العاص يقص علينا قصته..
وأثرها في نفسه.. بالطبع هي قصة الوجه البشع.. رسول قريش في تلك
الأزمة العصبية على الإسلام.. كيف كان يرى عمرو رحلته.. وماذا
تكشف له بعد أن سمع ورأى ما حدث.

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه:

(لما رأيت جعفرًا وأصحابه آمنين بأرض الحبشة. قلت: لأفعلن بهذا
وأصحابه، فأتيت النجاشي، فقلت:

إذن لعمرو بن العاص. فأذن لي، فدخلت. فقلت:

إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنا والله

إن لمن ترحنا منه وأصحابه، لا أقطع إليك هذه النطفة^(١) أبداً، ولا أحد من أصحابي، فقال:

أين هو؟ فقال عمرو:

إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولاً. فوجدناه قاعداً بين أصحابه، فدعاه، فجاء، فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمرو بن العاص. ونادى خلفي:

ائذن لحزب الله عز وجل، فسمع صوته، فأذن له، فدخل ودخلت، فإذا النجاشي على السرير، وجعلته خلف ظهري، وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي فسكت وسكتنا، وسكت وسكتنا، حتى قلت في نفسي:

العن هذا العبد الحبشي ألا يتكلم.. ثم تكلم، فقال:

نجروا - أي تكلموا. فقلت:

إن ابن عم هذا يزعم إنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنك والله إن لم تقتله لا أقطع إليك هذه النطفة أبداً، أنا ولا أحد من أصحابي. فقال النجاشي:

يا أصحاب عمرو ما تقولون؟ قالوا:

نحن على ما قال عمرو. قال النجاشي:

يا حزب الله نجروا.

فتشهد جعفر - والله إنه لأول يوم سمعت فيه التشهد ليومئذ.

(١) النطفة هي الماء الصافي، وربما أراد بها البحر.

قال جعفر:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال
النحاشي:

فأنت فما تقول. قال جعفر:

أنا على دينه، فرفع يده ثم وضعها. ثم قال النحاشي:

أناموس^١ كناموس موسى، ما يقول في عيسى؟ قال جعفر بن أبي
طالب:

يقول: روح الله وكلمته. فأخذ النحاشي شيئاً من الأرض ثم قال:

ما أخطأ فيه مثل هذه، لولا ملكي لأتبعتمكم. اذهب أنت يا عمرو،
فوالله ما أبالي أن لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبداً، واذهب أنت
يا حزب الله. فأنت آمن، من قتلك قتلته، من سبك غرمته. وقال لآذنه:

انظر هذا فلا تحجبه عني إلا أن أكون مع أهلي، فإن كنت مع أهلي
فأخبره، فإن أبي إلا أن تأذن له فأذن له. فلما كان ذا عشية لقيته^(١) في
السكة، فنظرت خلفه، فلم أرَ خلفه أحد، فأخذت بيده، فقلت:

تعلم أبي أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فغمزني،
وقال:

أنت على هذا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي كأنما شهدوني وإياها،
فما سألوني عن شيء حتى أخذوني فصرعوني، فجعلوا على وجهي قטיפه،
وجعلوا يغمونني^(٢) بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى أنفلت عرياناً،

(١) أي لقي جعفر بن أبي طالب.

(٢) يغطونني.

ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها، فوضعتة على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت:

كذا. كأنها تعجبت مني، وأتيت جعفرأ فدخلت عليه بيته، فلما رأني قال:

ما شأنك؟ قلت:

ما هو إلا أن أتيت أصحابي فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية أخذته من رأسها. فقال جعفر:

انطلق. فلما انتهينا إلى باب النجاشي نادى:

أذن لحزب الله، وجاء آذنه فقال:

إنه مع أهله. فقال جعفر:

استأذن لي عليه، فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل. قال جعفر:

إن عمرو قد ترك دينه واتبع ديني، قال النجاشي:

كلا. قال جعفر:

بلى، فدعا آذنه، فقال:

اذهب إلى عمرو، فقال:

إن هذا يزعم إنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت:

نعم. فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء^(١) حتى كتبت المنديل فلم أدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت.

ثم كنت بعد من الذين اقبلوا في السفن مسلمين^(٢). هذا ما حدث في الحبشة.

أما في مكة

بعيداً عن الحبشة، خلف آلاف الأميال خلف البحار خلف الجبال.. وسط لهب من الكفار كان ﷺ صامداً لا يذوب لا ينثني.. قد أدرك أن قريشاً تعاند.. فلا بد من البحث عن تربة خيراً من هذه التربة.. خيراً من هذه الصخور الصلبة التي لا تنبت إلا القسوة.. لا بد من البحث عن قبائل تحتضن الدعوة.. تساندها وتدافع عنها وتجمع أشاتها.. فدعاها هاربون دائماً.. هائمون دائماً.. وغربتهم موحشة مضنية قد أذابتهم الأحزان.. وطوحتهم الأيام خلف الجبال والبحار وبين اللحدود.. يتلفتون كأنهم قد سرقوا الإيمان سرقة.. يتلفتون خشية أن يؤخذ منهم.. يفرعون عند سماعهم خشف نعال.. أو طرق باب.. يفرعون فزع من حكم عليه بالإعدام.. فهو في زنزاتته ينتظر الجلاد ويرى الجلاد قادماً مع كل حركة مع كل همسة.. يحس الموت يحصي بقية أنفاسه. فهل من مخرج.

(١) أي كتب عمرو بن العاص كل ما سلبه رفاقه المشركون منه ليرده النجاشي إليه منهم.
(٢) إسناده حسن، رواه البزار، كشف الأستار (٢/٢٩٧): حدثنا محمد بن المثني: حدثنا معاذ، حدثنا ابن عون، حدثني عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص قال: وهذا الإسناد جيد. محمد بن المثني بن عبيد المعروف بالزمن ثقة من رجال السنة. التقريب (٢٠/٢٤٠) ومعاذ بن معاذ بن نصر: ثقة متقن، وابن عون اسمه: عبد الله بن عون بن أربطبان المري: ثقة ثبت فاضل. وعمير بن إسحاق تابعي حسن الحديث والكلام فيه لا يضر ولا يزله عن رتبة الحسن.

يقول ربيعة الديلي:

(رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي الجواز يقول:

يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ويدخل في فجاجها^(١) والناس متقصفون^(٢) عليه، فما رأيت أحداً

يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول:

يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا).

نعم.. تفلحوا إنه لا يريد مالكم ولا متاعكم.. ما يريد هو العودة

بهذا القطيع الشارد إلى موارد الماء والكلاً.. بعد أن تاه في صحاري الشرك

الشاسعة.. التي تقطع الأعناق باللهاث خلف سراهما.

لكن قريشاً لا تدعه.. لا ترجمه.. حتى وهو يخاطب من ليس منها لا

تدعه.. يصف ربيعة ما رأى فيقول:

(إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول:

إنه صابئ كاذب. فقلت: من هذا؟ قالوا:

هذا محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت:

من هذا الذي يكذبه. قالوا: عمه أبو لهب^(٣)).

(١) الفحاج الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

(٣) حديث حسن. أي لغيره. لأن الإمام أحمد رواه (الفتح الرباني ٢٠/٢١٦) من طريق

عبد الرحمن ابن أبي الزناد، وقد ساء حفظه عندما قدم بغداد، وربما كان هذا

الحديث منها، وبقية رجاله ثقات، وللحديث شاهد قوي يجعله حسناً. وهو الحديث

التالي.

كأن السورة التي نزلت فيه وفي امرأته أضمرت بيته.. فصار لا يقر له قرار وهو يرى عاره على كل لسان.. وفي كل نظرة لهباً يشويه.. إنه التشفّي ومحاولة إطفاء متأخرة لما قد احترق منه.. إن إسلام المزيد من الناس يعني لأبي لهب المزيد من شتمه والتقرب إلى الله باحتقاره وبغضه.. إنه يمارس التحطيم خلف رسول الله ﷺ حتى ولو فر منه.. يركض خلفه لا يطلب الراحة لنفسه ولا لغيره.. وكيف يجدها وقد حشته تلك الآيات جمرًا.. يقول ربيعة:

(رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول:

يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه أحول ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم^(١)) بل ومن أشرفهم نسباً.. لكن ذلك كله لا يجدي شيئاً في رجل حشرت في رأسه كل رموز التخلف والشرك والهمجية.. لا شيء سوى كتلة متورمة من الأحقاد والضغائن تتدحرج خلف رسول الله ﷺ الذي يتجاهله ويصوب بصره نحو الأمام.. يتبع القبائل كلها.. ويقف أمامها كلها.. يتلمس خيامها في كل سنة تنصب فيه تلك الخيام.. يدلف كل خباء.. يبحث فيه عن قلوب تتلمظ فيها الفطرة والعطش.. فيصغي إليها من سحاب التوحيد العذب والحياة الصافية مع الله ما يرونها ويذهب عطشها.

كان يغشى أسواقهم التي يقيمونها كل عام.. للتجارة والشعر

(١) حديث حسن، رواه أحمد (المصدر السابق ٢٠/٢١٧)، حدثنا مصعب الزبير، وهو عالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الداروردي وحديثه هنا حسن لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيه، عن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. انظر التهذيب (٤/٢٠). وهو شاهد لما قبله.

والأدب.. يغشاها ينثر في دروها عبر الإيمان ويبحث عن أنصار.. وكان بصحبته رفيق طفولته.. وصديق نبوته أبو بكر الصديق.. وشاب كله حياة.. هو ابن أخيه علي بن أبي طالب الذي يقول:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه)^(١).

لقد (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤوه إلى قومهم حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته، ولهم الجنة)^(٢).

لقد (لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، عكاظ ومنازلهم بمخى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)^(٣) عشر سنوات يتلطف مع (بني حنيفة) و(كندة وكلب) يذهب إلى (بني عبس وهمدان) وله مع (بني عامر بن صعصعة) لقاءات.. عشر سنوات من الصبر والمكابدة (يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضياء)^(٤) ذو جمّة^(٥)، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول:

يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

(١) قطعة من حديث طويل صحيح سيمر معنا إن شاء الله. عند الحديث عن لقاء الأنصار، ومجلس المفروق.

(٢) حديث حسن بما بعده لأنه من طريق: عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وهو رجل صالح عابد صدوق في نفسه، لكن في حديثه بعض الاضطراب، لكن شهد له ما بعده وقد روى هذا الحديث الطبراني وأبو نعيم (٢٩٢).

(٣) إسناده صحيح وسيمر معنا كاملاً عند الحديث عن لقاء الأنصار إن شاء الله.

(٤) حسن وجميل.

(٥) ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر من خلفه:

يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه^(١).

كانت أخباره تنتقل في كل اتجاه من جزيرة العرب فتصادف هذه المرة قلباً لرجل من غفار:

إسلام أبي ذر الغفاري

لقد تعب أبو لهب من الرخص خلف رسول الله ﷺ وأتعب يديه وتعبت زوجته من هذا التراب ينثرونه فوق رأس رسول الله ﷺ.. والشوك يغرزونه في طريقه.. لقد تعب أبو لهب وأتعب معه رسول الله ﷺ.. لكن تلك السنوات من الصبر والعرق كانت كفيلة بانتشار عبير الإسلام فأخبار رسول الله ﷺ تطايرت هنا وهناك.. فصادت قلوباً مفتوحة..

(١) إسناده قوي: رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢١٧) فقال: حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا ابن أبي زائدة قال. قال ابن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس، قال: سمعت ربيعة الديلي يقول: وقال أحمد أيضاً: حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثني سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة الديلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ يطوف على الناس بمحبي...

من هذين الطريقتين طريق ضعيف، وهو الإسناد الأول، لأنه من رواية حسين بن عبد الله ابن عبيد بن عباس، قال الحافظ في التقريب (١/١٧٦): ضعيف لكن يشهد له الطريق الثاني فهو به قوي، فشيخ أحمد: سعيد بن أبي الربيع السمان صدوق، قال ابن حبان: يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه. وهذه ليست منها. انظر ذيل الكاشف (١١٨) وشيخه سعيد بن سلمة صدوق أيضاً. انظر التهذيب (٢/٤١) وشيخه محمد بن المنكدر ثقة فاضل قاله في التقريب (٢/٢١٠).

نفوساً فسيحة.. فتعلقت بما سمعت وعشقتة.. وأتعبت مطاياها في البحث عنه.. قلب أبي ذر من تلك القلوب.. هاهو يحدث من حوله عن ذلك الحب.. عن ذلك الشوق فيقول:

(كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج مكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلمه، وائتني بخبره.

فانطلق، فلقبه، ثم رجع، فقلت:

ما عندك؟ فقال:

والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له:

لم تشفني من الخير. فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم.

قال: فانطلق إلى المنزل. فانطلقت معه لا يسألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال:

أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قلت:

لا. قال:

انطلق معي. فقال علي:

ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له:

إن كتمت علي أخبرتك. قال:

فإني أفعل. قلت له:

بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه،
فرجع ولم يشفني من الخير، فأردت أن ألقاه، فقال علي بن أبي طالب:

أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن
رأيت أحداً أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت،
فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له:

اعرض علي الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي:

يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل.

فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى
المسجد، وقريش فيه. فقال أبو ذر:

يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله فقالوا:

قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس،
فأكب علي، ثم أقبل عليهم، فقال:

ويلكم، تقتلون رجلاً من غفار، ومتحركم وممرمك على غفار.

فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس.

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع مثل ما صنع بالأمس، وأدركني
العباس، فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس^(١).

كان الشرك رعباً تطوف أشباحه في دروب المسلمين فترقب أبواهم
وأفواهم.. علي بن أبي طالب لا يستطيع التحدث بالأمر خوفاً على

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

رسول الله ﷺ.. وأبو ذر كذلك.. ولما سأل علي ضيفه سؤالاً عادياً..
كان الجواب غير عادي.. لقد سأله علي -رضي الله عنه- فقال: (ألا
تحدثني ما الذي أقدمك. قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني
فعلت. ففعل، فأخبره)^(١).

إن على الكلمات رقيباً.. وما لم تثق بمحدثك فإن الكلمات مجازفة
بالحياة.. والصمت أسلم.. وبعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئاً غير
الشهادتين.. لم يخبره عن أسلم حتى أنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام،
أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع) ومن المعروف أن هناك الكثير ممن أسلم
قبله.. ولم يعده النبي ﷺ بنصر في الدنيا.. بل إنه لم يتدخل إطلاقاً عندما
ضربه كفار قريش وكاد أن يموت بين أيديهم.. لقد أشار عليه ﷺ بالكتمان
وأمره بالرجوع إلى أهله.. لكن حماس أبي ذر طغى فنال من قريش ما نال.

أبو بكر الصديق يناله العذاب أيضاً.. يؤذونه ويشتمونه ويتعرضون له
في الطرقات حتى أصبحت مكة أضيق من موضع قدميه.. عندها قرر الهجرة
إلى أرض يجد فيها شمساً وهواء وعبادة.. بعيداً عن أرجاس الطغاة وسياطهم..

أبوبكر يهاجر

تقول عائشة بنت الصديق أبي بكر رضي الله عنهم: لم أعقل أبوي
قط إلا وهما يدينان الدين.. ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ
طرفي النهار.. بكرة وعشية.. فلما ابتلي المسلمون.. خرج أبو بكر
مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد.. لقيه ابن الدغنة -وهو
سيد القارة- فقال:

(١) جزء من حديث صحيح. رواه البخاري وهو الحديث السابق مع اختلاف بسيط في
الألفاظ.

(أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر:

أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج، ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا جار لك، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش. فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج، أٌتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة:

مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذ عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا:

إننا كنا قد أجزنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإننا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناؤنا فأنه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك،

فإننا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن
الدغنة إلى أبي بكر، فقال:

قد علمت الذي عاقدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع
إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أي أُخفرتُ في رجل عقدت له.
فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل^(١).
فقام ابن الدغنة، فقال:

(يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جوارِي، فشأنكم
بصاحبكم)^(٢) وكانت قريش وسفهاؤها بالانتظار، ولن يشك أحد بهجوم
أحد هؤلاء المجرمين فيضربه رضي الله عنه، أو يدميه، أو يثو في وجهه
التراب، فليس له من نصير سوى الله، وسيتحمل في سبيله كل ما يصادفه،
أما رفاقه فشاردون في الشعاب والأودية، هاربون من بطش قريش المفرع.
وأما نبههم فقد نرف دمه وتفاقم جرحه وأله.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة.. أيام مكة الملتهبة.. (اشتكى رسول الله ﷺ..
فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: إني لأرجو أن يكون
شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً)^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ١٦/٢) حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن
عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٥٢٢/٤) من طريق أبي أسامة، حدثني
سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندب يقول: رُمي رسول الله ﷺ بحجر في
إصبه فقال:.. وهذا الإسناد صحيح. الأسود تابعي ثقة. انظر التقريب (٧٦/١) وسفيان

ولم تكن هذه المرأة الجاهلة ترمي إلى أكثر من التشفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه، فقال:

(هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فترلت^(١): ﴿وَالصُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا آيَاتِنَا فَلَا تَنْهَرُ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ .

أيها النبي النازف، المتهم.. ها هو العظيم يقسم أنه ما تركك، وما تخلى عن نصرتك.. فلا تستمع لهؤلاء المرتكسين. لديك مهمة فأدها، وجزاؤك أبداً ليس في الدنيا.. إنه هناك في الجنة.. في الفردوس ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾: لكن وأنت في زحمة الأذى وتداعي المصائب.. ومحاولات الإحباط.. وأنت في هذا كله تذكر نعمة الله عليك.. وإياك إياك أن تنسى ذلك المنكسر.. الذي تمتد يده.. تحوم عيناه يبحث عن أبيه.. فيجيبه اليتيم بالنحيب.. كن له أباً.. قد كنت يتيماً فتذكر مرارة اليتيم.. وكنت مسكيناً فلا تنهر مسكيناً.. ولا ترد يده.. ولا تعرض عنه..

هو ابن سعيد الثوري الإمام الثقة الحافظ المعروف، وتلميذه صرح بالسماع منه واسمه: حماد بن أسامة، وهو ثقة ثبت، ولم يدلس هنا.

(١) إسناده صحيح، رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٥٢٢/٤) من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندب يقول: رُمِيَ رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال:.. وهذا الإسناد صحيح. الأسود تابعي ثقة. انظر التقريب (٧٦/١) وسفيان هو ابن سعيد الثوري الإمام الثقة الحافظ المعروف، وتلميذه صرح بالسماع منه واسمه: حماد بن أسامة، وهو ثقة ثبت، ولم يدلس هنا.

حتى ولو كنت في درب لزب بالشواغل.. التفت إليه وواسه.. كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير يحتاج إلى مواساة فيؤمر بالمواساة للأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب.. وإن كان نبياً.. لقد نزلت كلمات عتاب أخرى لرسول الله ﷺ بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين.. فما الذي حدث عندما:

عبس وتولى

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَتَذَكَّرُ ﴿٣﴾ أَوْ يُدْرِكُهُ الْذِكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾.

عتاب شديد أنزله الله سبحانه.. ووجهه إلى نبيه.. ولو لم يكن محمد ﷺ نبياً لأخفى ذلك العتاب ومحاه.. ولم يطلع عليه أحداً.. لكنها النبوة.. لكنه الأمين.. أما قصة ذلك العتاب فهي أن مسلماً مسكيناً ضرير البصر اسمه: عبد الله بن أم مكتوم (أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني -وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين-، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقول: لا) (١) فأنزل الله آياته تصحح الخطأ وتجبر الكسر.. ترى

(١) إسناده صحيح، رواه ابن جرير (٣٢/٣٠)، والواحدي (٢٩٧) والحاكم والترمذي وأبو يعلى، من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان، انظر التهذيب (٢١٣/١١) و (٩٨/٤) وهشام ووالده ثقتان معروفان، فالسند صحيح.

كم يساوي ذلك الأعمى المسكين عند الله.. لقد استحق نزول آيات الجبار تعاتب نبيه فيه.. إنه في ميزان الإسلام: رجل مسلم.. اختار الله ورفض الأوثان.. ولن يفرق الإسلام يوماً بين مسكين وثري.. فالجميع بنيان متراص وطاقات متناغمة.. تسير بالإنسانية نحو جمال الحياة وصفائها.. وكما أن لهؤلاء المشركين حق الدعوة والتبشير.. فإن لهذا المسكين ولكل المساكين حقوقاً.. لقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه.. فهو يذرع الأرض امتثالاً ويقول: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمّتي مسكيناً، واحشني في زمرة المساكين)^(١). إنه يقول:

(أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد)^(٢)، ويقول ﷺ: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)^(٣)، (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)^(٤)، يعني متجاورين فأين سيكون جار النبي ﷺ إن لم يكن في الفردوس الأعلى منها.. وذلك لا يعني إغفال الأغنياء والسادة المطاعين.. فإن إسلامهم نصر عظيم.. والحياة تقوم على تكاتف الفقير مع الغني.. لكن في أحوال السادة نزوع إلى الاحتفاظ بما حولهم.. فالجديد وإن كان صواباً يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم.. ويسلب ما بأيديهم.. ويغير مواقعهم على الأرض.. فهم على بابه مترددون.. أولئك إرادتهم كالأوراق تنتظر الرياح.. أحد هؤلاء هو:

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (٣٩٨/١).

(٢) إسناده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه رواه: البيهقي (١٩٨/٢) والحاكم

(٢/٥٠٦) عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السخيتاني، عن عكرمة عن ابن عباس،

وهؤلاء الرواة ثقات أئمة، معمر ثقة ثبت حافظ. التقريب (٢/٢٦٦) وأيوب بن أبي تميمة

إمام ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، انظر التقريب (١/٨٩).

(٣) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١١) (٢/٢٣).

(٤) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١١) (٢/٢٣).

الوليد بن المغيرة

مؤمن فكافر

(فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال الوليد:

لم؟ قال أبو جهل:

ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال الوليد:

قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال أبو جهل:

فقل فيه قولاً، يبلغ قومك أنك منكر له. قال الوليد:

وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل:

لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال:

فدعني أفكر فيه. فلما فكر. قال الوليد:

هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره. فترلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٨﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٩﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَنْ لَابِنَاتِنَا عِنِيدًا ﴿٢١﴾ سَأَرْهَقُهُمْ ضَعُودًا ﴿٢٢﴾ إِنَّكُمْ فِكْرٌ وَقَدَرٌ ﴿٢٣﴾ فَتَقِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٨﴾ فَقَالَ ﴿٢٩﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٣٠﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٣١﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا سَقَرُ

﴿٧﴾ لَا يُقِي وَلَا نَذْرٌ ﴿٨﴾ لَوَاعَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٢٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٢٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٢٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَبْقُومَ أَوْ يَتَّخِرَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾

إذا كان هذا وصفهم للقرآن وإنه ليس من كلام البشر.. ولا من كلام الجن فماذا يريدون إلا العناد.. ومعه شيء آخر هو العناد.. لذلك فقد سلكوا طرقاً عديدة.. يحاولون النفاذ من أحدها نحو نصر ما، وكان أحد هذه الطرق المتلوية: طلب المعجزات.. اجتمعوا يوماً حوله ﷺ ثم طالبوه بأن يقدم لهم معجزة.. فأراهم:

انشقاق القمر

يا له من طلب غريب.. لا يراد منه سوى التعجيز ليجدوا لأنفسهم عذراً للتكذيب.. ومع ذلك فقد تحققت المعجزة.. وأراها الله ورسوله ﷺ لهؤلاء فهل غير ذلك من موقفهم؟

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

(سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، مرتين) (٢).

(١) إسناده صحيح، رواه إسحاق بن راهوية، ومن طريقه رواه: البيهقي (١٩٨/٢) والحاكم (٥٠٦/٢) عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السخيتاني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة ثقات أئمة، معمر ثقة ثبت حافظ. التقريب (٢٦٦/٢) وأيوب بن أبي تيمة إمام ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، انظر التقريب (٨٩/١).

(٢) متفق عليه.

(فقال كفار قريش أهل مكة:

هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به.

فسئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا^(١). وقالوا هم أيضاً: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)^(٢). وكان الناس ينظرون إليه من مواقع مختلفة، فهناك من رأى (الجلب من بين فرجتي القمر)^(٣)، وهناك من رأى (فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه)^(٤). وهناك من رأى (فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل)^(٥).

وسبب هذا الاختلاف في الوصف.. هو الاختلاف في الأماكن التي يقفون فيها أثناء الحدث.. فهذا أمام جبل.. وهذا خلف جبل.. وذاك هناك و.. ولا شك أن للمسافرين الذين قدموا وصفاً آخر.. لكنهم أجمعوا على أن الشق قد حدث.. وخسرت قريش أمام هذه المعجزة.. لتلجأ للاهتمام مرة أخرى فتقول كما قال الوليد عن القرآن: سحر

(١) رواه أبو داود الطيالسي (١٢٣/٢) حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله:..

ورواه البيهقي واللفظ له من طريق أبي داود وهشيم. ولفظ هشيم هو هذا، وهذا رجال إسناده ثقات، أبو الضحى تابعي ثقة اسمه مسلم بن صبيح، انظر التهذيب (١٣٢/٢٠) والمغيرة هو ابن مقسم ثقة متقن لكنه ربما دلس، لكنه توبع تابعه إمام مثله تماماً هو الأعمش عند أبي نعيم. انظر سيرة ابن كثير (١١٩/٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر تخریج الحديث الأول فهو من طريقه.

(٤) رواه الإمام أحمد وابن جرير: عن سماك عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود، وهو حسن بالشواهد.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

مستمر.. سحر ذاهب ومضمحل. وفي ذلك أنزل الله سبحانه: ﴿أَقْرَبَ
السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خَشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ
﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾. (١). وبعد هذا التأكيد
وهذه المكابرة العارية المخيبة للآمال لم يترك الله نبيه ﷺ دون:

مواصلة

بعد هذا التأكيد المفضوح.. يقص سبحانه على نبيه ﷺ قصصاً
ماضية.. لأقوام قد مرت ودمرت.. يا محمد لم يكن قومك أول من كذب
وعاند.. فلقد: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ ثُمَّ
يقص عليه كيف شرقوا بالماء وغرقوا.. كذلك ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ﴿٣﴾ وَ ﴿كَذَّبَتْ
ثَمُودٌ ﴿٤﴾ ومثلهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٥﴾ ويختتم هؤلاء الطغاة بأعتاهم
إنهم آل فرعون: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٦﴾.

(١) ذكر الدكتور زغلول النجار أحد كبار علماء الجيولوجيا في العالم معجزة شق القمر وأنها
كانت سببا في إسلام داوسي موسى بيسكوك في حوار مع علماء ناسا الذين ذكروا
اكتشافهم لهذه الحقيقة على سطح القمر.. حقيقة انشقاق القمر وأن آثارها لا زالت باقية
حتى اليوم.

(٢) سورة القمر: الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٢٣.

(٤) سورة القمر: الآية ٢٣.

(٥) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٦) سورة القمر: الآية ٤٢.

ثم يتوجه السياق من الماضي المدفون إلى الحاضر الحي.. إلى قومك أهل مكة المشركين وإلى غيرهم ما دامت السماوات والأرض: ﴿أَكْفَاؤُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ (١). لكن المشركين يدفنون الحق في أعماقهم.. ويعترفون به لكنه اعتراف كـ:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

حيث كان أحد دهاة العرب ودهاة الطائف وهو: المغيرة بن شعبة ولأول مرة يعرف صدقه ﷺ.. لكن على لسان من؟ الإجابة مدهشة.. لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل. يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ. قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل علي فقال:

فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي. قالوا:

(١) سورة القمر: الآيات ٤٣-٥٥.

فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا:

فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا:

فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا:

فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت
الركب، قالوا: منا نبي. والله لا أفعل^(١). طاغوت مكة لا ينكر النبوة..
لكنه يرفضها لأنها لم تكن في بيته يرفضها. لأن محمداً ﷺ ليس من أهل
بيته.. إن أبا جهل يرفض أن يكون تابعاً لمنافسه في الرياسة والشرف..
يستحث قريشاً لمحاربة محمد ﷺ وصحبه لا لمصلحة قريش.. لا ولا حباً
في قومه.. إنما حباً لنفسه.. فلتذهب مكة وقريش للحجيم من أجل إرضاء
غروره.. هذا هو منطق الطغاة.. يخفونه بألستهم فتفضحه أعمالهم.. ولم
تقتصر التهم على تهمتي الكذب والسحر فـ:

الجنون تهمة جديدة

لابد من إصاق تهمة جديدة تبعد الناس عنه.. لا سيما عندما يسيل
الحجيج نحو مكة.. ولا شيء يفر الناس منه مثلما يفرون من الجنون
والمجنون.. فليكن محمد مجنوناً.. قالتها قريش دون حياء.. الأمين صبروه
مجنوناً.. وما يأتي به من آيات كريمة مجرد هراء.. يهذي به بلا وعي..

(١) حديث حسن. رواه البيهقي (٢/٢٠٧) من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار،
حدثنا يونس، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، وهذا الإسناد جيد وأحمد
بن عبد الجبار سماعه للسيرة صحيح، وهشام بن سعد حسن الحديث. انظر التهذيب
(٣٩/١١). وقد قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان
يرسل لكن مع هذا الاحتمال فالحديث له من الشواهد ما يقويه عند البيهقي أيضاً،
طريقان مرسلان، أحدهما عن الزهري والآخر عن أبي إسحاق.

فرية صدَّقها الأغبياء.. وصدَّقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضباب كثيف من التهم والتحذير قبل أن يلقوه.. ويسمعوا منه.. أحد هؤلاء العقلاء رجل من (أزدشنوءة).. اسمه (ضماد) قدم مكة.. وكان (يرقي من هذه الرياح، فسمع سفهاً من سفهاء الناس يقولون: إن محمداً مجنون.. فقال ضماد:

أتى هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي، فلقيت محمداً ﷺ، فقلت: إني أركي من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهلم. فقال محمد ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فقال ضماد:

والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ، وقال له: وعلى قومك. فقال ضماد: وعلى قومي^(١). كلمات حق كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض.. وكشفت له أي عملاق صادق مائل أمامه.. ولقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطن قدم بمكة.. ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

وحيد في حرة يثرب

لم يكن ضماد هو الوafd الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ.. فهناك الكثير.. الكثير.. منهم من منعه الخوف من التّفوّه فاكتفى بنظرات كلها حسرة.. وعاد بصمت إلى موطنه.. ومنهم من كشف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ.. ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه.. لكن هناك من استمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ.. فلما هم أن يبوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسه الحارة جمرأ.. حمماً بين أضلاعه.. عندما امتدت يد التسلط تحشو فمه بالتراب وتلجمه بالصمت.. فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.. عندها تحول الحب شلال نور يزيح تراب الأصنام ويحطم قبضة المتسلط كان ذلك لما (قدم أبو الحيسر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال ﷺ لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟ قال ﷺ:

أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ -وكان غلاماً حدثاً-: أي قوم: هذا والله خير مما جئتم به. فأخذ أبو الحيسر «أنس بن رافع» حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة (بعث) بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند

موته، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ^(١).

تتحول الأشياء في أيدي المتسلطين إلى عصي وسياط حتى التراب استعملوه لتكميم الأفواه.. وما لهم لا يفعلون وهم يرون أبا لهب يتعقب ابن أخيه يسفي عليه التراب.. يقهره ويكذبه.. ويأمر الناس أن يقهروه ويكذبوه.. كأنه عار يريد التخلص منه.. فكيف بشاب مستضعف كإياس.. غيرته كلمات الحق.. فطواها وكتمها في نفسه.. ولما حل بحرة يثرب تماهت غربته في غوره.. تلتحم به ويلتحم بها.. ولما مد الموت يده إليه أخرج تلك الكلمات لمن حوله بعد أن هم بالرحيل.. وهَمَّ الخوف أيضاً بالرحيل.. وما كان يقوى على إظهارها عندما كان هائماً بينهم.. وما كانوا ليطيعوه. يا لغربة الموحدين.. يا لخالهم.. لكن الله معهم يدافع عنه دائماً كما دافع عن:

سعد والفقراء

فقد رفض سبحانه ذلك التعسف الطاغوتي.. وتلك الأوامر العفنة التي انطلقت من أفواههم... يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرده هؤلاء

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٣/٢)، حدثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن محمود بن لبيد. فابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه، والحسين حسن الحديث قاله أبو داود، فقول الحافظ عنه في التقريب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح، انظر التهذيب (٣٨١/٢)، بل لقد قال الذهبي في الكاشف (٢٣٧/١): ثقة. ومحمود بن لبيد صحابي صغير روايته عن الصحابة، وفي الحديث تصريح بالسماع ممن حضر الحادثة.

عنك فلا يجترئون علينا - وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ، ما شاء الله، وحدث به نفسه^(١)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوفَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾^(٢).

لقد حار هؤلاء في أنفسهم وتخطوا في مطالبهم.. فكل شيء حولهم يدينهم ويلوي أعناقهم.. هاهم في تخطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ):

ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، نؤمن بك. قال رسول الله ﷺ: وتفعلون؟ قالوا:

نعم. فدعا، فأناه جبريل فقال:

إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول:

إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. قال ﷺ: بل باب التوبة والرحمة^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وفضائل الصحابة والبيهقي واللفظ له (٣٥٣/١).

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٥٢، ٥٣.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٢) وحدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، وعبد الرحمن هو ابن مهدي

يا لرحمته ﷺ بهؤلاء الذين آذوه وقهروه وأذلوه.. إنه يطلب لهم الرحمة والتوبة.. فهو لم يبعث جباراً منتقماً.. إنه كما قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)^(١) هذا هو محمد ﷺ.. أما أولئك.. فقد أنزل الله على نبيه سورة الأنعام وفيها يصفهم.. يفصح عن حقيقتهم التي ارتضوها لأنفسهم.. إنه العناد والعناد فقط فلا الآيات ولا المعجزات ولا غيرها تقنعهم.. يقول سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦٣﴾

أما قومك يا محمد: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٦٨﴾

الإمام الحافظ الثقة الثبت العارف بالرجال والحديث. انظر التقريب (٤٣٩/١) والتهذيب (٢٧٩/٦) وسلمة بن كهيل تابعي ثقة (التقريب ٣١٨/١) وشيخه أيضاً ثقة، واسمه الصحيح: عمران بن الحارث السلمي، أبو الحكم الكوفي وهو من رجال مسلم (التقريب ٨٢/٢) والتهذيب (١٢٤/٨).

(١) حديث صحيح. انظر (٢٨٤/٢) من صحيح الجامع الصغير.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٤—٦.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧—١١.

ثم يخبره سبحانه مرة أخرى عن حقيقة هؤلاء مسلياً نبيه.. طارداً ذلك الوجوم الذي يخيم عليه من تكذيب قومه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّكَ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَحْجِدُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۗ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٠﴾ (١). ولو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى لسلب منهم الحرية والإرادة.. كما سلبها من سائر المخلوقات.. لكنه فضلهم وكرمهم بهذه الإرادة فهم يختارون طريقهم.. وسيحاسبون عليه.. لأنهم حملوا الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال.. وهي الإرادة.. هذه الحيوانات ستصير يوم القيامة تراباً لأنها مسلوبة الإرادة.. إنها جزء من هذا الكون المسخر للإنسان.. المعجون لابن آدم يتصرف فيه كيف يشاء.. ثم يحاسب في نهاية المطاف على تصرفه ذلك.. وهنا تنتصب الحقيقة ماثلة أمام الجميع: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢﴾

مجااعة في مكة

حالة واحدة تخضع فيها قريش للحق.. هي البطش.. ونزع الحرية

(١) سورة الأنعام: الآيات ٣٣-٣٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

والاختيار منهم.. عندما يذوقون العذاب تتوه منهم إرادتهم.. عندها ينحنون للحق معلنين التوبة والإنابة. يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

لقد حدث ذلك من قريش كما أخبر سبحانه.. تنازلوا عن كل شيء.. ودسوا جباههم في التراب وانحنوا جوعاً وخوفاً وهزلاً.. حدث ذلك عندما دعا رسول الله ﷺ قريشاً إلى الإسلام فابطأوا عليه، فقال ﷺ:

اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف (٢). فأخذتهم سنة فحصت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع. قال الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٣).

فدعوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ هُمْ لَذَكِرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنْ كُنَّا عَائِدُونَ﴾ (٤).

[أتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت.. فاستسقى فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم]. ثم عادوا في كفرهم (٥).

ما أسرع نسيان قريش.. ويجهم أما تعلقوا بأستار الكعبة يوم ولد

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٠.

(٢) أي السبع العجاف التي مرت بقوم يوسف.

(٣) سورة الدخان: ١٠-١١.

(٤) سورة الدخان: ١٢-١٥.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ١٨٠٩/٤ و ١٨٢٣.

رسول الله ﷺ هرباً من الفيل الحبشي وأصحابه.. ولتنشيط ذاكرتهم تنزل كلمات الله سبحانه.. تنزل سورة الفيل تهز قريش وترفع رأسها نحو السماء عليها تفيق وتدرك ما يحدث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (١).

وتنزل سورة أخرى على محمد ﷺ.. تهز ذاكرتهم وسباتهم مرة أخرى: ﴿لَا يَلْفُفُ قَرِيشٌ ﴿١﴾ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَاءَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ (٢).

لكنهم لا يفيقون.. إهم خشب مسندة.. حجارة تندرج فتحطم ما تحتمها.. إن كل محاولة للتذكير تعقبها سطوة من قريش وتنكيل.. والنتيجة جراح ودموع وأنين تضج بها دور المستضعفين.. ما الذي يرضي هؤلاء.. وماذا يريدون.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ (٣).

قريش أهل فصاحة ومعرفة بلغة القرآن أكثر من غيرهم ممن جاءوا بعدهم.. لقد سحرهم هذا القرآن ببلاغته وبيانه.. واعترفوا بعجزهم عن أن يأتوا بمثله.. ورفضوا أن يكون هذا الكلام صادراً من بشر.. وماذا بعد؟ لا شيء.. إصرار على الموقف.. وحسد لمن اختاره الله نبياً.. ومحاوله

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

لتعجيزه ﷺ بكثرة الطلبات.. لكن الله سبحانه يترل آياته قاطعاً دابر
العبث القرشي.. فالإيمان لا يحتاج إلى تلك المطالب الساذجة.. إنه فقط
يحتاج قلباً مفتوحاً وفكراً سليماً.

الرسول ﷺ والتعجيز

يقول سبحانه عن مطالب هؤلاء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ عَلَىٰ أَن
يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١﴾.

ثم يذكر سبحانه مطالبهم لنبيه ﷺ لكي يؤمنوا: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١١٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١٧﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١١٨﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿١١٩﴾.

لكن الله يبين حقيقة رسوله ﷺ لهؤلاء الهمج.. إنه مجرد رسول.. بشر..
وليس عليه سوى البلاغ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢﴾.

فتى قريش لا يئأس

مع كل هذا التعنت.. ومحاولات الهروب من حصار الحقيقة يستمر ﷺ
في دعوته بلا يأس.. بلا كلل. كلما ضاقت به مكة تلمس الأتباع
حوها.. لقد (لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في المواسم -محنة-
عكاظ - ومنازلهم بمعنى: من يؤوييني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مصر أو اليمن، فيأتيه قومه، أو ذوو رحمه، فيقولون:

احذر فتى قريش لا يفتنك.

يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم^(١) والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب وهناك الساخر.. وهناك المشفق.. وهناك من قيده الخوف فهو يشير بقلبه.. وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ.. فقد عاد إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه.. وينام.. ومع كل صباح يعود من جديد إلى التبشير بدعوته.. لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله.. وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له يحملون الأذى بأيديهم وألسنتهم.. يُسْمَعُونَهُ ما يكره.. ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبوه.. فأصبحوا يقولون: (مذمماً) لا (محمداً) لكن ذلك لا يضره فالله يصرف عنه الأذى واللعن. يقول ﷺ:

(انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذمماً» ويلعنون «مذمماً»، وأنا محمد)^(٢).

ماذا لدى قريش من فكر.. ماذا لديها من عقيدة حتى تعاند كل هذا العناد.. ليس لديها سوى أكوام من الحجارة نصبتها فوق الكعبة.. ثم بايعتها على الألوهية.. فهل ستفيق قريش من غيبوتها إذا رأها نثاراً حول الكعبة؟ هل ستسأل نفسها: كيف تتحطم الآلهة أم أنها ستقول:

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حدث صحيح. رواه البخاري كتاب المناقب.

من حطم الأصنام؟

قريش تسأل غاضبة ولدى فتى الإسلام علي بن أبي طالب الجواب:
(انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس،
وصعد على منكبي، فذهبت لأهض به، فرأى مني ضعفاً، فترل وجلس نبي
الله ﷺ، وقال:

اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه، فنهض بي، فإنه يخيل إلي لو
شئت لنتل أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه ثمال صفر، أو
نحاس، فجعلت أزاوله^(١) عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى
إذا استمكنت منه قال رسول الله ﷺ: اقذف به.. فكدت به، فتكسر كما
تكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، توارينا
باليوت خشية أن يلقانا أحد من الناس^(٢).

ولما استيقظت قريش وجدت آلهتها مسحوقة.. كالرمل كالرماد..
هل قالت قريش لنفسها: ما هذه الآلهة التي لا تستطيع الدفاع عن
نفسها.. كيف نعبد رملاً.. نعبد رماداً؟ لم نتلق رداً من قريش.. لكنه
الغضب لا شك.. لا بد أنهم أشاروا يتهمون محمداً ﷺ وأتباعه.. لقد

(١) أي باشره بيده ومارسه.

(٢) سنده جديد رواه أحمد (٢٢٤/٢٠) الفتح الرباني، حدثنا أسباط بن محمد حدثنا نعيم بن
حكيم عن أبي مریم عن علي، أسباط بن محمد بن عبد الرحمن القرشي بالولاء، وهو ثقة،
لكنه ضعيف في سفیان الثوري وروايته هذه ليست عن الثوري، أما شيخه نعيم بن حكيم
فهو حسن الحديث إذا لم يخالف، انظر التقريب (٥٣/١) و (٣٠٥/٢) وأبو مریم قال
النسائي: أبو الحنفی ثقة، وإن كان الثقفی فقد قال الذهبي في الكاشف: ثقة، والحديث
رواه البزار وأبو يعلى. ثم وجدت أن أبا مریم ليس بالحنفي ولا بالثقفی بل هو الأسدي
كما جاء عند الحاكم (٥/٢) فصح بذلك السند لأنه تابعي ثقة، وثقه العجلي والدارقطني
وابن حبان (التهذيب ٢٢١/٥).

التهبت قريش واحمر حديدها وتوهج.. فالحدث لا يسكت عليه.. والقرار القادم لا بد أن يكون حاسماً ونهائياً لإيقاف سب الآلهة وتسفيه الأحلام.. وتحطيم الأصنام. اجتمعت قريش في مؤتمر محموم قرر فيه الجميع واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عنهم وعن أصنامهم هو بإزالة هذا المد الإسلامي لا بإيقافه.. ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على قائده وقتله.. فليقتل محمد حتى يتلاشى دينه ويشتت أصحابه.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة.. لقتل آخر رسل الله ومنقذ البشرية الأعظم.. (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله. فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك. فقال رسول الله ﷺ: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه، قالوا: هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم حصباً، وقال: شاهت الوجوه^(١)). وغادر المسجد.. فأفاقوا.. تحسسوا فإذا التراب يحشر أعينهم

(١) إسناده حسن رواه أحمد (٣٦٨/١) حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاهدوا.. وهذا الإسناد رجاله ثقات أثبات، إلا عبد الله بن عثمان بن خثيم، وحديثه لا يترل عن رتبة الحسن، فقد وثقه أئمة كبار، وليس في ترجمته جرح مفسر فالسند حسن. انظر التقريب (٤٢٢/١) فقد قال الحافظ: صدوق. وانظر كذلك لك التهذيب (٣١٤/٥).

وأونوفهم.. يغطي وجوههم عار لا يغسل إلا بالدماء.. عار ملاً خبره أرجاء مكة.. محاولة اغتيال رسول الله الفاشلة أثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب وكان أشدهم رأسهم أبو طالب.. فقررُوا حماية رسول الله ﷺ من قريش والدفاع عنه.. فهو لا يزال من أبناء عبد المطلب زعيم قريش.. ولم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى والعذاب من قريش.. فكيف تقرر قريش قتله.. ذلك أمر مستحيل.. إن على قريش أن تزهق أرواح بني عبد المطلب فرداً فرداً قبل أن تصل إلى محمد ﷺ.. لذلك فقد أعرضت عن هذه المؤامرة مؤقتاً لكي تمارس قسوة لا تقل عن الاغتيال فماذا فعلت قريش.

حصار جماعي في الشعب

قرر طواغيت قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي على المؤمنين ومن يقف معهم من أقاربهم.. فلا مصاهرة ولا بيع ولا شراء معهم حتى يتم تسليم محمد عليه الصلاة والسلام إليهم لقتله والتخلص منه.. لذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته إلى مكان يقال له: شعب أبي طالب أو (المحصب) حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ.. وعن هذا الحصار المرير الذي لا أدري كم من الأعوام استمر، يقول ﷺ وهو يواعد أصحابه في ذلك المكان الحزين: (نحن نازلون غداً بنحيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر، يعني ذلك المحصب، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ) (١).

في مثل هؤه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوديت في عز وجل وما يؤذي

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٦.

أحد، وأخفت من الله وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثة من بين يوم
وليلة ومالي ولعيالي (ولا لبلال) طعام يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط
بلال^(١).

ويقول عتبة بن غزوان رضي الله عنه: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع
رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قى حت أشداقنا فالتقطت
بردة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد
بنصفها)^(٢).

ويقول سعد بن أبي وقاص: كنا قوماً يصيينا صلف العيش بمكة مع
رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترمنا لذلك، وصبرنا له،
وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة مع أبيه، ثم لقد
رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف
تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من
الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه)^(٣).

يقول علي بن أبي طالب: (طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا
بردة له مرفوعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من
النعمة وما هو فيه اليوم)^(٤).

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن
مالك قال قال رسول الله ﷺ وهذا سند صحيح على شرط مسلم حماد إمام ثقة من رجال
مسلم وثابت وهو تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

(٣) الأثر الأول رواه ابن إسحاق ومن طريقه هناد في الزهد ٢/٣٨٨ حدثني صالح بن كيسان
عن بعض آل سعد عن سعد وفيه جهالة شيخ صالح لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٤) يشهد له ما قبله وقد رواه أبو يعلى ١/٣٨٧ وفي سنده جهالة التابعي.

هذه حال الرجال.. يا ترى ما هي حال النساء.. خديجة وفاطمة
وزينب وأم كلثوم وأسماء.. كيف كانت حالة الأطفال.. كابن عمر.
يا صنديد قريش، لماذا.. أي جرم قارفوه.. إذا ما أشرعوا الأبواب
يوماً والنوافذ.. للهواء.. ولغيمات السماء.. لحداء الكون بالتوحيد سيقوا
بالسلاسل.. وعليهم تراكم.. قاسيات كالجرائم.. تصنع للحزن عام.

عام الحزن

من شقاء لشقاء.. بعد عام الشعب والأحزان كالمنطق الأسود. هاهو
رسول الله ﷺ والمرارة والكرب يلاحقانه في بيته.. عام للحزن جديد.. إنه
يلقى نظرات الوداع الحائرة.. نظرات البث تفيض دمعاً على حبيبته..
وزوجته ورفيقة دربه الطيبة خديجة تموت.. وعند فراشها فاطمة تبكي..
ومعها أخواتها: زينب وأم كلثوم.. يبكين بحرقة على أمهن.. على خير
نساء العالمين.. ربما كان لقريش سهم في سهام الموت التي أزهدت
روحها.. وربما كان السن وحده.. لقد غادرت هذه الدنيا حزينة على
زوجها رسول الله ﷺ.. خائفة عليه تناضل دونه وتشده وتحنو عليه..
فعاشت في قلبه حية بالحلب لم تحتل امرأة ما احتلته من قبل أبداً.. قال ﷺ
وحياً.. قال حباً.. قال وفاء:

(ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس،
وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني
الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء)^(١).

(١) حديث ضعيف الإسناد عند أحمد ١١٧/٦، لكنه صحيح بدون لفظ ما أبدلني الله خيراً
منها، شواهد عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

ويقول ﷺ: (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة)^(١).

خديجة أول من أسلم.. خديجة أول من صدق.. خديجة أول امرأة في الإسلام.. خديجة أول زوج لرسول الله ﷺ.. وأول من بذل مالاً لمواساته ﷺ.. ترى كما بكأها من المسلمين والكافرين.. امرأة تحمل هذا القدر من الإخلاص والوفاء جديرة بالثناء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب.. ناءت بثقل فتت أكتاف رجال.. فرحمها الله ورضي عنها.. وهنيئاً لها (بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)^(٢).

لقد سافرت لتنال وعد الله.. أما زوجها ﷺ.. فتضاعفت مسؤوليته بعد أن أهد جدار كان يحميه.. ولباس كان يقيه.. ويد تمسح دمه وتغسل جرحه.. وتدفعه للأمام.

كانت خديجة تزاحمه ﷺ وتزاحم قلبه بالذكريات الجميلة.. تقول إحدى أمهات المؤمنين: (ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها)^(٣) (كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت)^(٤).

ليت شعري كيف حزن فتاة طمس الكفار أخبارها.. خلف ذاك البحر غريبة.. في بلاد الأحباش معذبة شريفة.. تدعى رقية.. ابنة رسول الله ﷺ.. من يستشعر حزنها على أمها وأبيها وهي تموت بعيداً عنها.. لا

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤/١٨٨٦.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٢٨٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٧).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٨).

تستطيع رؤيتها.. لا تستطيع توديعها.. تمنى أن تلقي عليها نظرة الوداع.. قبله الوداع فلا تستطيع.. البحر أمامها والخوف وقريش.. كم هي قاسية أيام مكة على محمد وعلى آل محمد وعلى صحب محمد صلى الله عليهم جميعاً.

لم يلن قلب قريش.. استمروا بالأذى.. وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول الله ﷺ وآله الطاهرين وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة.. وتلتها للحزن موجة.. أغرقت شيخاً كبيراً.. حامياً درعاً حصيناً اسمه:

أبوطالب

بطل من أبطال قريش.. وسيد من سادتها.. هدته قريش كما هدته السنون والأحزان.. كان خلف رسول الله ﷺ يحميه.. يدفع عنه.. رضي بالعيش في السجن معه وقاسمه معاناته.. لكنها الأيام لا ترحم.. والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها.. جاءت الأقدار فسقط أبو طالب مريضاً على فراشه.. ما زال على كفره.. قد تشيع رأسه بعيب قريش.. كان يخشى النقيصة.. يخشى أن تعيره مكة بعد موته بأنه قد ترك دين آباءه وأجداده.. واشتد به المرض.. ولعل سجن الشعب من أسبابه.. ودنا الأجل (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ:

يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية:

يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة^(١) (قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك)^(٢).

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)^(٣) (فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب».

وأبي أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ:

«أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٤).

وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٥).

بطل إلى النار

إنه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب.. لكنه رفض الحق.. جاء العباس أخوه.. وعم رسول الله ﷺ يوماً إلى رسول الله.. يسأل عن مصير أخيه البطل ويقول:

(١) حديث صحيح. متفق عليه وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٥٥/١).

(٣) صحيح. رواه البخاري ١٤٠٩/٣.

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

(٥) متفق عليه وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.

(يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك، ويغضب لك قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)^(١).

(نعم وجدته في غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح)^(٢) ويقول ﷺ: (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)^(٣).

هذه هي حدود رسول الله ﷺ.. وهذا كل ما يستطيع فعله له قال ﷺ لمن حوله والحسرة في صدره:

(لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)^(٤) لكن أين تذهب أعماله.. أين جزاء هذا البطل.. كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسلام رغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين.. لقد أحاط ابن أخيه ﷺ ودافع عنه.. وواجهه قريشاً.. وشراسة قريش من أجله، فلماذا ولماذا..؟

العواطف الجياشة تفجر أسئلة ذاهلة.. تفجر مذاهب.. تبعثر الصفوف تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة.. لكنها ما سألت يوماً عن أبي طالب نفسه.. هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته.. هل خدم نفسه كما خدم الإسلام.. هل ارتقى بروحه كما ارتقى من يدافع عنهم سنوات وسنوات وهو مع رسول الله ﷺ.. يشرح له يوضح

(١) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١٩٤/١-١٩٥).

(٢) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١٩٤/١-١٩٥).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ١٩٦/١.

(٤) رواه البخاري ١٤٠٩/٣.

الحق له.. يؤكد له أن وعد الله صادق.. ودين الله ماض سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أو لم يدافع.. انضم أو غادر.. كان أبو طالب يستمع إلى كلام الله.. وكان كلام الله يسيل في أذنيه منذ أشرق الوحي.. في أندية مكة في بيت ابن أخيه.. في بيته هو.. في شعبه.. في فراش الموت.. لقد منحه الله فرصة.. لقد منحه الله حرية الاختيار.. وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة.. لكنه خاف تعيير قريش وسبها له بعد موته.. ذلك لأنه لم يكن واثقاً من وعد الله.. وإلا لما وقفت كلمات قريش المحتملة عائقاً له عن الدخول في دين الله.. ما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة.. وثقة مزعزعة بوعد الله.. إن من يدعون أن الإسلام جعل أبا طالب كبش فداء يحترق.. لم يدركوا أن الإسلام لله والتوحيد لله.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.. وما محمد ﷺ إلا رجل تلقى رسالة الله فأداها كما طلب منه.. ومن أجل هذا الرجل تحرك أبو طالب وقاتل أبو طالب.. أما الله فأين مكانه في قلب أبي طالب.. لا شيء.. لا مكان لله في قلب أبي طالب.. إن أول شرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله وتفردده والإخلاص له.. وأبو طالب رفض هذا الشرط رفض وحدانية الله.. رفض الإخلاص له.. رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل.. هو شهيم وشجاع وكريم.. كعترة.. كحاتم.. والإسلام يشطره مثلهم.. يؤيده في مواقف.. ويشجبه في مواقف.

كم تمنينا لو كان مسلماً.. لكن ماذا بأيدينا.. ماذا يفعل حزننا بالحقيقة هل سيغيرها.. إن حبنا لعلي لا يجب أن يطغى على حبنا لله..

فإن فعلنا ذلك فنحن نعبد علياً من دون الله.. أبو طالب مات بطلاً...
لكن إلى النار.. ونهايته مأساة حزينة لكنه هو الذي اختارها.

الفتى الحزين علي

علي بن أبي طالب.. أول من أسلم من الفتيان.. لا شك أنه قد دعا يوماً أباه إلى الإسلام.. لا شك أنه يشعر بالأسى على أبيه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة.. لقد مات أبوه دون أن يسره بكلمة التوحيد.. فذهب يسحب خطاه نحو رسول الله ﷺ.. قد تشعب بالحزن حتى أثقله.. يقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه؟)^(١).

سؤال غاضب من إصرار هذا الشيخ على الشرك.. سؤال يبكي هذا الشيخ الضال.. إنني أشعر بمرارها في حلقة وهو يقول: الضال.. كمن يقولها بعد أن استنفذ كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار فأبي إلا الانتحار.. الكلمات بعد ذلك تخرج مزيجاً من الغضب والحزن والأسى.

لكن رسول الله ﷺ كان طيباً للقلوب.. طيباً للنفوس.. قال لعلي

الحزين:

(اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني. يقول علي بن أبي طالب: فأتيته، فأمرني، فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرنى أن لي بمن ما على الأرض من شيء)^(٢).

(١) إسناده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وغيره فقال أبو داود (٩٠/٢): حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت علياً يقول: وأبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله الهمداني، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب (٢٩٤/٢).

(٢) إسناده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وغيره فقال أبو داود (٩٠/٢): حدثنا شعبة، عن

يا لعام الحزن هذا.. أبو طالب غاب وخديجة.. ماذا سيحل برسول الله ﷺ.. وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟ تقول عائشة رضي الله عنها:

(ما زالت قريش كاعة^(١) حتى توفي أبو طالب)^(٢).

فلما توفي.. هجمت وسلت وازداد توحشها.. فهرب منها ﷺ عليه يجد من يؤويه.. ينصره، لكن إلى أين؟

إلى الطائف

يشق الأودية والجبال.. على قدميه الدامتين المتعبتين.. بلا راحلة.. فقير لا يملك ثمنها.. يحمله حزنه يصعد جبال الطائف يفتش عن أمل.. يبحث عن معين.. يبحث عن يد حانية.. تحمل هذا الدين برفق.. تقدمه للتائبين.. للجاحثين للمعدمين وحتى للمترفين.. يبحث عن بقية خير في قلوب خارج مكة.. عن أقوام تتمرد على هذه الأصنام والعادات والشرع الشركي الملوث. يقول عبد الله بن جعفر:

(لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)^(٣).

أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت علياً يقول: وأبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله الهمداني، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب (٢/٢٩٤).

(١) مترجمة جبانة.

(٢) حديث صحيح. الإسناد رواه البيهقي (٢/٣٤٩): حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، قال: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبه المحي عن هشام بن غزوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: العباس حافظ ثقة. انظر التقريب (١/٣٩٨) وعقبه بن خالد الجندر صدوق صاحب حديث، التقريب (٢/٢٦) والبقية أئمة.

(٣) حديث حسن بشواهد سيمر معنا.

و(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم أخوة ثلاثة:

عبد ياليل بن عمرو بن عمير. ومسعود بن عمرو بن عمير. وحبيب ابن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف.

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسل. وقال الآخر:

أما وجد الله أحداً يرسله غيرك. وقال الثالث:

والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يئس من خير ثقيف^(١).

قام وهيب الحزن في كبده.. قام وحاله تنفطر لها القلوب.. جوع وعطش وسير بالليل والنهار.. وأحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها.. تذكره بخديجة وأبي طالب.. ودعوة مطاردة.. وأتباع تتخطفهم أيدي الطغاة.. قام ﷺ فالتفت إلى هؤلاء القساة لعل بقية من الإنسانية لا تزال عالقة في قلوبهم.. يرجوهم كتمان أمره حتى لا تشمت به قريش.. وتحمله من الضيم ما لا يطيق. قال لهم:

(إذا فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عني - كره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه

(١) سيأتي تخريجه.

عنه فيذئثرهم^(١) ذلك عليه- فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حيلة^(٢) من عنب، فجلس فيه -وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف- وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بن جمح. فقال لها: ماذا لقينا من أمهاتك؟

فلما اطمان رسول الله ﷺ قال:

«اللهم أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني: إلى بعيد يتهمني. أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس. فقالا:

خذ قطعاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ. ثم قال له:

كل. فلما وضع رسول ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال:

(١) يجعلهم يجترئون عليه.

(٢) الحيلة هي الكرم أو القضيبي من الكرم.

والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال رسول الله ﷺ:

ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال عداس:

نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى^(١). فقال رسول الله ﷺ:

من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس:

وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ:

ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه:

أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له:

ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

وقال عداس:

يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له:

ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف^(٢).

(١) قرية بالموصل في العراق.

(٢) حديث مرسل. رواه ابن إسحاق فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعي ثقة، لكنه لم يذكر من شيوخه هنا. لكن الحديث روي مرسلًا أيضاً عن الزهري، وعن عروة بن الزبير - وهو الحديث الذي بعده - ما عدا الدعاء في هذا الحديث، فشاهده عند الطبراني، وقد قال الهيثمي في المجمع (٣٥/٦) ورجاله ثقات وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، ثم وجدت الحديث عند الطبراني في الدعاء، وعند ابن

ويروي هذه القصة عروة بن الزبير فيقول:

(لما أفسد الله عز وجل صحيفة مكرهم، خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، فعاشوا، وخالطوا الناس، ورسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول:

لا أُكْرَهُ منكم أحداً على شيء من رضي الذي أدعوه إليه قبله، ومن كرهه لم أُكْرَهُهُ، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي، ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء. فلم يقبله أحد منهم، ولا أتى على أحد من تلك القبائل إلا قالوا: قوم الرجل أعلم به. أفترى رجل يصلحنا وقد أفسد قومه؟! -وذلك لما ادخر الله عز وجل للأنصار من البركة- ومات أبو طالب، وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة، فعمد إلى ثقيف، يرجو أن يؤوه وينصروه، فوجد ثلاثة منهم، سادة ثقيف وهم أخوة:

عبد يا ليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو.

فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء، وما انتهك قومه منه. فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً، لئن كنت رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك. وقال الآخر:

عدي في الكامل وسنده هو: ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن.. وهذا السند ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشام من أقرانه وشيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ولا يقوي هذا الطريق ما عند ابن إسحاق فقد رواه دون سند -أي روى الدعاء دون سند-.

أعجز الله أن يرسل غيرك!؟

وأفشوا ذلك في مكة -أي الذين قال لهم- واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ، وقعدوا له صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة، وهم في ذلك يستهزئون، ويسخرون، فلما خلاص من صفيهم وقدماه تسيلان بالدماء عمد إلى حائط من كرومهم، فأتى ظل حبله من الكرم، فجلس في أصلها مكروباً موجعاً، تسيل قدماه الدماء، فإذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما -لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله- وبه الذي به، فأرسلا إليه غلامهما «عداس» بعنب -وهو نصراني من أهل نينوى- فلما أتاه وضع العنب بين يديه، فقال رسول الله ﷺ «بسم الله» فعجب عداس، فقال له رسول الله ﷺ.

من أي أرض أنت يا عداس؟ قال عداس:

أنا من أهل نينوى، فقال النبي ﷺ:

من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس:

وما يدريك من يونس بن متى؟ فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يبلغه رسالات الله تعالى. قال عداس: يا رسول الله أخبرني خير يونس بن متى. فلما أخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحى إليه من شأنه، خر ساجداً للرسول ﷺ، ثم جعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء. فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا. فلما أتاهما قالا له: ما شأنك سجدت لمحمد، وقبلت قدميه، ولم نرك فعلت هذا بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح، حدثني عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا،

يدعى: يونس بن متى، فأخبرني أنه رسول الله. فضحكا به وقالوا:

لا يفتنك عن نصرانيتك، إنه رجل يخدع. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة^(١).

ترى كيف ستحمل هذا المكروب المسكين أقدامه وهي لا تزال تتزف حزناً ودماً.. كيف سيعود ولا أبا طالب بعد اليوم.. من يضمد جرحه وخديجة تحت الثرى.. من يا ترى يكف أفواه قريش عن الشماتة.. كانت أياماً لكن همومها أحالتها سنوات.. سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن أشد يوم مر به؟ فأشار إلى أيام الطائف وقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبي إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)^(٢).

إنه الهم الذي حملة ومشى به، حتى حنت عليه السحاب.. وأشفت لمنظره الحجاره وأغصان الشجر.. واستعدت الرواسي الشم للانتقام له:

الجبال تنتقم

يقول ﷺ مواصلاً حديثه: (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال:

(١) إسناده مرسل رواه أبو نعيم (٢٩٥)، وقد أوردت الحديث لا لصحته ولكن لأن سياقه ينسجم مع الحديث الصحيح الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أشد الأيام التي مرت عليه هي أيام الطائف ويدل على ذلك نزول ملك الجبال لينتقم منهم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق) ومسلم.

يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(١)
فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا
يشرك به شيئاً^(٢).

صلى الله عليك يا نهر الحنان.. في اليمين جبل.. وفي الشمال جبل..
لو كنت ممن ينتقم لنفسه.. لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم..
ولسالت من جبال الطائف دماء يراها أهل مكة.. لكنه ﷺ ما خرج
لنفسه.. ولا أحضر شيئاً من عنده.. رفض الانتقام لأنه جاء ليجعل الحياة
إيماناً وسعادة.. وفي قلبه يهتز أمل يتلألأ.. يقول: إن في الأصلاب ربيعاً
قادماً يتنفس الإسلام.

وعاد الحبيب ﷺ مطروداً.. جريحاً.. منكسراً كما خرج..

فانسل إلى بيته الصغير.. حيث ابنته وريحانته فاطمة.. لا بد أنها بكت
وارتفع نשיجها عندما رأت ذلك الشحوب في وجهه الكريم.. عندما
رأت الدماء تتلألأ في جروحه.. فسارعت لمواساته ومواساة جراحه..
وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنته فذكرته بحبيبته خديجة.. وذكره
بيته بها.. ففيه عاشا سوياً وهاهو الآن شوق.. بينه وبينها تراب على قبر
خديجة.

ذكريات مصائب تترى فهل لهذه الأحزان من نهاية؟

لم تكن هناك نهاية.. أمراً عظيماً سيحدث.. وتسلية مذهلة..
ستمسح أحزانه السابقة.

(١) جبلا مكة.

(٢) بقية حديث البخاري.

ضغطت له المسافات حتى رأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم.. بل وما خلف السموات.

جمع له الزمن حتى أصبح بين يديه ساعات يقلبها مراكب يبحر بها.

الإسراء والمعراج

يقول سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

متى كان ذلك؟

سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد.. لكنه أيام مكة الحزينة قطعاً.. أما في أي سنة كان ذلك.. في أي شهر.. في أي يوم.. فكل ذلك غير معروف على وجه الدقة.. ليس من دليل صحيح على ذلك.. إن تحديد ليلة معينة للإسراء رجم بالغيب.. والاحتفال بذكرى تلك الليلة يحتاج إلى دليلين.

كل ما نقطع به أنه حدث في ليلة من ليالي مكة.. وما دام الأمر كذلك.. فدعونا منه.. دعونا نتسلل بهدوء من الضجيج المحيط بتوقيته إلى أحداث الإسراء والمعراج من بدايتها إلى مواجهة قريش بما حدث.. فكيف كانت البداية.

شق للسقف. شق للمصدر

ليالي مكة واحدة تكاد لا تتغير.. فيها يهدأ الجميع.. الصحابة متعبون من الأذى والمطاردة.. والمشركون متعبون أيضاً.. فقد أهدروا

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

طاقاتهم طوال النهار في التعذيب والمطاردة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يجعلون ليلاً ليلاً مناجاة لخالقهم وتهجداً وصفاء.. وفي ليلة غريبة.. في ليلة لا كالليالي.. جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى رسول الله ﷺ على غير عادته.

يقول ﷺ: (فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فتزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه)^(١) شق للسقف.. وشق للصدر! لكن أين تم ذلك الشق الآخر؟ لقد كان عند بئر زمزم. لقد كان ﷺ نائماً في بيته ثم أخذ للمسجد الحرام.. وكان في المسجد نيام.. أما رسول الله ﷺ.. فكان بين النائم واليقظان.. أخذ أيضاً من بين الناس نحو بئر زمزم. يقول ﷺ:

(بيناً أنا عند البيت بين النائم واليقظان - وذكر يعني رجلاً بين رجلين - فأُتيتُ بطست^(٢) من ذهب مليء حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مرق^(٣) البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً)^(٤).

هذا هو الشق الثالث له ﷺ.. استعداداً لرحلة عجيبة مذهشة معجزة.. لكن كم من الزمن ستستغرقه هذه الرحلة. ومن سيحمله فيها؟

البراق

دابة غريبة ركبها ﷺ.. ووصفها فقال:

(١) متفق عليه - البخاري كتاب الصلاة ومسلم - الإيمان - الإسراء.

(٢) الطست هو إناء نحاسي مستدير.

(٣) ما لأن منه ورقاً.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق).

(وَأُتِيَتْ بِدَابَّةٍ أبيض، دون البغل، وفوق الحمار «البراق»^(١)) ويقول أنس:

(أتى رسول الله ﷺ بالبراق ليلة أسري به، مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه.

فقال له جبريل عليه السلام:

ما حملك على هذا. والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه. فأرفض^(٢) عرقاً^(٣).

أما سرعة هذا البراق.. فيقول ﷺ بأنه:

(يضع حافره عند منتهى طرفه).. والله أعلم بمنتهى طرفه.. لكنه يبدو طويلاً جداً.. يدل على ذلك أن زمن الرحلة كان قصيراً بحيث يعجز الإنسان عن قياس سرعة ذلك المخلوق العجيب. يقول حذيفة رضي الله عنه:

(أتى ﷺ بالبراق - وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل - فلم يزايله ظهره هو وجبريل حتى انتهت إلى بيت المقدس)^(٤).

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) سال عرقه.

(٣) رواه الترمذي بإسناد صحيح. (تفسير سورة الإسراء) والبيهقي (٣٦٣/٢): عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس، وقاتادة إمام لكنه مدلس ويخشى من تدليسه، لكن هذا الشك يزول بروايته للحديث قائلًا: حدثت عن رسول الله ﷺ، وللحديث شواهد ستمر معنا.

(٤) إسناده حسن، رواه أبو داود الطيالسي (٩١/٢) واللفظ له، والترمذي (التفسير) والبيهقي (٣٦٤/٢) من طريق عاصم بن مهذلة، وهو حسن الحديث وهو ابن أبي النجود أحد أئمة القراءة وهو ثقة في نفسه، عدل لكن في حفظه بعض الشيء، وشيخه هنا هو التابعي

هذا ما جاء عن البراق.. البراق الذي نسج حوله الكذابون الأساطير. فقالوا: إن له رأس آدمي.. وعرفاً من اللؤلؤ.. وأذنين من الزمرد وغير ذلك من الأكاذيب. البراق باختصار هو: دابة أكبر من الحمار وأصغر من البغل أبيض اللون.. وخطوته تصل إلى آخر ما يستطيع مشاهدته.. وقد ركبهُ ﷺ حتى أوصله إلى:

المسجد الأقصى

وفي طريقه ﷺ إلى المسجد الأقصى (مر على موسى وهو يصلي في قبره)^(١) (فأوثق ﷺ الفرس - أو قال: الدابة في الخرابة)^(٢) وفي ذلك يقول ﷺ: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل:

اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل. فقيل:
من أنت؟ قال:

المخضرم الثقة: زر بن حبيس الذي روى عن حذيفة. انظر التهذيب (٣٨/٥) والتقريب (٢٥٩/١).

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وغيره بلفظ: (مررت ليلة أسري بي على موسى قائماً يصلي في قبره).

(٢) رواه البيهقي (٣٦١/٢) وأبو يعلى (تفسير ابن كثير ٨/٥) من طريق معتمر بن سليمان ابن طرخان، عن أبيه، قال: سمعت أنس، وهذا الإسناد صحيح. فالرجلان ثقتان. انظر التهذيب (٢٢٧/١٠) والتقريب (٣٢٦/١).

جبريل. قيل:

ومن معك؟ قال جبريل:

محمد. قيل:

وقد بعث إليه؟ قال جبريل:

لقد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم
عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل:

من أنت؟ قال:

جبريل. قيل:

ومن معك؟ قال:

محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا
أنا بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما،
فرحبا، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال:
جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد
بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر
الحسن.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من
هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟
قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير. قال
الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا أوراقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فترلت إلى موسى عليه السلام. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت^(١) بني إسرائيل، وخبرتهم. فرجعت إلى ربي. فقلت: يا رب خفف على أمتي.

(١) جربت واختبرت.

فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى. فقلت: حط عني خمساً. قال موسى: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها تكتب سيئة واحدة. قال ﷺ: فترلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ - فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه^(١).

ويقول ﷺ:

(.. ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا. قال جبريل لخازن السماء:

افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم. معي محمد ﷺ، فقال:

أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا. فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة^(٢)، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال:

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/الإسراء) عن أنس.

(٢) جمع من الناس.

هذا آدم. وهذه الأسود عن يمينه وشماله نسّم^(١) بنيه، فأهل اليمين منهم: أهل الجنة. والأسودة التي عن شماله: أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى: السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول. ففتح.

ويقول ابن عباس وأبو حبة الأنصاري: قال النبي ﷺ:

ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. قال أنس بن مالك قال النبي ﷺ:

..... ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيتها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبال اللؤلؤ وإذا تراها المسك^(٢).

ويقول مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

فأتينا على السماء السادسة. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه، مرحباً به ولنعم المجيء جاء. فأتيت على موسى، فسلمت، فقال: مرحباً بك من أخ وني، فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعثت بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي.

فأتينا السماء السابعة. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أرسل إليه. مرحباً به، ونعم المجيء جاء. فأتيت على إبراهيم، فسلمت، فقال: مرحباً بك من ابن وني، فرفع لي البيت المعمور،

(١) يعني أرواح أبنائه.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم. (باب الإسراء من كتاب الإيمان).

فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها^(١) كأنه قلال هجر، وورقها كأنها آذان الفيول، في أصلها أربعة أثمار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل. فقال: أما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران: النيل والفرات^(٢).

ترتيب الأحداث

تلك هي قصة الإسراء والمعراج فلنرتبها مع إضافة بعض الأحداث الأخرى التي أتت في أحاديث متفرقة صحيحة.

١- في بيت رسول الله:

ذلك عندما كان نائماً في بيته، فانشق سقف البيت ليدخل منه جبريل.

٢- في المسجد الحرام عند بئر زمزم:

عندما أخذ ﷺ من بين النيام.. وكان في حالة بين النائم والمستيقظ.. ثم أخذ إلى بئر زمزم حيث:

٣- شق صدره ﷺ:

فبعد إحضاره إلى بئر زمزم شق صدره الشريف للمرة الثالثة استعداداً لهذه الرحلة العظيمة.. وحشي إيماناً وحكمة.. وكأن ذلك تحضير لتلك الرحلة الخارقة.

(١) النبق: حمل السدر.

(٢) جاء معنى ذلك في الحديث الصحيح عند البخاري (عنصرهما).

٤- إحصار البراق:

وهو دابة حجمه فوق حجم الحمار.. وأصغر من حجم البغل.. أبيض اللون.. خطواته عند مد بصره.. له سرعة مذهلة لا يعلمها إلا الله. وليس هناك أحاديث صحيحة تقول: إن له وجه إنسان أو شعر فرس أو.. أو.. فكل ذلك من أكاذيب الوضاعين.

(وكان البراق كلما صعد عقبةً استوت رجلاه مع يديه، وإذا هبط استوت يده مع رجليه) (١).

٥- ركوب البراق:

وقد وجد ﷺ صعوبة في ركوبه أول الأمر، شمس وامتنع البراق لكن جبريل قال له: (ما حملك على هذا، والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه فارفض عرقاً) (٢) وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل بيت المقدس. وهذا يدل على سرعته.. وعلى أنه قد سبق وأن ركبه غير رسول الله ﷺ.

٦- المرور بقبر موسى:

مر ﷺ بقبر موسى وهو في طريقه نحو المسجد الأقصى (وموسى يصلي في قبره) (٣) وصلاة موسى تختلف عن صلاتنا على ظهر الأرض.. لأن حياة القبر ليست كحياة الأرض (الدنيا).. والصلاة عند العرب

(١) سنده جيد رواه الحسن بن عرفة في جزئه (تفسير ابن كثير ١٧/٣) حدثنا مروان بن معاوية وهو ثقة عن شيخه الصدوق قنان بن عبد الله النهدي عن شيخه التابعي الثقة أبي جناب.

(٢) مر معنا وإنه حديث صحيح الإسناد.

(٣) مر معنا وإنه قد رواه مسلم.

معناها: الدعاء.. وحتى الدعاء في القبر.. لا ندري كيفيته.. وفي الكون مما لا يستطيع الإنسان إدراكه بحواسه ما لو علمه لذهل وطار صوابه وتحير. والقبر في جميع الأحوال.. إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة.

كيف يكون ذلك..؟ الله أعلم.

٧- الوصول للمسجد الأقصى:

حيث ربط الفرس أي البراق بالخرابة.. وربطها ﷺ (بالحلقة التي يربط به الأنبياء)^(١) وهذا يدل على أن البراق قد ركبه الأنبياء من قبل أو بعضهم.. مما يدل على مشروعية بذل الأسباب مع التوكل وتفويض الأمر لله.. وهذا هو التوكل الصحيح على الله.. وإلا فالبراق لن يهرب والله قد أحضره لنبيه ﷺ.. ثم صلى النبي ﷺ في المسجد الأقصى ركعتين.

٨- الخمر واللبن:

وبعد أن صلى رسول الله ﷺ ركعتين خرج فاستقبله جبريل بإناءين.. في أحدهما لبن.. وفي الآخر خمر. وكان على رسول الله ﷺ أن يشرب أحدهما.. فاختر اللبْن فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: (اخترت الفطرة)^(٢) ولم يتضح معنى هذه الكلمة في عصر كما اتضح في عصرنا هذا.. فاسأل الأطباء. كما قال جبريل عليه الصلاة والسلام: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)^(٣). بعد ذلك ينتهي الإسراء ويبدأ المعراج.

(١) مر معنا وهو عند مسلم.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

(٣) حديث صحيح. متفق عليه.

العروج للسماء الدنيا

حيث صعد جبريل عليه السلام بمحمد ﷺ آخذاً بيده. يقول ﷺ: (ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا)^(١) وفي هذا الحديث إشارة إلى وجود خازن من الملائكة للسماء الدنيا. كما أن في بقية الحوار بين جبريل وخازن السماء الدنيا ما يدل على أن الملائكة لا تعلم الغيب.. ولا تعلم ما يحدث على وجه الأرض.. وذلك لأنهم يسألون جبريل في كل سماء فيقولون: وقد بعث إليه؟ أو: وقد أرسل إليه؟..

مَنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا

لقد شاهد ﷺ أبانا آدم عليه الصلاة والسلام. فسلم عليه رسول الله ﷺ.. ورد آدم عليه السلام.. كما شاهد ﷺ خلقاً كثيراً عن يمينه وخلقاً كثيراً عن شماله وكان آدم إذا نظر إلى يمينه ضحك مبتهجاً مسروراً.. وإذا نظر إلى شماله بكى حزناً وأسى.. فشد ذلك السلوك نبينا محمد ﷺ فسأل عنه جبريل فأجابته جبريل: (هذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسيم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله: أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)^(٢) ثم ودع آدم رسول الله ﷺ بعد أن رحب به ودعا له بخير..

في السماء الثانية

جرى حوار كالحوار الأول بين جبريل عليه السلام وخازن هذه

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

السماء.. ثم دخل رسول الله ﷺ عليهما.. أما من كان مِنَ الأنبياء في السماء الثانية؟

فقد وجد عيسى بن مريم وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فرحبا به.

وقد وصف رسول الله ﷺ أخاه عيسى بن مريم عليه السلام.. فقال:
(رأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)^(١).

(أحمر كأنما خرج من ديماس)^(٢).

السماء الثالثة

في هذه السماء.. شاهد رسول الله ﷺ أجمل خلق الله وجهاً.. يوسف بن يعقوب النبي الأمين عليه السلام.. قال عنه ﷺ: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن»^(٣)، وقال في حديث صحيح آخر: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)^(٤) وقد رحب به يوسف ودعا له بخير.

في السماء الرابعة

حيث رأى من قال الله فيه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(٥) إنه إدريس عليه الصلاة والسلام.

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه. انظر صحيح الجامع (١٠٨/٥) والديماس هو الحمام.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه الحاكم. انظر صحيح الجامع (٣٥١/١).

(٥) سورة مريم: الآية ٥٧.

وفي السماء الخامسة

شاهد رسول الله ﷺ أخاه هارون.. خليفة موسى في بني إسرائيل..
وزيره وأخوه صلى الله وسلم عليهم جميعاً. فرحب به ودعا له بخير.

وفي السماء السادسة

لقي ﷺ أخاه موسى عليه السلام.. وقد وصفه ﷺ فقال:

مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام: (رجل آدم، طوال، جعد، كأنه من رجال شنوءة)^(١). (فسلمت فقال: مرحباً بك من أخ ونيبي)^(٢). لكن موسى عليه السلام بكى بعدما صعد رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة.. فقيل لموسى ﷺ، ما أبكاك. قال: (يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)^(٣). ولم يكن ذلك حسداً من موسى.. فالحسد يموج هناك على وجه الأرض.. أما موسى فيبكي متحسراً.. أسفاً لعناد أمته وتعنتها.. وقد كان يجب أمة محمد ﷺ ويعطف عليها.. يدلنا على ذلك حديث طويل جرى له مع رسول الله ﷺ حول عدد الصلوات المفروضة.. والتي بسبب موسى عليه السلام خفف الله الصلاة عن أمة محمد من خمسين إلى خمس صلوات.

في السماء السابعة

وهي آخر السموات.. وفيها شاهد أباه إبراهيم مسنداً ظهره إلى

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان - الإسراء).

(٢) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟

(٣) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟

«البيت المعمور» وهو: بيت يطوف به ويصلي به سبعون ألف ملك كل يوم لا يعودون بعدها ودخل ﷺ هذا البيت وسلم على والده فرحب به.. وحملته وصية لأمته قال فيها: (يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التراب، عذبة الماء، وإنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)^(١).

أما وصف إبراهيم عليه السلام.. فقد قال رسول الله ﷺ:

(ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)^(٢) ويقول: (ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب من آرابه إلا نظرت إليه مني كأنه صاحبكم)^(٣).

«سدرة المنتهى»

وهذه السدرة العظيمة (إليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)^(٤) وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعَشَى السِّدْرَةَ مَا يَعَشَى﴾ قال: (فراش من ذهب)^(٥)، ويصف ما حدث لها فيقول: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)^(٦) جمال وألوان وثمار تقف لغات الدنيا ملحمة أمامها.. لا تستطيع مهما أوتيت من الإبداع

(١) حديث حسن رواه الترمذي. انظر صحيح الجامع (٣٤/٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) إسناده حسن، رواه أحمد من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وهلال حسن الحديث. انظر المجموعة القصصية (الإسراء والمعراج).

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (١٥٧/١).

(٥) حديث صحيح. رواه مسلم (١٥٧/١).

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإيمان - الإسراء).

تجليتها ووصفها.. أو التعبير عن معاناة الوقوف أمامها وأسرها.. هذا هو رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم يقول: فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فكيف يكون جمال الجنة يا ترى؟ وفي أصل هذه السدرة (أربعة أنهار، نهران باطنان، نهران ظاهران)^(١). (أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)^(٢) أي عنصرهما.. وليس معناه أن النيل والفرات الآن متصلان بها.

ثم عرج به ﷺ لكن ماذا بعد السموات السبع.

صريف الأقلام

يقول ﷺ: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)^(٣) جبريل رفيق المعراج.. كيف كانت هيأته وهو في الملأ الأعلى.. لقد وصفه ﷺ بقوله: (مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله)^(٤) كان جبريل كالثوب الرقيق.. قد ذاب من خشية الجبار سبحانه وتعالى.

فرض الصلوات

صعد ﷺ هناك.. أعلى من السحب.. أعلى من الشمس والنجوم والمجرات والكواكب.. لقد اخترقها كلها.. إنه الآن فوق السموات السبع.. محمد ﷺ ينتظر شيئاً في هذه الأجواء الشفافة المتوهجة الطاهرة.. في هذا العلو المقدس.. أوحى الله إلى محمد ﷺ.. ما أوحى: خمسين صلاة

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق - ذكر الملائكة).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق - ذكر الملائكة).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (كتاب الصلاة - مسلم كتاب الإيمان).

(٤) حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط. انظر صحيح الجامع (٥/٢٠٦).

في اليوم واللييلة. رجع بها ﷺ مطيعاً كعادته.. لكنه وفي طريق التزول.. اعترضه موسى سائلاً.. فأجابه بأن الله قد فرض عليه خمسين صلاة.. فأرشده موسى إلى أن أمته تحتاج إلى تخفيف.. فصعد إلى ربه يسأله التخفيف.. وما زال يتردد بين المكان الذي يوحى إليه فيه وبين موسى حتى جعلها الرحمن الرحيم خمس صلوات في اليوم واللييلة لكن لها أجر خمسين صلاة. تفضلاً منه سبحانه وتعالى.

آيات من تحت العرش

آيتان عظيمتان.. أعطاهما الله نبيه ﷺ من كثر تحت العرش.. وفي ذلك يقول ﷺ مبتهجاً بفضل الله عليه من بين الأنبياء بذلك العطاء: (أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كثر تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي)^(١) والآيتين هما (خواتيم سورة البقرة)^(٢). أي قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٥٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٦﴾

ولذلك يقول ﷺ: (من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني والبيهقي. انظر صحيح الجامع (٣٥٠/١).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٢٥٧/١) قال عبد الله رضي الله عنه: ... وأعطي خواتيم سورة البقرة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ١٩١٤/٤.

تفضل آخر

ومن فضل الله على رسول الله ﷺ وعلى أمته أيضاً.. ذلك الفيض الغامر رحمة.. عندما أبلغ رسوله ﷺ أنه قد: (غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات)^(١). كل هذا الفضل.. العطاء.. كان وحيًا، أم كان خطاباً يسمعه رسول الله ﷺ كما سمعه موسى يا ترى.

هل رأى ربه وسمعه

كما سمعه موسى عليه الصلاة والسلام.. أما السماع.. فقد مر معنا أنه قد أوحى إليه وحيًا.. وأما الرؤية.. فقد كفانا أبو ذر مهمة حمل السؤال لرسول الله ﷺ حيث قال رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى^(٢) أراه»^(٣))، (رأيت نوراً)^(٤). لكنه رأى الجنة ودخلها، ورأى فيها بشرى، ووصفها فكيف وصف:

دخول الجنة

لقد قال ﷺ: (أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تراها المسك)^(٥).

حوار بين الأنبياء

حوار حول الساعة.. وأمرها ومتى تكون. يقول ﷺ: (لقيت ليلة

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) أي كيف أراه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/ باب نور أنى أراه)

(٤) حديث صحيح. المصدر السابق.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (كتاب الإيمان - الإسراء).

أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال ﷺ. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى عليه السلام. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله، ذلك وفيما عهد إلى ربي عز وجل: أن الدجال خارج، ومعني قضيبان، فإذا رأي زاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله، حتى إن الحجر.. والشجر ليقول: يا مسلم.. إن تحتي كافر فتعال فاقتله، فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ثم يرجع الناس إلي، فيشكونهم، فأدعو الله فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوي الأرض من نتن ريحهم، فيترل الله عز وجل المطر، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ثم «ينسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم»^(١).

ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتام التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً^(٢).

المسيح الدجال

ذلك القائد اليهودي.. الذي ذكره عيسى بن مريم ﷺ.. هل رآه

(١) ما بين الأقواس جزء من حديث صحيح الإسناد عند الحاكم (٣٨٤/٢). انظر تخريج ما بعده.

(٢) إسناده صحيح، رواه أحمد (٣٧٥/١) وابن ماجه، اللفظ لأحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، من جبلة بن سحيم، عن مؤثر غفارة، عن ابن مسعود العوام بن حوشب بن يزيد الشيباني، ثقة ثبت فاضل من رجال الشيخ. (التقريب (٨٩/٢)، وجبلة بن سحيم تابعي ثقة. انظر الجرح والتعديل (٥٠٨/٢) وشيخه تابعي ثقة أيضاً. انظر ثقات العجلي (٤٤٣)، والحافظ لم ينقل توثيق العجلي في التهذيب ولذلك تأثر حكمه عليه في التقريب.

رسول الله ﷺ في رحلته العجيبة..؟ لقد قال ابن عباس أنه (ذكر الدجال) (١) وأنه (رأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس مناماً قال ﷺ: رأيتُه فيلماً نياً) (٢)، أقمر (٣) هجاناً (٤)، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة) (٥).

خازن جهنم

ملك رهيب اسمه مالك.. لا يتسم.. وصورته الحقيقية لا تسر.. ولا يستطيع بشر مهما كان قوي القلب الصمود أمامها.. ملك مخيف جداً يتطير الرعب من قسماته ونظراته.. لا يعرف الشفقة.. ولا يرحم أحداً.. وكيف يرحم وهو خازن جهنم.. وممزق أعداء الله ومعذبهم.. رآه ﷺ أثناء الإسراء والمعراج. حيث (قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار. فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام) (٦).

ولم يرَ ﷺ خازن جهنم فقط بل رأى جهنم نفسها فجبريل عليه السلام أراه الجنة والنار (فنظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلاً أحمر أزرق، جعداً شعناً إذا رأيتُه. قال ﷺ: من هذا يا جبريل؟ قال عليه

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان - الإسراء).

(٢) الفيلمان: العظيم.

(٣) الأقر: الأبيض.

(٤) الهجان: الأبيض.

(٥) سنده حسن، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٦٣) وإسحاق بن سليمان (سيرة الذهبي

ص ٢٥١) من طريق هلال بن خباب وهو حسن الحديث، عن عكرمة عن ابن عباس،

وليس في هلال كلام يضر.

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم.

الصلاة والسلام: هذا عاقر الناقة^(١) التي جعلها الله آية لنبيه صالح عليه الصلاة والسلام.. فكان بجريمته هذه أشقى قومه ثمود. وقد قص سبحانه وتعالى قصته على رسوله ﷺ فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١٠﴾ إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَانَهَا ﴿١١﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٣﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٤﴾﴾^(٢).

ومر ﷺ بأقوام تركوا ألسنتهم تزحف.. أفاعي تنهش الغافلين.. تنهش المجتمع.. واستمر زحفها حتى هوت في الجحيم وكبكت أهلها فيها (مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس، يخشمون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال عليه السلام: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)^(٣).

أما في الجنة

في عالم الجمال والأنوار والفتنة.. والحب المتجدد في قلوب الحور حول المياه والخضرة الساحرة.. كان لبلال خشف هناك.. خشف لنعلي ذلك الشريد الذي تقاذفه قبضات قريش.. فتحترضه بتجاويف الجبال وغيرها.. يرحف يصبغها بالدماء والبكاء.. يقول ﷺ: (دخلت الجنة ليلة أسري بي، فسمعت في جانبها وجساً، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال)^(٤).

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٥٥) حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس. عثمان هو العيسى ثقة شهير، التهذيب (١٤٩/٧)، وجرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة صحيح الكتاب، أما قابوس فهو حسن الحديث أفرط ابن حبان في جرحه كعادته، وهو حسن الحديث إذا لم يخالف فجرحه غير مفسر، ووالده تابعي ثقة اسمه حصين بن جندب الجني.

(٢) سورة الشمس.

(٣) إسناده صحيح. رواه أحمد وأبو داود. انظر صحيح أبي داود (٩٢٣/٣).

(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير.

بلال في الأرض.. في مكة سلعة تباع وتشترى وتعرض في الأسواق.. لا يملك بيتاً.. ولا يملك نفسه.. لكن في أعماقه بلال آخر.. بلال مسلم متوثب مزق الشرك والخضوع.. يتبختر في القصور هناك في النعيم.. في الجنة حيث سمعه ﷺ.. سيداً من سادات الأرض والإسلام.

في عالم الجنات حيث لا عين رأت مثل ذلك الحب والجمال والأنوار.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر شيء من ذلك في خيال بشر مهما هام وأبدع.. وتأتق أو غاص عوالم الأحلام والأمانى.. أشرع الله أبوابها للموحدين ونشر مفاتيحها في دروب الجميع فمن تخلف فلا يلومن إلا نفسه.

وصية

قالتها الملائكة.. لرسول الله ﷺ: (ما مررت ليلة أسري بي بملاً من الملائكة إلا كلهم يقول لي عليك يا محمد بالحجامة)^(١).

العودة للمسجد الأقصى

بعد هذه الرحلة الممتعة.. في عوالم الخلود العلوية.. عاد ﷺ إلى المسجد الأقصى (فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)^(٢).

ثم ركب البراق فإذا هو في مكة في زمن يخرس الأرقام.. محمد يعود والناس نيام.. فماذا سيقول لهم غداً.. وأي كفر ذلك الذي ستشاهده شمس الصباح؟

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١٥٥/٥).

(٢) إسناده حسن وقد مر معنا ويشهد له ما بعده. وهو حديث صحيح. رواه مسلم. (الإيمان - ذكر المسيح).

رسول الله حزين معتزل

يقول ابن عباس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبي، ففعد معتزلاً حزيناً»، فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال: كالمستهزئ: هل من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو جهل: ما هو؟ قال ﷺ: «إنه أسري بي الليلة». قال أبو جهل: إلى أين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إلى بيت المقدس». قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانيها؟ قال ﷺ: «نعم». فلم يُر^(١) إنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبو جهل: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي. فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانيها؟! قال ﷺ: «نعم». فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً^(٢) (فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل. وقال أبو جهل: يخوفنا محمد شجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فترقموا)^(٣).

(١) أي تظاهر أبو جهل بأنه يصدق ذلك الخبر، ظاناً أن تكذيبه في هذا الوقت سوف يجعل

رسول الله ﷺ يتراجع عن قول الحقيقة إذا اجتمع القوم.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

لكن أبا بكر لا يقول: كذبت

أبو بكر الصديق نبع الصدق.. خير من يعرف رسول الله ﷺ.. في صباحه وبعد نبوته.. سمع بالخبر.. ف جاء لرسول الله ﷺ. وقال: له: (أشهد أنك رسول الله)^(١).

قريش تطلب الدليل

للتعجيز.. لإثبات أن رسول الله ﷺ يكذب ولو لمرة واحدة يلوثون بها تاريخه النقي كأثمار الجنة.. طلبت قريش دليلاً على ما يقوله ﷺ.. فأخبرهم بقافتهم القادمة ووصفها لهم. لكن هذا الأمر يتطلب الانتظار.. فليصف بيت المقدس فهو لم يره قط. يقول رسول الله ﷺ: (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي. وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم «يعني نفسه» فحانت الصلاة فأمتهم)^(٢) ويقول ﷺ: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر.. فحلا الله لي بيت المقدس.. ففطقت

(١) حديث صحيح رواه البيهقي والبخاري (٣٥/١) وقال البيهقي: إسناده صحيح وليس كما قال، بل فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وهو صدوق في نفسه إلا أنه كما قال الحافظ: يهيم كثيراً، التقريب (٥٤/١)، وضعفه ليس بالشديد وله شاهد صحيح عند أبي يعلى (١٢٦/٧)

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان - ذكر المسيح).

أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه^(١) ويقول ابن عباس: (قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. فقال رسول الله ﷺ: (فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه وكان مع هذا لم أحفظه). فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب)^(٢).

أما قافلة العير فساحت في بطحاء مكة.. تنشد الشعر والحداء..
حملة بأقوال تبشر بصدق معراجهم. بصدق امتطاء البراق.

فابتهجت قلوب المؤمنين.. وتهللت وجوههم.. وانصرف الشامتون
يجرون خيبتهم.. ويجترون جمرأ.. إنهم لم يروا محمداً إلا متجدداً طاهراً نقياً
لا شائبة فيه.

فرض الصلاة

كان ذلك بعد الإسراء مباشرة، نزل جبريل، وعلم رسول الله ﷺ
أوقات الصلاة، عند الكعبة مرتين يقول ﷺ: («أمني جبريل عند البيت
مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، وكانت قدر الشراك.
وصلى بي العصر حين كان ظله^(٣) مثله.

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان - ذكر المسيح).

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٦٣) من طريق عوف عن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس، وعوف هو ابن أبي جميلة، وهو ثقة كان يقال له: عون الصدوق (التهذيب ١٦/٨) وشيخه زرارة بن أوفى العامري الحرشي، تابعي ثقة عابد، مات فجأة وهو يصلي. التقريب (١/٢٥٩).

(٣) مثله في الطول أي في زاوية (٤٥).

وصلى بي المغرب حين أفطر^(١) الصائم

وصلى بي العشاء حين غاب الشفق.

وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم^(٢).

فلما كان من الغد: صلى بي الظهر حين كان ظله مثله.

وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه.

وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم

وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل.

وصلى بي الفجر فأسفرت^(٣) ثم التفت إلي وقال: يا محمد هذا وقت

الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين «^(٤)»^(٥).

وكانت الصلاة بمكة (ركعتين.. ركعتين)^(٦).. كل صلاة ركعتان إلا

المغرب فثلاث ركعات.. حملها ﷺ إلى أصحابه.. علّمها إياهم زاداً

مفروضاً يريحهم بها ساعات الضيق والضنك.. تعيد تنظيم أوقاتهم كما

أعاد التوحيد نظام حياتهم. وكان ﷺ في بعض الأوقات يسير نحو الكعبة..

يعبد الله عندها.. ويؤدي هذه الصلوات هناك. لكن ذلك لم يعجب

طواغيت قريش.. لم يرق لهم ما يفعله هذا النبي الجريء الذي يتحدى

(١) وقت غروب الشمس.

(٢) فيه فائدة حول وقت السحور. وكان ذلك في أول الأمر.

(٣) يقول ﷺ في الحديث الصحيح: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر». صحيح الجامع

(٢٣٧/٥).

(٤) أي وقت كل صلاة ما بين الوقتين اللذين أداها بينهما.

(٥) حديث صحيح. انظر المصدر السابق (٤٦٣/٥).

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٧/١) عن عائشة رضي الله عنها.

بصلاته أصنامهم وحجارتهم وأخشابهم التي يسمونها آلهة. لقد حرك ذلك التحدي شهوة الانتقام لدى المشركين.. وجدد محاولاتهم السابقة للإيذاء والتنكيل بل والقتل.. وقد تكفل بهذه المهمة طاغوت قريش وفرعون الأمة.

أبو جهل يمنع الصلاة

عندما نفخ صدره أمام أشباهه يوماً ثم نفث سماً قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل.. لأخذته الملائكة)^(١).

ثم مشى ﷺ إلى بيت الله واثقاً من وعده.. وصلى وركع وسجد.. فعلم أبو جهل فمر برسول الله ﷺ فقال: (ألم أنك عن أن تصلي يا محمداً؟! لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني. فانتهره النبي ﷺ فقال جبريل: فليدع ناديه، سندع الزبانية، والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية العذاب)^(٢).

لكن أبا جهل كان حاقداً على النبوة.. حاقداً على صاحبها لأنه ليس من أهل بيته.. لأنها ليست فيهم.. فليحطمها.. وليحطم صاحبها.. أبو جهل كان طافحاً بالحقد.. مشوياً بجمر الحسد.. يكاد يحنق.. كأن محمداً ﷺ وأتباعه داخل صدره القاتم يمنعون عنه الهواء ويحطمون أضلاعه. عقد حاجبيه واسودت الدنيا أمامه (فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليظاً

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤/١٨٩٦).

(٢) إسناده صحيح، رواه البيهقي (٢/١٩٢) وأحمد والترمذي، من طريق: داود بن أبي هند عن عكرمة، عن ابن عباس، رواه ابن أبي هند القشيري بالولادة، مصري ثقة متقن بالتقريب (١/٢٣٥) وشيخه هو التابعي المعروف مولى ابن عباس وعكرمة.

على رقبته، فما فحشهم^(١) منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخدقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاحتطفته الملائكة عضواً عضواً». وأنزل الله عز وجل^(٢): ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ ﴿٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٨﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿٩﴾ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٠﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١١﴾ فَلَئِنَّ نَادِيَهُ ﴿١٢﴾ سَدَّعَ الزَّيْرَانِيَةَ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدَ ﴿١٤﴾ وَاقْتَرَبَ ﴿١٥﴾﴾^(٣).

فامتثل ﷺ وسجد رغم أنف أبي جهل وأنوف من معه..

لقد كان ما حصل لأبي جهل رادعاً له لو كان له قلب.. لو كان يظن أن محمداً يكذب.. لكنه كان يشرك بالله عن علم ودراية.. عناداً وتجوراً وغروراً بما لديه من نسب ومال.. ولهذا وأمثاله جزاء رادع.. في يوم لا ينفع المال ولا البنون وفي أمثال هذا نزل الوحي من السماء: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخَطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا آذْرُوكَ مَا الْخَطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾^(٤).

يضعون السلا على ظهره

شاهدتهم عبد الله بن مسعود فلم يستطع فعل شيء.. كان محطم

(١) باغتهم دون توقع لهذا التصرف.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب المنافقين).

(٣) سورة العلق.

(٤) سورة الهمزة.

القلب واليدين وهو يشاهد حبيبه ﷺ (يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نخرت جزور^(١) بالأمس. فقال أبو جهل:

أيكم يقوم إلى سلا جزور «بني فلان» فيأخذه. فيضعه على كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم، فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر - لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ - والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جويرة - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا.. دعا ثلاثاً، وإذا سأل.. سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ:

«اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش».

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ:

«اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع ولم أحفظه»^(٢). استنفذ ﷺ - دون يأس - كل الوسائل ف:

لم يبق إلا الدعاء

قريش أصبحت جداراً.. أم القرى لهيب نار.. اليوم صوتها رمضاء..
دروها عماء.. دروها حبال.. حصار فوقه حصار.. تلبد الحصار كالجبال
كالمحال.. لكنه الإيمان.. نبض الموحدين يعضغ المحال.. وفي السماء قطرة

(١) الجزور من الإبل يطلق على الذكر والأنثى والمراد به هنا سلا الأنثى من الإبل.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والسير، والبيهقي (٢٨/٢) واللفظ له.

ستغسل الجبال.. ستزرع الحياة في القلوب.. في كل حبة من الرمال..

البحث عن الأنصار

بعد أن أصبحت قريش جداراً من العناد والحصار.. جد ﷺ في البحث عن أنصار يحملون دين الله بقلوبهم.. يفتش عن أرض وصدور أرحب.. ولذلك: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خير السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خير السماء، وأرسلت علينا الشهب قال: ما حال بينكم وبين خير السماء إلا ما حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث.

فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خير السماء. فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خير السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم. فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجيباً، يهدي إلى الرشد فأمننا به، ولن نشرك بربنا أحداً وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لِنَاقِلِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنَ بَيْعَتُ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن

يَسْمِعَ الْآنَ يَجِدْ لَهُمْ شِهَابًا رَصَدًا ﴿١٤﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ
رَهُمُ رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١٦﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَن
تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٧﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ
بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٨﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَلِيسُطُونَ فَمَن أَسْلَمَ
فَأُولَئِكَ نَحْرَوُا رَشَدًا ﴿١٩﴾ وَأَمَا الْقَلِيسُطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿٢٠﴾ وَالْوِ اسْتَقْفُمُوا عَلَى
الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿٢١﴾ لِنَفِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿٢٢﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٢٣﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ
كَادُوا يُكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا
﴿٢٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿٢٩﴾ قُلْ إِن
أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُمُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٣٠﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى
غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣١﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِنَ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا
﴿٣٢﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٣٣﴾ (١).

إذا فقد سمع الجن واستمعوا.. ورسول الله ﷺ لا يدري باختلاط
الجن من حوله واضطرابهم.. ثم إنصاتهم وخشوعهم.. فمع خيوط الفجر
كانوا قد انحدروا.. ومع طيوره وأنسامه كانوا قد (هبطوا على النبي ﷺ،
وهو يقرأ القرآن (بيطن نخلة).. فلما سمعوه قالوا(٢):

أنصتوا صه.. وكانوا تسعة أحدهم (زوبعة) فأنزل الله عز وجل:
﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا

(١) سورة الجن.

(٢) الفتنة: الامتحان والابتلاء.

فُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا بَعْدَ
 مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِنَّا لَطَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا
 دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَقْبَلْ لَكُمْ مَن دُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا
 يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ
 مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ (١)

هذه الآيات نزلت.. ونزل غيرها فيما بعد تبشر رسول الله ﷺ بأن
 له أتباعاً لا يراهم ولا يسمعونهم.. ليسوا من الملائكة.. ولا من البشر..
 بل هم من الجن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ
 وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُونِ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٣﴾ (٢)

ومحمد ﷺ نبي للإنس والجن، وقد أمره الله بأن يلتقي بوفد من
 الجن.. في ليلة بحث الصحابة فيها عن حبيبهم ﷺ فلم يجده.. ووجدوا
 الحزن والخوف في كل مكان يفتشونه.. في كل مكان يقصدونه.. حتى
 ظنوا أن أيدي المشركين تخطفته وفتكت به.. تلك ليلة كالحداد.. تحدث
 عنها ابن مسعود فقال:

(كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة.. ففقدناه، فالتمسناه في الأودية
 والشعاب.. فقيل: أستطير؟! اغتيل.

فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء.
 فقلنا:

فقدناك فطلبناك، فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني
 داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن.

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٥٦-٥٨.

فانطلق ﷺ بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد.. فقال ﷺ: كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً^(١)، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم..

قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بها فإنها طعام إخوانكم»^(٢). هذه ليلة لم يحضرها أحد، لم يشهد أحداثها سواه ﷺ، لكن هناك ليلة أخرى.. أحب ﷺ أن يكون له فيها رفيق من صحبته. فكان عبد الله بن مسعود الذي يقول:

(قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل.

فلم يحضر منهم أحد غيري.. فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ.. ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن.. فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط. ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني، فقال: ما فعل الرهط قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم)^(٣).

(١) أي إن العظام التي يذكر اسم الله عليها عند أكل لحمها تعود كما كانت للجن.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٣) حديث حسن، رواه ابن جرير (تفسير ابن كثير ١٦٤/٤) من عدة طرق عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري عن ابن عثمان بن شبة. والصحيح: ابن سنة كما قال الحافظ عن ابن مسعود، وفي هذا الإسناد علتان، الأولى: رواية يونس عن الزهري، فيونس وإن كان ثقة إلا أن روايته عن ابن شهاب فيها وهم قليل، والتابعي ابن سنة لم يوثق، لكن له طريقان يرتقي بهما إلى درجة الحسن، هما: جرير عن قابوس عن أبي ظبيان عن أبيه عن

هذه هي قصته ﷺ مع الجن.. سمعوه وهو يصلي في طريقه إلى عكاظ.. ثم التقى بهم مرة.. وأخرى.. وربما ثالثة ورابعة.. لقد أمر ﷺ بإرشادهم.. بإنقاذهم من عوالم الشرك التي تموج ولا نراها.. لكنه لم يؤمر بالاعتماد عليهم.. ولا بإقامة علاقة بينهم وبين أصحابه.. فكلُّ يدعو في مجاله.. وكل يتوهج في ميدانه.. هنا عالم للإنس وهناك عالم للجن.. وما يهمنا هو عالمنا.. فماذا فعل ﷺ بعد أن فرغ من صلاته متجهاً نحو عكاظ؟

في عكاظ

وصل ﷺ إلى عكاظ تتبع القبائل.. دخل خيامهم وبشرهم ودعاهم.. كل القبائل دون استثناء.. بني عبس.. وكندة.. وبكر بن وائل.. وبني عامر بن صعصعة.. وبني حنيفة.. وغيرهم.. فكانت بعض القبائل تصرفه بلطف.. والبعض بعنف.. وهناك من يشتمه ويسبه ويتهمه.. وكان خلف ذلك الرفض أكوام الوصايا تحذر من فتى قريش ﷺ. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الحاج في منازلهم، في المواسم: مجنة، وعكاظ ومنازلهم بمعنى: من يؤوييني وينصربي حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مصر، أو من اليمن، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه، فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك. يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله

ابن مسعود، وهذا الطريق حسن لذاته وقد مر معنا تخريجه.. كذلك طريق آخر عند أبي نعيم. انظر تفسير ابن كثير (١٦٤/٤) وانظر تخريج الأحاديث التي جمعتها في تخريج أحاديث السيرة.

عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله عز وجل له من
يثرب^(١).

عشر من السنين يرفع الخباء.. يشع في الخيام كالشموس كالضياء..
يحط كالأمطار كالربيع والظباء.. لينعم الجميع.

كان ﷺ لطيفاً لنا في حديثه.. يحترم من أمامه.. ويدعوه بأحب
الأسماء إليه. ها هو في لقاء مع رجل من:

همدان

فبينما (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول:
هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز
وجل، فاتاه رجل من همدان، فقال الرسول ﷺ: ممن أنت؟

فقال الرجل: من همدان.

قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟

قال الرجل: نعم.

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: آتيهم
فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل، قال ﷺ: نعم. فانطلق^(٢).. أهذه

(١) هو قطعة من حديث صحيح سيمر معنا عند لقاء الأنصار.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (الفتح ٢٠/٢٦٨) وأصحاب السنن والحاكم وأبو نعيم من طريق: إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر. وسالم ثقة تابعي سمع من جابر. انظر جامع التحصيل (٢١٧) والتقريب (١/٢٧٩) وعثمان بن المغيرة، الثقفي بالولاء، قال أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، والنسائي، والعجلي، وابن نمير، وعبد الغني بن سنيد كل هؤلاء قالوا عنه: ثقة. التهذيب (٧/١٥٥) وإسرائيل بن يونس ثقة معروف. التهذيب (١/٢٦١).

الدرجة بلغ الخوف من القوم؟! أهذه الدرجة صحراء العرب موحشة وقاسية على هذا النبي ﷺ وعلى أصحابه المساكين؟! كأنهم سيتحالفون مع الموت.. مع الفناء.. أما لهم عقول!.. أم تحولوا إلى صخور؟ ومع ذلك لا يأس.. يعود ويدها خالية منهم.. وهم العالم يدور برأسه.. يعود إلى بيته حيث لا خديجة.. لا زوجة تمسح الجراح.. تبادل الحب والحنان.. يتذكر خديجة في بيته الذي يفقدها.. يتذكر خمسة وعشرين عاماً من الحب عاشها معها.. ولا يعرف من تلك الطاهرة إلا ما يتلج صدره ويهجه.. ما ذكر امرأة غيرها.. ولا طرق باباً للزواج بعدها.. كأنها لم تمت.. لكن إرادة الله كانت وحيماً في المنام.. ورؤيا الأنبياء وحي ينتصب حقيقة على الأرض.. فما الذي جرى في المنام.

فتاة وحرير

كان ﷺ نائماً.. فجاءه في المنام رجل مرتين.. يحمل ابنة صاحبه الصديق أبي بكر عائشة رضي الله عنها. يحملها (في سرقة من حرير^(١)) فيقول: هذه امرأتك. فأكشفها فإذا هي أنت^(٢). فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه^(٣).

الزواج بعائشة وسودة

كانت هذه الرؤيا وحيماً من الله مَنْ به على رسول الله ﷺ.. فضلاً منه لم يسع إليه ﷺ.. بل ساقه إليه.. تقول عائشة رضي الله عنها: (لما

(١) قطعة حسنة من الحرير.

(٢) يخاطب ﷺ في هذا الحديث زوجته عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (١٩٥٣/٥). ومعنى يمضه: أي يتمه.

ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون. قالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال ﷺ: «من؟» قالت: إن شئت بكرة وإن شئت ثيباً. قال ﷺ: «فمن البكرة؟» قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال رسول الله ﷺ: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول. قال ﷺ: «فاذهبي فاذكريها علي».

فدخلت بيت أبي بكر، فقالت:

يا أم رومان^(١) ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة. قالت أم

رومان:

وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت أم رومان:

انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر. فقالت: يا أبا بكر ماذا

أدخل عليكم من الخير والبركة. قال: وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال أبو بكر:

وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسول الله ﷺ،

فذكرت له ذلك. قال ﷺ: «ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك، وأنت

أخي في الإسلام، وابتك تصلح لي».

فرجعت فذكرت ذلك. قال أبو بكر: انتظري -وخرج- قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان

ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

بكر رضي الله عنه على مطعم بن عدي، وعنده امرأته -أم الفتي^(١)- فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصب^(٢) صاحبنا - مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر للمطعم بن عدي:

أقول هذه تقول؟ قال المطعم: إنها تقول ذلك^(٣). فخرج من عنده، وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ. فدعته، فزوجها إياها -وعائشة يومئذ بنت ست سنين- ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة، فقالت: ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة. قالت سودة: وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه، قالت: -وودت- ادخلي إلى أبي فاذكري ذاك له -وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن قد تخلف عن الحج- فدخلت عليه، فحييته بتحية الجاهلية^(٤). فقال:

من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم. قال:

فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة.

قال:

كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قلت:

(١) أي أم الفتي التي خطبت له عائشة.

(٢) الصابي عند المشركين هو من ترك دينه وقد خافت أم الفتي أن يدخله أبو بكر في الإسلام بعد زواجه من عائشة.

(٣) جاء في رواية أن المطعم (أقبل على امرأته فقال لها: ما تقولين، فأقبلت على أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتي إليك تصبئه وتدخله في دينك؟ فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟ فقال المطعم: إنها لتقول ما تسمع. فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء. انظر سيرة الذهبي (٢٨١).

(٤) في رواية عند الذهبي: فقلت له: أنعم صباحاً.

تحب ذلك. قال: ادعيها إلي. فدعتها. قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفاء كريم. أتحيين أن أزوجك به؟ قالت سودة: نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله ﷺ إليه، فزوجها إياه. فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجعل يحشي في رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة^(١).

ودخلت سودة بنت زمعة بيت رسول الله ﷺ، أول امرأة بعد خديجة.. وكانت مثل خديجة قد سبق لها الزواج برجل قبل رسول الله ﷺ، وربما كانت أسن منه.. أما عائشة رضي الله عنها فقالت:

(تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بستتين وأنا بنت سبع سنين)^(٢). ودخل ﷺ على سودة.. لكنه لم يدخل على عائشة في مكة أبداً.. أما سودة فالتحقت ببيته ﷺ.. تصلح من شأنه وترعاه وتزيح عنه الكدر والأذى الذي يلاحقه في شوارع مكة كظله.

عروس ولكن

أصبح ﷺ عروساً يبتهج بحياته الجديدة كما تبتهج زوجته به.. لكنهما عريسان للكفاح.. للنضال.. يريدان جعل الأرض كلها أعراساً

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (الفتح ٢٣٧/٢٠). محمد بن عمرو، قال: حدثنا أبو سلمة ويحيى قالوا: وظاهره الإرسال لكنه جاء متصلاً كما في سيرة الذهبي حيث قال يحيى بن عبد الرحمن بن خاطب: قالت: عائشة. وهو ممن روى عنها وروى عن غيرها من الصحابة وسبب كون الإسناد حسناً هو محمد بن عمرو بن علقمة فهو حسن الحديث. وقد جاء الحديث متصلاً عند الطبراني (٢٣/٢٤).

(٢) تزوجها في مكة لكنها لم تزف إليه ﷺ إلا في المدينة، والحديث رواه البخاري ومسلم.

وأفراحاً.. لكن كيف يتم ذلك والأصنام أطناب خيمة تمنح السواد.. عن الأرض تمنع الضياء.. تحرم العباد نشوة الحياة.. تملأ الطريق نحو الله بالوحوش.. وبالغيلان والهوام.

حمل ﷺ ثياب عرسه واتجه نحو تجمعات القوم من جديد.. فلن يكون للعرس لذة والناس محرومون من لذة الإيمان فالتوحيد كالماء كالهواء.. لا بد أن يدخل كل بيت ويعمر كل قلب.. وعلى حامله أن يحفر القناة بمعوله بيديه بأظفاره فالتناس عطاش والأرض جفاف.

اتجه ﷺ إلى قبائل العرب.. يرافقه أبو بكر الصديق.. وابن أخيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.. فكانت هذه القصة المنسوجة بالأشعار والأنساب:

في خيام ربيعة

يقول علي رضي الله عنه:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، وأنا معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم، أبو بكر وكان مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نساباً - فسلم، وقال: ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال أبو بكر: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها، أي من لهازمها^(١)؟

فقالوا: من الهامة العظمى.

(١) اللهزمة عظم في اللحي تحت الحنك. أي من أشرافها.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وأي هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا: من
ذهل الأكبر؟ قال أبو بكر:

منكم عوف الذي يقال له: لا حر بوادي عوف؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم جساس بن مرة، حامي الذمار^(١) ومانع الجار؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم الحوفزان، قاتل الملوك، وسالباها أنفسها؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم المزدلف، صاحب العمامة الفردة؟ قالوا:

لا. قال: أخوال الملوك من كندة؟ قالوا:

لا. قال: أصحاب الملوك من لحم؟ قالوا:

لا. قال: فلستم من ذهل الأكبر، أنتم من ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام من بني شيبان يقال له «دغفل» حين تبين وجهه
فقال:

إن على سائلنا أن نسله والعبو لا نعرفه أو نجعله

يا هذا.. قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً، فممن الرجل؟

قال أبو بكر: أنا من قريش.

فقال الفتى: بخ.. بخ أهل الشرف والرياسة. فمن أي القرشيين أنت؟

قال أبو بكر: ولد تيم بن مرة.

فقال الفتى: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أمنكم قصي^(١)

(١) أي ما يحمي كالأهل والعرض والمال.

الذي جمع القبائل من فهر، فكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال أبو بكر:
 لا. قال: فمنكم هشام^(٢) الذي هشم الثريد لقومه، ورجال مكة مستنون
 عجاف. قال: لا. قال: فمنكم شيبه الحمد: عبد المطلب^(٣) مطعم طير السماء
 الذي كان وجهه القمر يضيء في الليلة الداجية؟ قال أبو بكر: لا.

قال: فمن أهل الإفاضة^(٤) بالناس أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل الحجابة^(٥) أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل السقاية^(٦) أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل الندوة^(٧) أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل الرفادة^(٨) أنت؟ قال: لا.

فاجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام الناقة، راجعاً إلى رسول الله
 ﷺ، فقال الغلام:

صادف در السيل دراً يدفعه يهضبه حيناً وحيناً يصدعه

(١) جد النبي ﷺ.

(٢) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٣) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٤) انصراف الحجاج من عرفات.

(٥) حجابة الكعبة.

(٦) السقاية: حياض كانت على عبد قصي توضع بفناء الكعبة. يسقى فيها الماء العذب
 للجميع.

(٧) دار الندوة التي كانت قريش تقضي فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من غير أولاد قصي إلا
 من بلغ أربعين سنة.

(٨) الرفادة: أموال تخرجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج.

أما والله لو ثبت لأخبرتكم من قريش، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال علي: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. قال أبو بكر: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة، إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق.

وعند مفروق وقومه

قال علي رضي الله عنه:

ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم.

فقال: ممن القوم؟ قالوا:

من شيان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر الناس، فيهم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غدירתان تسقطان على تربيته^(١)، وكان أدنى القوم مجلساً، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق بن عمرو:

إننا لتزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر:

كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال المفروق:

إننا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإننا لنؤثر الجياد على الأولاد،

(١) عظم الصدر.

والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدلنا^(١) مرة، ويدي علينا
أخرى، لعلك أخا قريش؟

فقال أبو بكر: قد بلغكم أنه رسول الله؟ ألا هو ذا. فقال مفروق:

بلغنا أنه يذكر ذاك، فيألي ما تدعو يا أخا قريش، فتقدم رسول الله ﷺ،
فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقام رسول الله ﷺ:

«أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله لا شريك له.. وأن محمداً
عبده ورسوله، وإلى أن تؤوبوني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر
الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله الغني الحميد».
فقال مفروق ابن عمرو:

وإلامَ تدعوننا يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟
فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا
بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ^(٢) تَحْنُ تَرزُقُكُمْ
وَإِيْسَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال مفروق بن
عمرو:

وإلامَ تدعوننا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض. فتلا
رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ فقال مفروق:

دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال،

(١) أدل الإنسان بحجته: احتج بها وأحضرها.

(٢) الفقر.

ولقد أفك^(١) قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا. فقال هانئ بن قبيصة: لقد سمعت مقاتلتك يا أخا قريش، إني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر أنه زلزل في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن يعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر، وكأنه أحب أن يشركه المثني بن حارثة فقال: وهذا المثني بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا فقال المثني بن حارثة: سمعت مقاتلتك يا أخا قريش، والجواب في جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتك على دينك، وإنما نزلنا بين صريين اليمامة والسمامة، فقال رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان. فقال المثني:

أهأار كسرى، مياه العرب، فأما ما كان من أهأار كسرى فذنب صاحبه مغفور، وعنده مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعوننا إليه يا قرشي مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصررك مما يلي مياه العرب. فعلنا، فقال رسول الله ﷺ:

ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاظه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم. أتسبحون الله وتقدسونه، فقال النعمان بن شريك:

اللهم فلك ذلك. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً

(١) كذب.

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٧﴾. ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر وهو يقول:

يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بما يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبما يتحاجزون فيما بينهم، قال علي رضي الله عنه:
فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا، حتى بايعوا رسول الله ﷺ،
فلقد رأيت رسول الله ﷺ وقد سر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم^(١).

إِذَا

ففي خيمة المفروق لا عطاء.. لكن مجلس المفروق كان آخر الأحزان.. لم يحث في الوجوه.. شتماً ولا تراباً.. رطباً طرياً كان مجلس

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٢) إسناده جيد، رواه البيهقي في الدلائل (٤٢٢/٢) واللفظ له، وأبو نعيم (٢٨٢) من طرق عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:.. وأبان بن تغلب الربيعي، أبو سعد الكوفي، ثقة قال أحمد بن حنبل: ثقة، وقال ابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: ثقة، وقال النسائي: ثقة، لكنه قد عرف بالتشيع، وتشيعه من النوع الذي يقول عنه الحافظ: (التشيع في عرف المتقدمين: اعتقاد تفضيل علي على عثمان.. ثم قال: وأما التشيع في عرف المتأخرين فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافض الغالي ولا كرامة) وهذا الرجل ليس من الرافضة، بل ممن ينطبق عليهم التعريف الأول، ولذلك قال الحافظ نفسه عنه في تقريب التهذيب (٣٠/١): أبان بن تغلب أبو سعد الكوفي ثقة تكلم فيه للتشيع. انظر التهذيب (٩٤/١) وشيخه عكرمة مولى ابن عباس: ثقة مر معنا كثيراً.

وقد تكلمت عن الحديث وطرقة بأطول من هذا في (تخريج أحاديث السيرة) عند تخريجي له. وقد قال الحافظ في الفتح: وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن. انظر فتح الباري (٧١/١٥) وقول القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن.

المفروق.. يوحى بأن في الصحراء.. قلباً وماءً.. نبعاً يرطب العروق..
يشدها نحو السماء.

لقاء الأنصار

دفع ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى خيام الأوس والخزرج.. القادمين من حرة يثرب.. فكان لقاء الغرباء بالغرباء.. جدد الدنيا.. وحول التاريخ.. وأعاد إلى الإنسانية مكانتها وقيادتها التي كادت تهلك دونها. (لما لقيهم رسول الله ﷺ. قال لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك، وأصحاب أوثان فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالت اليهود: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم^(١). فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم اعلموا والله أن هذا الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لما دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

(١) أرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة كبيرة لهم. وهذه العبارة لا تزال موجودة في تسوية اليهود حتى اليوم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا^(١). ولما وصلوا إلى يثرب.. تسللوا إلى قلوب بعض قومهم.. فاستجابوا لهم وأسلموا.. فصار في تلك الديار من يعبد الله وحده لا شريك له.. ويصلي على رسول الله ﷺ.. فلما كان موسم الحج التالي قدمت مطايا يثرب من المشركين تحج مكة.. وكان بين الركب مطايا للموحدين.. وفد يثرب من الأنصار مشوا إلى رسول الله ﷺ بعد انقضاء شعائر الحج.. غسلوا أيديهم من دماء الثارات والعنف الجاهلي بماء زمزم الطاهر.. غسلوها ومدوها لرسول الله ﷺ طاهرة.. يباعونه ليلاً.. وعيون مكة نائمة عما يجري على أرض العقبة.

العقبة الأولى

وعندما رأى ﷺ أيديهم تصل إليه إذعانا وامثالاً لله ورسوله.. قال لهم: (تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)^(٢).

فبايعوه وشدت الأيدي للنهوض بالحق وبذله للجميع لشعوب الأرض جميعاً. والرجال المبايعون في العقبة الأولى كانوا قليلاً.. يقول

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه البيهقي (٤٣٣/٢) وأبو نعيم (٢٩٨) والطبراني قال ابن إسحاق: حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه: لما لقيهم، وهذا يعني أن الأشياخ هم الذين قابلوا رسول الله ﷺ أي أهم من الصحابة، وعاصم بن عمر روى عن بعض الصحابة، وهو تابعي ثقة. فالإسناد صحيح.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري - مناقب الأنصار، ومسلم (الحدود).

أحدهم وهو عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً)^(١) حملها الأنصار وابتهجوا بها، وكانت فخرهم عندما يلوح الرجال بإيجازهم أمام الجميع.. يقول أحدهم وهو كعب بن مالك: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة، حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)^(٢).

ومن شهد العقبة: جابر بن عبد الله الأنصاري القائل: (أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة)^(٣) والقائل: (شهد بي خالاي العقبة)^(٤).

تلك بيعة حطمت جدراناً سوداء تحجب عن الدنيا أنواراً للأخرة.. بيعة توقظ.. بيعة تهز هذا الإنسان الرث المتحرف بقشور السنين المظلمة.. تقول له: هذا ربك فاعبده وحده.. وأنت خليفته وسيد كونه. فاجعله ربيعاً يتسم. وهذا مالك منثور في كل مكان.. اجث عنه والتقطة.. ودع غيرك يبحث ولا تمدن يديك إلى ما في أيدي الغير.. حتى تكون خليفة حقاً.. وسيداً للكون أيضاً. وتزوج فالحب أنفاس الحياة.. فلا تلوثها برائحة البغايا المنتنة.

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٧/٢) حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله الزيني، عن عبد الرحمن بن عسيلة الصناجحي، عن عبادة بن الصامت، وفي هذا السند صرح ابن إسحاق والسماع من شيخه والثقة الفقيه يزيد وليد (تهذيب ٣١٨/١١) وشيخه مرثد تابعي ثقة فقيه (التهذيب ٨٢/١٠) وابن عسيلة رحمه الله رحل إلى رسول الله ﷺ فوجده قد مات، وقد وثقه العجلي (التهذيب ٢٢٩/٦).

(٢) حديث صحيح. (البخاري - مناقب الأنصار).

(٣) حديث صحيح. رواه (البخاري - مناقب الأنصار).

(٤) حديث صحيح. رواه (المصدر السابق).

إنها بيعة تلاحق ذلك الرجل المتجه كالغضب نحو المقابر.. تمسك به
وتمز كتفيه وتصرخ في وجهه:

ويحك قف ما هذا الذي تحمله على ظهرك قاصداً به نحو المقابر..
ويحك قف إنه ما زال حياً.. إنها ابنتك ونبض قلبك.. شريانك ودمك..
ماذا جنت حتى تهيل التراب عليها وهي شاخصة تبلبل لحيتك وقبرها
بدموع.. تناشدك شيئاً من حنان.. مبادئ عظيمة قبض عليها الأنصار
بأيديهم وحملوها إلى يثرب.. فلما أروها بعض قومهم قدموا إلى مكة
طمعاً في مثلها فكان:

(يأتيه الرجل، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون
بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين
يظهرون الإسلام^(١)). ويتهجون بتلك المبادئ التي غرسها في أعماقهم
هذا الدين المدهش حفظت لهم أعراضهم وأموالهم.. وأطفالهم وأذابت ما
بينهم من صداً الجاهلية.. كحبات المطر يمتزجون سيلاً يغيث الصحراء..
لا فرق بينهم جميعاً.. لكن أكرمهم عند الله أتقاهم ومع ذلك كانوا بحاجة
إلى معلم يقرأ عليهم كتاب الله.. فكان:

مصعب بن عمير في يثرب

لقد (بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، فيدعو
الناس بكتاب الله، فإنه أدنى أن يتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ «مصعب
ابن عمير» أخا بني عبد الدار، فترل في «بني غنم» على أسعد بن زرارة،

(١) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد (٢٠٠/٢٦٩ الفتح الرباني) والبيهقي (٤٤٢/٢) من
طريق: ابن خثيم عن أبي الزبير أن جابر حدثه: أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس ثقة من
رجال الشيخين وهو مدلس لكنه سمع من جابر هنا وعبد الله بن عثمان بن خثيم ثقة. قاله
النسائي وابن سعد والعجلي وزاد ابن معين: حجه.

فجعل يدعو الناس سراً، فيفشو الإسلام ويكثر أهله، وهم في ذلك مستخفين بدعائهم^(١).

غربة مصعب

لم تخل حياة هذا المعلم الغريب من المعاناة.. فهو بعيد عن مكة.. بعيد عن رسول الله ﷺ.. ظهره مكشوف للجميع.. لا يملك شيئاً.. لا أهلاً.. ولا مالاً.. ولا سلاحاً.. كل ما يملكه رسالة ربه.. هي زاده وهي سلاحه.. يقتحم الأهوال بها.. لا يأبه إن ضرب أو مات فما خرج من مكة يبحث عن حطام الدنيا.. بل كان يتحسس حطام القلوب والأرواح.. ليجمعها من جديد.. كان يحمل الحياة في هوة الموت.. يردمها.. ثم يزرعها للجميع.. خضراء أشرفت يثرب بمصعب بن عمير.. لكن من يحملون في صدورهم صخوراً.. ساءتكم تلك البهجة وذلك الاخضرار.. فأخبروا سيذاً لهم ليضع للأمر حداً.. ولمصعب ومن معه نهاية يقفون عندها.. وكان اسم سيدهم هذا (سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمتهم^(٢) معه الرمح حتى وقف عليهم فقال لأسعد بن زرارة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب، يسفه ضعفاءنا بالباطل، ويدعوكم إليه، ولا أراكم بعدها بشيء من جوارنا. فرجعوا. ثم إنهم عادوا الثانية لبئر مرق^(٣) أو قريباً، فأخبر بهم سعد بن معاذ.. فتواعدهم

(١) حديث حسن بالشواهد وتخريجه في الحديث الذي يليه فهو جزء منه.

(٢) عدة الحرب.

(٣) بئر من آبار المدينة، وبداية هذا الحديث عند هذا البئر كما جاء في أول القصة: إن أسعد ابن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرق، أو قريباً منه، فجلسا هناك، وبعثا إلى رهط من أهل الأرض، فأتوهم مستخفين، فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم، وأخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمتهم، الرمح.. إلخ.

توعداً دون الوعيد الأول. فلما رأى أسعد بن زرارة منه لينا قال: يا ابن خالة اسمع من قوله، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه. فقال سعد:

ماذا يقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿حَمِّمُوا لَكُمْ وَأَلِكْتَبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿﴾ فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف. فرجع وقد هداه الله تعالى، ولم يظهر لهم الإسلام حتى رجع إلى قومه، فدعا بني الأشهل إلى الإسلام، وأظهر إسلامه، وقال: من شك فيه من صغير أو كبير، أو أنثى أو ذكر، فليأتنا بأهدى منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر لتحرز في الرقاب.

فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، إلا من لم يذكر، فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرهم، ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة، فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكانت المسلمون أعز أهلها، وصلاح أمرهم، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ^(١).

عاد المقرئ إلى معلمه ونبيه ﷺ يبشره بأن يثرب قد ملكت دروبها بحطام الأصنام.. يبشره بأن أبوابها مشرعة للشمس والهواء.. للقلوب المحبة

(١) سنده مرسل عند أبي نعيم (٣٠٦) وهو مرسل عروة، وروى مرسلًا عن الزهري، لكن للخبر شاهد عند ابن إسحاق (ابن هشام ٦٠/٢): حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقب، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وهذان تابعيان ثقتان ولبعض الخير شواهد صحيحة مر بعضها.

المبتسمة.. للأيدي تصافح.. يبشره بأن التوحيد - يغمر أجواء يثرب..
فلقد عادت الحياة إليها من جديد.

أما قریش فقد كانت أسوأ مما تركها عليه.. لقد تحولت في وجه
رسول الله وصحبه إلى سدود حديد صلبة.. وأقفال لا مفاتيح لها.. كان
المشركون صمتاً مخيفاً يفوح مكيدة وخبثاً.. أما الموحدون فكانوا صمتاً
متفائلاً ينتظرون لقاء الأنصار في العقبة الثانية.

حيرة بين الأقصى والكعبة

حان موعد الحج.. فتداعى الحجاج وسالوا من كل فج نحو بيت
رهم.. لكن الكعبة لم تكن تنتظر إلا وفداً قادماً من حرة يثرب.. فهم لا
يحملون أصناماً.. ولا يعلقون تماثم.. إنهم يحملون توحيداً يغسل الكعبة مما
علق بها من أرجاس الشرك.. الشاعر كعب بن مالك أحد هؤلاء
الموحدين يحمل شعراً يحمل طهراً ويحدثنا فيقول: (خرجنا في الحجة التي
بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا «البراء بن
معرور» كبيرنا وسيدنا، حتى إذا كنا بظاهر «البيداء» قال: يا هؤلاء
تعلمون أي قد رايت رأياً، والله ما أدري توافقون عليه أم لا، فقلنا: وما
هو يا أبا بشر؟ قال: إني قد أردت أن أصلي إلى هذه البنية^(١)، ولا أجعلها
مني بظهر، فقلنا: لا والله لا تفعل، والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى
الشام. قال البراء بن معرور: فإني والله لمصل إليها، فكان إذا حضرت
الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة، فقال لي
البراء بن معرور: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما
صنعت في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي. فخرجنا

(١) يعني يريد استقبال الكعبة عندما يصلي.

نسأل عن رسول الله، فلقينا رجلاً بالأبطح. فقلنا: هل تدلنا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقال: فهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه - ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ - فقال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب؟ فقلنا: نعم. وقد كنا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة - فقال: فإذا دخلتما المسجد فانظرا العباس، فهو الرجل الذي معه. فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا، ثم جلسنا، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال العباس: نعم. هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال العباس: نعم. فقال له البراء: يا رسول الله إني قد كنت رأيت في سفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه. قال ﷺ: «وما ذاك؟» قال البراء: رأيت أن أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها. فقال له رسول الله ﷺ: قد كنت على قبلة. لو صبرت عليها. فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ^(١).. ورجع هو ومن معه إلى رحال قومهم..

وفي أواخر أيام الحج هذه تجهز الأنصار لموعد رسول الله ﷺ السري في ليلة:

العقبة الثانية

يقول كعب بن مالك:

(وقد واعدنا رسول الله ﷺ العقبة أوسط أيام التشريق، ونحن سبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام «أبو جابر» وإنه لعلی

(١) انظر تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

شركه، فأخذناه فقلنا: يا أبا جابر، والله إنا ل نرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غداً حطباً، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد اعدنا رسول الله ﷺ للبيعة.

فأسلم وطهر ثيابه، وحضرها معنا، فكان نقيباً، فلما كانت الليلة التي اعدنا فيها رسول الله ﷺ. بمضى أول الليل مع قومنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا^(١)، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله ﷺ، وعمه العباس، ليس معه غيره، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فكان أول متكلم، فقال العباس: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وهو في منعة من قومه وبلاده، وقد منعناه، ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتكم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلاناً فتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشيرته وقومه. فقلنا: قد سمعنا ما قلت. تكلم يا رسول. فتكلم رسول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به والتصديق له، وقلنا له: يا رسول الله خذ لربك ولنفسك. فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم. فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم، والذي بعثك بالحق ما تمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة.. ورثناها كابراً عن كابر، فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا أقواماً جبالاً، وإننا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فقال

(١) نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

رسول الله ﷺ: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسألم من سالمتم، وأحارب من حاربتهم»، فقال البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً». فأخرجوهم له.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة.

وكان نقيب بن سلمة: البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام.

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع.

وكان نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت.

وفي الأوس من بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان.

ونقيب بن عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة.

فكانوا اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج.. وثلاثة من الأوس. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا^(١) فامتزجت القلوب والأيدي في مهرجان حب وولاء، تلك الأيدي كانت في تمازجها تخنق مخلوقاً مخيفاً لا يُرى ولا

(١) انظر تخريجه في نهاية هذا الخبر، وهو حديث صحيح.

يُسمع، حشته بيعة العقبة الثانية جمرًا محرقاً، فصرخ يدعو جيوشه المشركة لتطفئ ما به من حريق، لقد كان ذلك الصارخ هو عدو الإنسانية كلها:

الشیطان یصرخ

یحاول إيقاف غطيظ المشركين عليهم يتنبهون لما يجري حولهم. يقول كعب بن مالك: (فصرخ الشيطان على العقبة بأبعد -والله- صوت ما سمعته قط، فقال: يا أهل الجباب^(١)، هلاً لكم في مذمم^(٢)) -ما يقول محمد- والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ:

«هذا أذب^(٣) العقبة.. هذا ابن أزيب.. أما والله لأفرغن لك، ارفضوا^(٤) إلى رحالكم». فقال العباس بن عباد بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيفنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلة من قريش، فيهم: الحارث بن هشام فتى شاب وعليه نعلان جديدان، حتى جاءوا في رحالنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم، فانبعث من هناك من قومنا من المشركين، يخلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر بن عبد الله بن عمرو بن

(١) أسماء منازل بمعنى، وسميت به لأن كروش الأضاحي تلقى فيها أيام الحج. اللسان.

(٢) هكذا كان الحاقدون المشركون يسمونه ﷺ، فيقولون مذمماً بدلاً من محمد.

(٣) شيطان اسمه أذب العقبة.

(٤) ارفضوا، أي تفرقوا إلى رحالكم.

حرام - وهو صامت - وأنا صامت. فلما ثور القوم لينطلقوا، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام:

يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا، وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

فسمعه الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إلي، وقال: والله لتلبسنيهما. فقال أبو جابر: مهلاً أحفظت لعمر الله الرجل - يقول أحجلته - أردد عليه نعليه. فقلت: والله لا أردهما، فألّ صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنه^(١).

أما جابر بن عبد الله الأنصاري فيقص أحداث العقبة الثانية فيقول: (بعثنا الله عز وجل له ﷺ من يثرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله عز وجل واثمنا واجتمعنا - سبعين رجلاً منا، فقلنا: حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده، فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟

قال ﷺ: «بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٤٤٤): حدثني معبد بن كعب ابن مالك بن القين، أخو بني سلمة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك، قال: خرجنا في الحجة.. وهذا الإسناد صحيح شيخ ابن إسحاق، ثقة من رجال الشيخين فقد وثقه العجلي (٤٣٣)، وأخوه ثقة. انظر التقريب (١/٤٤٠). فقد قال الحافظ: ثقة يقال له رؤية.

النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً سناً، فقال: رويداً يا أهل يثرب. إنا لم نضرب إليه أكباد المطايا إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجهم اليوم: مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم^(١) السيوف، فإما أتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله عز وجل، فقلنا: أمط^(٢) يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها، فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة^(٣).

شمس جديدة كالذهب.. وصباح منعش كالطر.. ورواحل الأنصار تودع البطاح.. تحمل عهداً.. تحمل حباً لمحمد.. تنثر منه للتلال للكثبان.. تنعش به الأجواء.. تبشر به التائبين على صفحة الأرض كلها.

أما قریش فالأيام تزيد في جنونها، وطغاتها حارت بهم الدروب..

(١) أي تضربكم وتشدد عليكم.

(٢) أي أبعد.

(٣) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣٣٩/٣) والبيهقي (٤٤٢/٢) من طرق عن: عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير: محمد بن مسلم أنه حدثه جابر بن عبد الله.. وهذا الإسناد صحيح ابن خثيم ثقة. انظر التقريب (٤٣٢/١) وأبو الزبير تابعي مدلس لكنه صرح بالسماع من جابر وهو محمد بن مسلم بن تدرس وحديثه صحيح.

كلما أغاروا على مسلم ضعيف لم يجدوه.. لم يجدوا في بيته سوى الجدران.. سوى الرياح تنوح داخله باكية تبحث عن أحبتها فلا تجدهم، أما الأبواب فكانت تصطفق تضطرب كقلب عاشق مهجور.. فلن تعانق بعد اليوم تلك الأيادي المتوهجة بالوضوء. ما الذي حدث يا مكة.. ماذا فعلت بك تلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ:

رؤيا

رآها ﷺ، فأسر بها إلى أصحابه المثقلين بقيود قريش. قال لهم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان^(١)).. فهاجر من هاجر قبل^(٢) المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة. فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي». فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال ﷺ: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف^(٣) راحلتين كانتا عنده: ورق السمر^(٤) - وهو الخبط - أربعة أشهر^(٥).

جاءت هذه الرؤيا تبعث الأمل من جديد.. بعد أن ضاقت مكة واصطكت جبالها على الموحدين.. بعد أن أصبح الموت يتلصص عليهم.. يرقبهم في الزوايا والممرات متوثباً يريد الفتك بهم وبدينهم.. فلم المكوث في هذا الاختناق.

(١) الحرة أرض ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار.

(٢) نحو..

(٣) أطعمها العلف.

(٤) شجرة الطلح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

هجرة عمر بن الخطاب

وعياش وهشام

يقول رضي الله عنه:

(اتعدت لما اجتمعنا للهجرة أنا و «عياش بن أبي ربيعة» و «هشام ابن العاص»: الميضاة^(١) - ميضاة بني غفار - فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحبا.

فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف^(٢)، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما علينا المدينة، فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرق لها.. فقلت له: يا عياش.. والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت. قال عياش: إن لي هناك مالا فأخذه. قلت:

والله إنك لتعلم أبي من أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما فأبي إلا أن يخرج معهما. فقلت له لما أبي علي:

أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول^(٣) فالزم ظهرها، فإن رابك^(٤) من القوم ريب فانج عليها. فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطرق قال أبو جهل بن هشام:

(١) أي تواعدنا في مكان يقال له (الميضاة).

(٢) أي أرض قباء.

(٣) سهلة الانقياد.

(٤) أصابك الشك.

والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملي على ناقتك هذه. قال عياش: بلى. فلما أناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عديا عليه وأوثقاه، ثم أدخلاه مكة، وفتناه، فافتتن، فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١) قال عمر بن الخطاب: فكتبها في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى، أصعد بها وأصوب^(٢) حتى فهمتها، فألقي في نفسي أنما نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت، فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة^(٣).

يأس كاد أن يقضي على اثنين من رجال الإسلام.. كان عمر فيها بطلاً.. شهماً.. بعيد النظر.. يعرف من يكون طاغوت قريش الملقب بـ (أبي جهل) وما هي ألامعه.. لذلك مد يديه مفتوحتين يتناثر منهما ماله.. يبذله بسخاء افتدأء لأخيه من الجهول المخيف.. لكن أخاه كان

(١) سورة الزمر: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) صعد النظر أي نظر إلى أعلاه وصوبه أي خفضه.

(٣) رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٤—٢/٨٥) فقال: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال: اتعدت إنما أردتا الهجرة.. وهذا الإسناد صحيح ورجاله ثقات أعلام معروفون، وابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه نافع.

رقيق القلب تجاه أمه فصدق ما قيل له.. فتزل عمر عن راحلته ليركب أخوه عليها.. فإنها سريعة متى ما أحس بحاجة إلى الهرب.. وتمت التمثيلية.. ووقع عياش في الأسر والحزن.. وحاصرته جبال مكة حتى اقتربت من أضلاعه.. وطوته الأيام بالهموم والضياع.. حتى نزل الفرج من الله.. كلمات تشرح الصدور وتغرس فيها الآمال من جديد.. ولم يكن عياش وهشام وحدهما المأساة.. ف (أم سلمة) كانت حزناً يزحف في طريق الهجرة.. أم سلمة كانت غربة تبحث عن أرض كالحب.. كالأمان تحقق انتماؤها عليها.. أم سلمة امرأة حريصة.. هامت على وجهها تبحث عن حياة حقيقية تليق بمسلة مثلها لا ترضى بالذل ولا بالتخلف معها. ركب البحر إلى الحبشة بصحبة زوجها العظيم (أبي سلمة رضي الله عنهما).. وركبته ثانية عائدة إلى مكة بعد أن لاح في الأفق أمل للحرية في أجواء مكة.. عادت وزوجها.. فوجدا مكة أكثر ظلمة.. وأكثر أنياباً.. ولما سمعا بأن في حرة المدينة أذرعاً وقلوباً مفتوحة وشمساً مشرقة.. التفتا إليها لعل هذا لهم ينفض عن قلبيهما.. وسارا نحو مدينة الإسلام الجديدة لا يعلمان ماذا تخبئ الجبال خلفها.. ولا أي حزن كانت تغطيه رمال الطريق.

مأساة هند

تقول رضي الله عنها:

(لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بغيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني «سلمة بن أبي سلمة» في حجري، ثم خرج بي يقود بي بغيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيتك صاحبتك هذه، علام نتركك

تسير بها في البلاد؟ فترعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد «رهط أبي سلمة»^(١) فقالوا:

لا والله، لا تترك ابنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.. فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسي بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.. ففرق بي وبين زوجي وبين ابني.. فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي: سنة أو قريبا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمي، فقال لبني المغيرة:

ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. فقالوا لي:

الحقي بزوجك إن شئت. ورد بنو عبد الأسد - أي عند ذلك ابني، فارتحلت ببعيري ثم أخذت ابني فوضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.. أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان^(٢) بن طلحة بن أبي طلحة - أخا بني عبد الدار - فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا. قال: والله ما لك من مترك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي.. ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت أستأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها،

(١) أي قومه.

(٢) أسلم هذا الشهم فيما بعد.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال:
اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى
يترل بي. حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو ابن عوف
بـ (قباء) قال:

زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخلها على
بركة الله، ثم انصرف. فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول:

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب أبا سلمة، وما
رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة^(١). في غربة الدروب
والأسفار لا طفل.. لا حبيب.. لا ظل.. لا أشجار.. عام بلا نهار.. عام
بلا نهار.. في الأبطح المزروع بالرماح والقضبان.. هند تموت.. في كل
ساعة تموت.. والشرك شرطة تحاصر الأنفاس.. وترفض العبور تقفل
المكان.. وتفصح الطريق عبر غابة الأكفان. للحزن والرمضاء والزممام..
عثمان يخطف الزمام.. وينقش الشهادتين والوعود.. كي يعود.. لأنهر
الحياة والإسلام.. لا بد أن يعود..

فإن بين جوانح هذا الشهم إسلاماً مكتوف اليدين.. يحتاج إلى
شرارة تحرق قيده.. وتزيح ركام الجاهلية الجاثم على أنفاسه.

(١) رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٨٠/٢) وقد صرح بالسماع من والده فقال: حدثني أبي
يسار، عن سلمة بن عبد الله عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، قالت: في هذا السند
والد ابن إسحاق وهو إسحاق بن يسار وهو ثقة.. انظر التقريب أما سلمة فهو تابعي
وثقه ابن حبان فيحتاج إلى مزيد من التوثيق وقد أوردته لأن سلمة تابعي روى عنه عدد
من ثقات التابعين وأعلامهم ومنهم: الثقة الثابت عمرو بن دينار، وعطاء بن أبي رباح وهو
ثقة فقيه فاضل وكذلك والد ابن إسحاق وهو تابعي ثقة. انظر التهذيب (١٤٨/٤).
ولأنه يروي هذا الحديث عن جدته.

مأساة كانت أم سلمة.. مآسي كانت دروب الفرار من الاضطهاد إلى بلد الحرية المفتوح.. لكن ماذا عن سيد المهاجرين.. هل سيبقى وحيداً في مكة وبيوت أصحابه خالية إلا من بكاء الريح. ترى متى سيهاجر.

رسول الله يؤمر بالهجرة

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ بمكة، فأمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾) وقال رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً^(١).

وبعد نزول هذا الأمر الكريم اتجه ﷺ نحو صاحبه أبي بكر في سرية تامة.. مثلثاً، في وقت يلوذ فيه الناس ببيوتهم وتحف وطأهم على الطرقات والدروب لشدة الحر والرمضاء.. في هذا الوقت الذي يتجول فيه السموم واللهب وحدهما في الطرقات كان ﷺ يطرق باب أبي بكر الصديق بحذر شديد.. تقول عائشة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهر، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متنعاً^(٢)) - في ساعة لم يكن يأتينا فيها- فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر:

«اخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (تفسير ابن كثير ٥٨/٣) فقال: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي طيبان، عن أبيه، وهذا الإسناد حسن وقد مر معنا تخريجه، وقال ابن كثير بعد أن ذكره: قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) متغنياً بثوب متخفياً عن أعين قريش.

الله. قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: «الصحابة»^(١) بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»^(٢). أي سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله رسول الإسلام ﷺ.. أما أعداء الإسلام والحياة.. طواغيت قريش فكانوا في تلك الأيام في شغل وهم ومكائد ينسجون خيوطها في مكان يقال له:

دار الندوة

حيث تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسمة إلى حمم من الغضب.. دار الندوة تحولت إلى بركان نائر يريد رأس رسول الله ﷺ بأبي ثمن.. فقد أيقنت قريش بأنه لا محالة خارج إلى مدينة الإسلام الجديدة متلحقاً بأصحابه.. الوضع مخيف جداً.. قريش يخيفها مستقبلها المجهول إن انتصر عدوها محمد ﷺ.. لذلك اجتمعت في يوم أستمته (يوم الزحمة) الذي تحدث عنه ابن عباس فقال: (لما اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت^(٣) له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم لسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح،

(١) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٣) البت: هو الكساء الغليظ.

قالوا: أجل، فادخل. فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة.

من بني عبد شمس: شيبه وعتبة ابنا ربيعة.. وأبو سفيان بن حرب.. ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي.. وجبير بن مطعم.. والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلفة. ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البخترى بن هشام.. وزمعة بن الأسود بن المطلب.. وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.. ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج. ومن بني جمح: أمية بن خلف.. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.. فقال بعضهم لبعض:

إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان، وما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فمشاوروا. ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهيراً، والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي:

لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فلاوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا.. ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره ثم تشاوروا، فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا، فإذا خرج فوالله ما نبالي إلى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي:

والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا. فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدأ، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل^(١) كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي لا رأي لكم غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له^(٢) ذلك ما أسفر عنه يوم الزحمة.. أما بيت أبي بكر.. فلم

(١) أي الدية.

(٢) حديث حسن بطرقه، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه رواه الطبري (٣٧٠/٢) من عدة طرق، صرح فيها بالسماع، فقد سمعه من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الطريق لا يفرح به لأن فيه الكلبي وهو تالف، أما الطريق الثانية: الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس. والحسن هذا متروك، أما الطريق الثالثة فرجالها ثقات: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس، ومجاهد إمام تابعي ثقة معروف وعبد الله بن أبي نجيح ثقة، لكنه ربما دلس أي أنه قليل التدليس، وللحديث شواهد تجعله حسناً لا شك، فقد رواه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة (٣٨٩/٥) مرسلأ وهذا شاهد يكفي، كذلك له شاهد آخر من طريق الواقدي: عدة أسانيد عن علي وعائشة وسراقة. والواقدي متروك.

يكن أقل نشاطاً مما يحدث في دار الندوة.. فالكتمان والصمت والعمل
الدؤوب شعار للجميع. تقول عائشة:

(فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت
أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك
سميت ذات النطاقين)^(١)، فتاتان من فتيات الإسلام يواجهن الموت ليل
نهار.. يردن بذلك وجه الله.. ينشرن أذرعهن طريقاً لمدينة الإسلام..
هاتان الفتاتان ليستا وحدهما من بين شباب الإسلام.. كان هناك شاب
عظيم طرح للموت جسداً بآعاه لله.. يفتدى به رسوله ﷺ ذلك هو:

علي بن أبي طالب على فراش الموت

فعندما اتفق الطغاة على تحديد ليلة ينكسون فيها سيوفهم في ذلك
الجسد الطاهر.. ثمانية سيوف وربما أكثر تتلمض تريد أن تستحم بدمائه
ﷺ وتشب.. يريدون ليطفئوا نور الله.. والله متم نوره.. ولو كان فوق
كل حبة رمل سيف لأعدائه.. أرسل الجبار سبحانه وحيّاً يحمل جبريل
(فأتى جبريل رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي
كنت تبيت عليه، فلما كان العتمة من الليل اجتمعوا على بابه، فترصدوه
متى ينام فيشبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي
طالب: تم على فراشي، واتشح^(٢) بردي الحضرمي الأخضر، فتم فإنه لا
يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك
إذا نام)^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري، وقد مر معنا أوله.

(٢) أي تغط.

(٣) جزء من حديث طويل مر معنا وهو عن اجتماع دار الندوة وهو حسن بالشواهد.

وامتثل الفارس الشاب لأمر سيده ﷺ.. واتشح بالبرد.. وكان علي استعداد ليتشح بالدماء.. فقد علمه الإسلام كيف ييذل روحه لله وحده.. علمه كيف يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه.. وخرج رسول الله ﷺ متسللاً.. وبعد خروجه (جاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، فقال: يا نبي الله. فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار، وجعل علي يُرمي بالحجارة كما كان يُرمي نبي الله ﷺ وهو يتضور^(١)، قد لف رأسه في الثوب لا يخرج حتى أصبح، ثم كشف رأسه، فقالوا: إنك للثيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك^(٢)).

إذاً فقد حدث تغيير بسيط في خطة الهروب بعد أن علم ﷺ بالمؤامرة فلم ينم علي فراشه.. وتسلل ﷺ بعد تخطيط محكم وخدعة بارعة انطلت علي جميع الأغبياء والأذكياء منهم.. علي كل سيف صلت قد انتصب خلف باب ينتظر الجريمة.. ولم تكتشف أكداس الكفر خلف الجدار ما حل بهم إلا بعد أن تنفس الصبح في وجوههم يوقظهم ليسخر منهم.. علي بن أبي طالب كان فتى يعدل أمة.. ويخدع طواغيتاً قد ركمهم الحقد وحنظهم الغل حول الباب.. بينما كان رسول الله ﷺ يأخذ بيد صاحبه أبي بكر عند بئر ميمون ويواصلان المسير علي عجل.. يدفعان الجبال عنهما دفعاً.. بالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. لقد كانا مسرعين

(١) يتلوى.

(٢) إسناده لا بأس به، رواه أحمد (الفتح الرباني ١١٨/٢٣) من طريقين، عن أبي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس: وأبو عوانة اسمه: وضاح بن عبد الله الشكري، وهو ثقة ثبت. التقريب (٣٣١/٢) وشيخه اسمه: يحيى بن سليم وحديثه حسن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشهور وثقة عابد. التقريب (٨٠/٢).

يقصدان جبلاً عَيْنَاه وحدداه ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطه الهروب.. وهما الآن يعجان إليه.. لكن أبا بكر الصديق لم يكن طبيعياً.. كان مرتبكاً.. طريقة سيره توحى بذلك.. فهو يحمل روحه في إحدى يديه.. ويحمل باليد الأخرى خمسة آلاف درهم هي كل ما يملكه من مال.. لكن حركته واضطرابه لا توحى بأنه خائف على روحه ولا على ثروته فماذا هناك؟

ماذا دهاك يا أبا بكر

أتدرون ماذا كان يفعل (يكون مرة أمام النبي ﷺ مرة.. وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى^(١) من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك)^(٢) واستمر أبو بكر في تصرفه حتى عندما لامست أقدامه صخور الجبل.. وعند الصعود فعل ذلك (حتى انتهى إلى الغار من ثور).

عندها فعل أبو بكر ما لا يفعله غيره (قال أبو بكر: كما أنت^(٣) حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك)^(٤).

(١) أي مهاجم وتصاب.

(٢) حديث حسن بالشواهد: رواه البغوي (سيرة ابن كثير ٢/٢٣٧) وابن هشام، حدثنا داود الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة ورجال هذا الإسناد ثقات، انظر داود الضبي في التقريب (١/٢٣٣) حيث قال عنه: ثقة، وراجع ترجمة نافع بن عمر في التقريب (٢/٢٩٦) حيث قال عنه: ثقة ثبت، وابن أبي مليكة تابعي ثقة أدرك ثلاثين صحابياً واسمه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة، إذا فالنص مرسل، لكن يشهد له حديث عمر، وسند آخر جاء عن عمر. انظره في دلائل البيهقي (٢/٤٧٧) وسند مرسل أيضاً عن الحسن البصري رواه ابن هشام فالحديث حسن.

(٣) أي قف مكانك.

(٤) هو جزء من الحديث السابق.

لقد كان أبو بكر طيفاً من الحنان.. سحابة من الحب تظل رسول الله ﷺ كأني به يود لو صنع من جسده درعاً يحمي به رسول الله ﷺ حتى يصل إلى أحبابه المنتظرين في حرة المدينة وبين نخيلها.

فلا عجب أبداً بعد هذا أن يحمر وجه عمر بن الخطاب غضباً على رجال فضلوه على أبي بكر.. لقد كان عمر يعرف من هو أبو بكر.. فقد (ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلو عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر، فقال رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة خلفي، وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب^(١) فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد^(٢) فأمشي بين يديك. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال رضي الله عنه: نعم. والذي بعثك بالحق، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى استبرئ، فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله. فترل ثم قال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر^(٣).

ذاك جسد لأبي بكر باعه لله.. وتلك دماء تشخب منه تنقش على

(١) من يسرون خلفه طلباً لدمه.

(٢) أي من يترصدون له في طريقه.

(٣) إسناده صحيح لولا الانقطاع، فقد رواه البيهقي (٤٧٦/٢) أخبرنا موسى بن الحسن بن عباد، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا السري بن يحيى، حدثنا محمد بن سيرين قال: وكل هؤلاء ثقات لكن التابعي الإمام محمد بن سيرين لم يدرك عمر، لكن الحديث حسن بما قبله، وبأحاديث ستأتي إن شاء الله.

جدران الغار حب الله وحب رسوله ﷺ: (لقد كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر، فقال:

إن أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت)^(١)

ذاك جسد أبي بكر.. أما مال أبي بكر.. كل ماله فهو منشور بي يدي رسول الله ﷺ في الغار.. حملة أبو بكر كله.. وقدمه لرسول الله ﷺ كله.. حتى صار بيت أبي بكر في مكة خالياً إلا من الإيمان.. وفتيات رباهن الإسلام وأبو بكر.. هذه إحداهن.. المجاهدة العظيمة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر تقول: (لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف - فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي: أبو قحافة^(٢) - وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم^(٣) بماله مع نفسه. قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة^(٤) في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكت هذا الشيخ بذلك)^(٥).

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه عباد حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.. ويحيى وعباد ثقتان، انظر تهذيب التهذيب (١١/٢٣٤)(٥/٩٨) وابن إسحاق لم يدلّس فقد صرح بالسماع من شيخه يحيى.
(٢) اسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، مات ابنه أبو بكر قبله وقد أسلم.

(٣) ألمكم واذاكم، أي أنه لم يترك لكم لا نفسه ولا ماله.

(٤) الكوة: الخرق في الجدار.

(٥) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق فقال: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه

إنهن بنات أبي بكر.. والدهن شريد طريد، قابع فوق أحد الجبال..
محتبى بدينه ونبيه ﷺ.. وهذه هي أحوال الدعاة بين مهاجر بعيد عن
الأهل والمال.. وأسير تفتك به أظافر قريش.. ومطارد لا يدري ماذا
تطوى له التلال والدروب. أما قريش فـ:

قريش غاضبة

تفجرت كالشظايا.. في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين
الجبال والدروب.. تقلب الصخور وتفتح الأبواب وتمز أعصان الأشجار..
وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة.. تمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال..
تبحث عنك يا رسول الله تمنى لو وقعت في قبضتها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَكْرِينِ﴾^(١) يقول ابن عباس: (تساورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم:
إذا أصبح فأثبته بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه.
وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ
تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون
علياً - يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله
مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري.

عباداً حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق صرح
بالسماع من شيخه يحيى بن عباد، وشيخه يحيى ثقة، انظر التقريب (٣٥٠/٢) والتهذيب
(٢٣٤/١١) والوالده: عباد، كان قاضي مكة زمن أبيه، وخليفته إذا حج، وهو تابعي ثقة.
انظر التقريب (٣٩٢/١) والتهذيب (٩٨/٥).

(١) سورة الأنفال.

فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه^(١).

وعن غضب قريش يحدثنا حفيد أبي بكر فيقول:

(إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ، فإذا أن يقتلوه، وإما أن يسجنوه، وإما أن يخرجوه، وإما أن يوثقوه، فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى: ﴿وَأَذِئْمُكُم بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنِيبُوا أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢).

وبلغه ذلك اليوم الذي أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبي بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه، وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قبل الغار بثور، وهو الغار الذي ذكره الله عز وجل في القرآن، وعمد علي بن أبي طالب فرقد على فراشه، يوارى عنه العيون^(٣). وقد وصل المشركون ورسول

(١) رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس: قال ابن كثير: هذا إسناد حسن، وليس كما قال رحمه الله، ففي الإسناد: عثمان الجزري، وحديثه حسن بالشواهد فيحتاج إلى شاهد.. وهذا الشاهد جاء عن الحسن البصري مرسلًا ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٣٩)، أما ذكر الحمامتين اللتين باضتا على فم الغار فلم أعثر له على سند قوي.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٣) إسناد مرسل ويشهد له ماسبق، ويرفعه إلى درجة الحسن. انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٦٥)، وانظر كذلك مغازي عروة للعلامة الأعظمي (١٢٨).

الله ﷺ نائم على فراشه وكانوا ينتظرون خروجه.. وللتأكد كانوا يرمونه بالحجارة فلا يتحرك.. ثم أمر ﷺ علياً أن يرقد في فراشه فكانت هذه القصة التي يرويها ابن عم رسول الله ﷺ وابن عم علي رضي الله عنهم حيث يقول:

(شرى عليُّ نفسه، ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برودة، وكانت قريش، تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، -فنظروا- فإذا هو علي فقالوا:

إنك للقيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك^(١) (فسألوه عن النبي ﷺ، فأخبرهم أنه لا علم له به، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبوا في كل وجه يطلبونه، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرؤهم، ويُجعلون لهم الجُعل العظيم^(٢). وأتوا على ثور الذي فيه الغار، الذي فيه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، حتى طلَعوا فوقه، وسمع النبي ﷺ أصواتهم، فأشفق^(٣) أبو بكر عند ذلك، أقبل على الهم والخوف، فعند ذلك قال له النبي ﷺ:

(١) سنده حسن. رواه الحاكم (٤/٣) وأبو داود الطيالسي وأحمد (١١٨/٢٣) كلهم من طريق أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس واسم أبي عوانة: الوضاح وهو ثقة ثبت التقريب (٣٣١/٢) وشيخه حسن الحديث فهو صدوق ربما أخطأ وليس هناك من لا يخطئ، التقريب (٤٠٢/٢) وهو تابعي صغير، أما عمرو بن ميمون فهو ثقة مخضرم مشهور. التقريب (٨٠/٢) وقد مر معنا قبل قليل.

(٢) أي جائزة عظيمة مقابل ذلك.

(٣) أي خاف، ومعروف خوف أبي بكر وأنه على رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً كما مر معنا.

«لا تحزن إن الله معنا». ودعا، فزلت عليه سكينه من الله عز وجل: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدَهُمْ يَجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

إذاً فقد حامت الأقدام حول فم الغار.. لحظات تحبس الأنفاس وتتقلب فيها القلوب والأبصار.. ويهجم الخوف والرعب من شقوق الغار.. من سيوف الطغاة ومن العيون التي تتطاير إجراماً وشرراً لكن:

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة، ويحدث الجميع بما جرى من حوار هامس بينه وبين حبيبه ﷺ فيقول: (كنت مع رسول الله ﷺ في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢)).

إذا كان الأمر كذلك فوالله لو سار مع قريش كل الأحياء.. وتشققت المقابر فخرج الأموات يسحبون أكفانهم خلف أبي جهل.. يقلبون معه حجارة الأرض.. ويجتشون أشجارها.. ويزحزون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما.. فكيف تقدر قريش.. هذا أمر لن يحدث أبداً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِنَّتِنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

(١) سورة التوبة. وانظر ما بعده وما قبله فهو به حسن لأنه مرسل عروة عند البيهقي (٤٧٨/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد اللفظ لأحمد. انظر الفتح الرباني (٢٨٢/٢٠).

عَلَيْهِ وَأَيْتَدُمُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

وانحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث.. وتتصبب عرقاً
وهزيمة.. تدرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها.. وأعلنت لمن حولها
عن هزيمة قاسية تلقفتها من محمد ﷺ.. وأعلنت عجزها وضعفها..
وحاولت الاستنجاد وطلب العون من أي شخص كان ليقبض على
محمد ﷺ فهو:

مطلوب حياً أو ميتاً

وقد فتحت قريش صناديق الحلال والحرام.. وعرضت الهدايا والهبات
أمام الجميع.. تقدمها لمن يحضر رسول الله حياً.. أو يسحبه ميتاً.. أو يحمل
رأسه ورأس صاحبه إلى قريش.. أحد الذين سمعوا بالجائزة.. أحد الذين
فركوا أيديهم طمعاً فيها رجل اسمه: سراقه بن مالك.. يحدثنا فيقول:
(جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل
واحد منهما، من قتله أو أسره) (٢).

إذاً فقريش قد استنفرت رجالاتها وأموالها وتوجهت إلى كل العرب
ضد رسول الله ﷺ تستحثهم وتغريهم.. لكن رسول الله ﷺ كان أذكى
من الجميع وقد أعد خطة محكمة لتذهب ضربات قريش في الهواء.. خطة
تجعلها لا تجني من ركضها سوى الغبار والعرق.. أما تنفيذ هذه الخطة فقد
بدأ حالما انحدرت قريش من جبل ثور.. فرسول الله ﷺ لم ينحدر بعدها
لقد قرر أن يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.. هذه الأيام الثلاثة

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا. رواه البخاري.

ستكون محمومة بالبحث والتفتيش.. وهي كفيلة بالفتن من عزيمة الكفار وتسريب الإحباط إلى نفوسهم.

لكن كيف سيعرف رسول الله ﷺ وصاحبه ما يجري.. كان الجواب شاباً من أبناء أبي بكر الصديق أيضاً.. ملأه الإيمان حباً.. وحماساً وبدلاً.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم يكلمهم. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم ثم يحملها إذا جن المساء.. فيصعد بها الجبل.. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه.. وقبيل طلوع الشمس عند الفجر.. وبعد أن يؤدي الصلاة مع رسول الله ﷺ ينحدر إلى مكة ثانية ليقوم بمهمته من جديد.. وعبد الله لم يكلف في هذه المرحلة إلا بمهمة واحدة.. هي حمل الأخبار فقط.. حتى لا يثير شك من يصادفه في طريقه.

أما الطعام.. فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضاً.. إنه أحد رعاة الغنم.. واسمه: عامر بن فهيرة.. كان يسوق غنماته ويسيح معها في نزهة خارج مكة.. وهذا أمر طبيعي لا يلفت الانتباه أبداً.. فهو راعي غنم ومهمته تقتضي أن يكون خارج المدينة.. فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء.. ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضاً. تقول عائشة رضي الله عنها:

(فَكَمْنَا^(١) فيه ثلاث ليال، ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب، ثقف^(٢)، لقرن^(٣) - فيدلج^(٤) من عندهما بسحر^(١))، فيصبح مع

(١) اختفياً في الغار.

(٢) حاذقاً: خفيفاً.

(٣) ذكي.

(٤) الإدلاج: هو السير أول الليل، والمراد هنا إنه يسير من عندهما وقت السحر.

قريش بمكة كبائت^(١)، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما
بخير ذلك حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - منحة^(٢) من غنم،
فيريحها^(٣) عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو
لبن منحتهما ورضيفهما^(٤) - حتى ينعق^(٥) عامر بن فهيرة بغلس^(٦)، يفعل
ذلك في كل ليلة من الليالي الثلاث^(٧).

إذاً هناك بطلان: أحدهما يكشف تفكير العدو. والآخر يحمل
الطعام. لكن هل سيدوم الحال على هذا الوضع؟ لقد اشترى أبو بكر
راحتين فأين هما.. أعند عبد الله.. أم بين أغنام عامر بن فهيرة؟
وكيف سيحصلان عليهما وعيون قريش تدور.. تتلصص في كل
مكان؟

لم تكن الإجابة صعبة على رسول الله ﷺ.. فقد أعد لذلك خطة
محكمة.. هذه الخطة تقضي بالألا تكون الراحتان عند عبد الله بن أبي بكر
ولا عند عامر بن فهيرة.. فلو كانتا عند أحدهما لارتبات قريش وزرعت
شكها عيناً تلاحقهما حتى تظفر بما تريد.. ورسول الله ﷺ يدرك ذلك

(١) السحر: هو قبيل الصبح.

(٢) أي كأنه نائم في مكة.

(٣) عطية.

(٤) المراح: هو ما تأوى إليه الإبل والغنم بالليل.

(٥) اللبن الذي رصفت فيه الحجارة المحماة بالنار لينعقد ويشخن وتزول رخواوته.

(٦) النعق: صوت الراعي بغنمه.

(٧) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٨) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

كله ويدرك ما هو أبعد من ذلك.. لذلك استخدم كل الوسائل المباحة المتاحة في أرجاء الكون الفسيح له.. فاسند لهذه المهمة رجلاً مشاركاً لكنه كان أميناً.. واعدّه ﷺ الليلة الثالثة كي يحضر الراحلتين.. وكان هذا الرجل من أعلم الناس بطبيعة الطريق ومسالكه.. يعرف كيف يتسلل بهما بعيداً عن حوافر الشرك ورماحه.. تقول عائشة:

(واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل - وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خريئاً. والخريت: الماهر بالهداية، قد غمس حلقاً في آل العاصي بن وائل السهمي - وهو على دين كفار قريش - فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، بعد ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل)^(١).

على دروب السواحل

على دروب السواحل.. الفجر سار يناضل.. والليل صار مخيفاً.. والخوف كان الرواحل.. فهذه الرحلة يحدد نجاحها قيام دولة للإسلام في يثرب.. أو موت حلم ثم البدء من جديد.. والبحث من جديد.. يقول الصديق رضي الله عنه:

(أدجنا من مكة ليلاً، فأحينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا^(٢))، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل ناوي إليه، فإذا صخرة، فانتهيت إليها، فإذا بقية ظل لها، فسويته، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض^(٣) ما حولي

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) وقت الظهر.

(٣) أتحمس وأحرس وأراقب المكان.

هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي نريد -يعني الظل- فسألته، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش فسماه، فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفذ ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفذ كفيه - فقال هكذا، فضرب إحدى كفيه على الأخرى- فحلب لي كنية^(١) من لبن، وقد رويت معي لرسول الله ﷺ أداة على فمها خرقة، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقتة وقد استيقظ فقلت: أتشرب يا رسول الله؟ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقاة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. قال: لا تحزن إن الله معنا. فلما أن دنا منا، وكان بيننا وبينه قيد رحمين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله - وبكى. فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك.

فدعا عليه رسول الله ﷺ: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها. ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عمك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا.. وكذا..، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ:

(١) قليل.

«لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ^(١).

من سارقة هذا وما الذي أتى به خلف رسول الله ﷺ.. وكيف عرف أنهم يسلكون طريق السواحل؟

سارقة يتحدث

ويقص كيف علم بمسلك رسول الله ﷺ بعدما أخبره رجل لمحهم يسيرون بقرب الساحل.. وكان ذلك الحديث في مراتع بني مدلج (قوم سارقة) فيقول: (جاء رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر «دية» كل واحد منهما: من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي -بني مدلج- أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سارقة إني قد رأيت أنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه)^(٢).

سارقة يبحث عن الدماء والدية

فحالما سمع حديث الرجل انتصبت في مخيلته (مائة من الإبل)^(٣) تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ وصاحبه.. تخيل سارقة تلك الإبل المائة وهي تسيل بين الأودية نحوه ليضمها ويلحقها بما يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة في طريق المدينة. لذلك حاول إخراس ذلك المتكلم.. وتثبيط عزيمة السامعين من قومه حتى لا يلحقوا بالمهاجرين فيخسر الإبل الجائزة. لقد قال سارقة لذلك الرجل: (إنهم ليسوا بهم،

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٤٨٣/٢) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي رأيت أشخاصاً قرب الساحل.

(٣) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي (٤٨٧/٢).

ولكن رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، يتتغون ضالة لهم^(١)، ويواصل سراقه حديثه فيقول:

(ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة^(٢))، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه^(٣) الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام^(٤))، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات. ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان^(٥) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له:

إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم،

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي ذهبوا يبحثون عن شيء ضاع لنا.

(٢) الأكمة: هي التل.

(٣) الزج: هو الحديد التي في أسفل الرمح.

(٤) جمع الزلم، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً دخل يده فيه وأخرج سهماً (أي زلماً) فإذا خرج ما فيه الأمر استمر في عمله وإن خرج العكس رجع عنه.

(٥) هو الدخان أو الغبار.

وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني^(١)، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن.. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ^(٢) بعد أن أعطى الأمان لذلك الباحث الذي يريد قتله وحز رأسه، معجزة مخيفة ورائعة ما حدث لسراقة، إذا فرسول الله ﷺ في حصن حصين لن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول لسراقة: أخف عنا.. لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشد من الخوارق، والجنود التي لا يعلمها إلا الله؟

إنه يقولها لأنه رسول جاء بمنهج من عند الله للبشر، وعلى البشر مهمة نشره هنا وهناك، فبجهدهم ينتشر، وعلى البشر أن يركضوا هنا وهناك بحثاً عن الأسباب الموصلة للنجاح، ورسول الله ﷺ في هجرته يرسم خطأ لا يمكن أن ينتشر الإسلام إلا بالسير عليه، لقد هاجر ﷺ بعد أن خطط ورسم، وتكتم وتلثم، وسار في الليل والناس نيام، ثم جعل نتائج كل ذلك إلى الله سبحانه، إنه لم يتحدث لأبي بكر قبل الهجرة عن معجزات ستحصل في الطريق، لأنه فعل الأسباب كما طلب منه، ثم فوض أمره إلى الله، إن الهجرة تطبيق عملي لقوله ﷺ:

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)^(٣) فإذا أتقنه فقد انتهى دوره.. وهذه طاقة البشر لا يكلفهم الله فوق طاقتهم.. فإن قبض عليه المشركون وقبضوا على صاحبه.. فقد أديا ما طلب منهما ولا شيء عليهما وإن أكرمهم الله بمعجزة أو خارقة فذلك فضل من الله.. لكن المسلم يأثم إن لم يتقن عمله أملاً في حدوث معجزة أو كرامة تقلب

(١) أي لم يأخذنا منه شيئاً.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٣) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (١٤٤/٢).

الأوضاع وعليه أن ينتظر النكسة في أية لحظة تطرق بابه.. لقد استوعب رسول الله ﷺ وأصحابه المستضعفون هذه الحقيقة.. فدعوا وأسروا واحتفوا ولاقوا ما لاقوا في سبيل ربهم.. ولما أقفلت قريش أبواب مكة كلها في وجوههم تركوها لهم.. غادروها وهي أحب البقاع إلى الله وإليهم.. لقد وقف ﷺ يوماً (بالجزوراء في سوق مكة فقال: إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت وقال: علمت إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)^(١).

غادرها ﷺ بعد أن ضاقت به.. وغادرها الصحابة كلهم نحو مدينة مفتحة الأذرع والأبواب.. للهاربين للخلاص.. للحاملين سورة الإخلاص.. غادروها إلى مدينة عطوف.. يحن فيها كل شيء.. حتى الجذع يحن إلى رسول الله ﷺ.. حتى الحجارة فيها بادلت الصحابة عشقاً.. ألم يلتفت ﷺ إلى جبل أحد فيقول: (أحد جبل يحبنا ونحبه)^(٢) إن الهجرة ترافق الشمس كل صباح تحمي الغرباء وتقول لهم: إذا أتقنتم أعمالكم تحولت مدن العالم إلى مدائن للحب والأنصار.. وشغفت جبال الدنيا بكم.. كما شغف جبل أحد بأسلافكم.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير.. وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام وشاهدا بينهما الراعي.. فطلبها منه السقيا.. فقال: (ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخرجت، وما بقي لها لبن، فقال ﷺ:

(١) إسناده صحيح. رواه البيهقي (١٧/٢-٥١٨) من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالجزوراء في سوق مكة وهذا الإسناد صحيح وهو المحفوظ كما قال البيهقي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري. انظر صحيح الجامع (١/١١٤). وأحد جبل في المدينة.

«ادع بها». فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب^(١) وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط؟

قال ﷺ: «أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»^(٢).

هذا الراعي المسكين نشأ في الصحراء حتى صار قطعة منها تهتز ربيعاً وجمالاً عندما يغشاها المطر.. ولقد اهتز إيماناً عندما رأى المعجزات وحسن الأخلاق تميز عقله ليفيق من سبات الافتراءات التي أوصلتها إلى مسامعه قريش.. هذه الماعز التي لم يكن في ضرعها سوى الجفاف.. درت حليباً وأنزلت.. أما هذا الرجل المطارد المتهم الذي حلبها فلم يشرب رغم عطشه.. لقد أسرت هذا الراعي أخلاق لم يعهدها.. يحلب وهو نبي الله ويسقي منهم دونه ثم يشرب آخرهم وهو الذي لو أراد لأدار الله له هذه الأرض ينتقي منها ما يشاء.. فأسلم الراعي وآمن وقرر ترك الصحراء والغنم ما دام بصحبة نبي.

لكن خلق النبي ﷺ الكريم وخوفه على أتباعه من الاضطهاد جعله يريثه إلى أجل لا يعلمه إلا الله. وامثل هذا الراعي وصبر رغم شوقه ولهفه. هذا الراعي أظنه.

(١) الذي حلب هو رسول الله ﷺ، ثم سقى الجميع ثم شرب آخرهم.

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي وأبو يعلى، وانظر تخريج الذي بعده فهو هو.

أبو معبد

الذي صادفه رسول الله ﷺ في طريق الهجرة، فإنه (لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلاً بأبي معبد، فقال: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ: «فما تلك الشاة؟» فأتى بها. فدعى رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عساً^(١) فسقاه، ثم شربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ قال رسول الله ﷺ: «لا». حتى تسمع أنا قد ظهرنا^(٢).
وتجاوز رسول الله ﷺ غنمات أبي معبد، بعد أن ترك أبا معبد ظلاً.. تركه فيئاً يستظل به المتعبون، ربيعاً بعد أن كان حقلأ من الجفاف، تركه مرشداً بعد أن كان يخبط في الظلام، وتحرك ﷺ ليلتقي بعد مسافة ليست بالقصيرة —:

خيمتا أم معبد

(أم معبد الخزاعية، وكانت برزة جلدة^(٣) تحتي^(٤) ببناء القببة ثم تسقي

(١) العس: هو القدح الكبير.

(٢) إسناده صحيح. رواه البزار (كشف الأستار ٣٠١/٢) وهو والحديث السابق من رواية: عبيد الله بن إياد بن لقيط، قال: سمعت إياداً يحدث عن قيس بن لقمان، قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان... لكن سند الحديث السابق هو: عبيد الله بن إياد عن قيس بن لقمان، إذا فالرواية واحدة، لكن هناك خطأ في السند الأول. عند البيهقي (٤٩٧/٢) فقد ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٦٤): حدثنا عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس، وهذا هو الصواب، فقيس صحابي، وعبيد الله ليس بتابعي، فهو لم يسمع من قيس، وهو ليس ضمن شيوخه الذين ذكرهم الحافظ في التهذيب (٤/٧) بل ذكر أباه ضمن شيوخه ورواية البزار خير شاهد، إذا فالخطأ متأخر وعنه نشأ بعض الاختلاف في ألفاظ الروايتين.

وبعد فعبيد الله صدوق (التقريب ٥٣/١) ووالده تابعي ثقة (التقريب ٨٦/١).

(٣) هي التي لا تحتجب كالشابات رغم عفافها، ومعنى جلدة أي قوية أو جزلة.

(٤) الاحتماء: هو الجلوس مع ضم الفخذين إلى البطن بواسطة الذراعين.

وتطعم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين^(١)، مستنين^(٢)، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة^(٣)، فقال: ما هذا الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال ﷺ: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال ﷺ: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، نعم. إن رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها بيده، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شأنها، فتفاجت^(٤) عليه ودرت واجترت، فدعا بإناء يريض الرهط^(٥)، فحلب فيها ثجاً^(٦)، حتى علاه البهاء^(٧)، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا^(٨)، ثم حلب ثانياً بعد حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وباعها، ثم ارتحلوا عنها^(٩).

عودة أبي معبد

بعد رحيل هؤلاء الأطهار (ما لبثت إذ جاء زوجها أبو معبد يسوق أعتراً عجافاً^(١))، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال:

(١) أي نفذ ما عندهم كأنهم لصقوا بالرمل.

(٢) أصابتهم سنة أي القحط.

(٣) أي جانب الخيمة.

(٤) أي فرجت ما بين رجليها للحلب.

(٥) يريض: أي يروي.

(٦) ثجاً: أي لبناً سائلاً كثيراً.

(٧) هو بريق رغوۃ الحليب.

(٨) أي شربوا عللاً بعد هزل أي الشرب الثاني.

(٩) انظر تخريجه في نهاية الخبر.

(١٠) هزيلة.

من أين هذا والشاة عازب حائل^(١).. ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله: كذا.. و كذا.. فقال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة.. أبلج^(٢) الوجه، حسن الخلق.. لم تعبته ثجلة^(٣).. ولم تزر به صعلة^(٤).. وسيم قسيم، في عينه دعج^(٥).. وفي أشفاره عطف^(٦).. وفي صوته سهل^(٧).. وفي عنقه سطمع^(٨).. وفي لحيته كثائة^(٩).. أزج أقرن^(١٠).. إن صمت فعليه الوقار.. وإن تكلم سماه وعلاه البهاء.. أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه من قريب.. حلو المنطق.. فصل لا نذر ولا هذر، كأنه منطق خرزات نظم تحدرن، ربعة^(١١)، لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر^(١٢)، غصن بين غصنين، هو أنظر الثلاثة منظرًا.. وأحسنهم قدرًا.. له رفقاء يحفون به.. إن قال أنصتوا لقوله.. وإن أمر تبادروا إلى أمره.. محفود محشود^(١٣).. ولا عابس ولا معتد. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره. ما ذكر بمكة «ولقد هممت بأن أصحبه» ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

(١) أي لم تحمل.

(٢) مشرق الوجه مسفر.

(٣) ضخامة البطن واسترخاؤه.

(٤) النحافة.

(٥) اشتد سوادها وبياضها.

(٦) الأشفار: طرف جفن العين التي ينبت منها الشعر، أي إنها طويلة حتى انعطفت.

(٧) وقيل: صحل أي أنه حاد الصوت.

(٨) سطمع: أي طال عنقه.

(٩) اجتماع وكثرة.

(١٠) أي لا قليل ولا كثير.

(١١) وسيط القامة.

(١٢) أي لا تتجاوز العين إلى غيره احتقاراً.

(١٣) مطاع في قومه يسرعون لخدمته.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يدرون من صاحبه:

جزى الله رب البيت خير جزائه
هما نزلها بالهدى واهتدت به
رفيقين قالوا خيمتي أم معبد
فيال قصي ما زوى الله عنهم
فقد فاز من أمسى رفيق محمد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم
به من فعال لا تجازى وسؤدد
سلموا أختكم عن شائها وإنائها
ومقعداها للمؤمنين بمرصد
دعاها بشاة حائل فتحلبت
فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
عليه صريحاً صرة الشاة مزبد
يردها في مصدر ثم مورد
فغادرها رهناً لديها لحالب
وأصبح صوت بالمدينة بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون من
يقوله^(١).

سمع شاعر الحياة الجديدة حسان بن ثابت تلك الأبيات، فهاجست

(١) رواه أبو نعيم في الدلائل - واللفظ له - (٣٣٧/١) والحاكم (٩/٣) والطبراني (مجمع الزوائد ٥٨/٦) وابن سعد (٢٣٠/١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو يعتبره صحيحاً لأسباب هي قوله:

إن نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد، وإن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعراب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها أنه له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها إن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي روينا به بسياقه: الحديث عن الكعبين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعرابة، وقد علونا في حديث الحر بن الصباح هذا ما قاله الحاكم رحمه الله. لكن هناك ملاحظات على قوله رحمه الله منها: أن الحديث حسن لكن ليس بهذا النص لشدة ضعف طرقه... خاصة حديث الحر بن الصباح ففي سنده متهم.

ومنها: أن الشعر المذكور وأن قائله من الجن يحتاج إلى طرق أخرى تقويه لكن الحديث حسن برواية البيهقي والبراز اللتين ذكرهما ابن كثير في السيرة (٢٥٨/٢) وهي رواية مختصرة.

شاعريته، وأطلق الشعر يخطف ما لدى كفار قريش من فضائل ويحملها
أنواراً نحو مدينة الإسلام الجديدة:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسرى إليه ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة بهم فأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمائتهم هاديه كل مهتدي
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم
نبي يرى ما يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحي
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد
ليهن بنى كعب مقام فتاهم ومقعدها للمؤمنين بمرصده

وبعد أن ودع ﷺ أم معبد أحث السير وربما صادفه في مسيره
آخرون.. فكان يواجه كل شخص بأسلوب مناسب.. فإن كان المار
ممن يخشى منه تسرب الأخبار.. تكفل أبو بكر بالإجابة. ولذلك يقول
أنس رضي الله عنه: (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا
يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي
بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه
إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير)^(١) الذي يصل الدنيا بالآخرة،
ويحطم الأبواب بينهما، فتشع أنوار الجنة في قلوب المؤمنين ودروبهم
أيئنا حلوا أو ارتحلوا.

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. رواه البخاري (٣٩١١).

محطات

مر عليه السلام ورفقته بمحطات عديدة تذكرها عائشة جيداً فتقول رضي الله عنها وهي تتحدث عن زوجها وأبيها بعد أيام الغار: (هدأت عنهما الأصوات، وأتاهما أن قد سكت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيرهما، فانطلقا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه على رحله، ليس معهما إلا عامر بن فهيرة وأخو بني عدي يهديهما الطريق، فأجاز بهما «في أسفل مكة»، ثم مضى بهما حتى «حاذى بهما الساحل أسفل من عسفان» ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعدما جاوز «قديداً» ثم سلك «الحرار»، ثم أجاز على «ثنية المرة» ثم أخذ على طريق يقال لها «المدلجة بين طريق عمق وطريق الروحاء» ثم توافوا طريق «العرج» وسلك ماء يقال له «الغابر عن يمين ركوبة» حتى يطلع على بطن «رئم» ثم جاء حتى قدم المدينة على «بني عمرو بن عوف» قبل القائلة^(١) إذاً فنهاية تلك المحطات هي محطة بن عمرو بن عوف لكن لماذا لم يذهب عليه السلام إلى يثرب مباشرة.. لماذا مال إلى بلدة بني عمرو بن عوف المشهورة بـ (قباء).. ما هو شعور الأنصار وهم ينتظرونه على مشارف يثرب فتأتيهم الأخبار أن نبيهم في قباء الآن.. أسئلة ملحة والإجابة عند نبي الله عليه السلام.

(١) سنده صحيح رواه ابن جرير بسند صحيح (٣٧٥/٢): حدثنا علي بن نصر وحدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قالوا: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبان بن العطار، حدثنا هشام بن عروة عن عروة عن عائشة، وعلي وعبد الوارث ثقتان. التقريب ٠٢/٠٠٠ و (٥٢٧/١) وعبد الصمد صدوق (٥٠٧/١) وأبان ثقة (٣١/١) وبقية السند معروف وقد توبع هشام ومن بعده عند الحاكم بلفظ فيه اختلاف بسيط (٨/٢).

النبي ﷺ يودع مكة

وَدَّعَ حبيته وهي لا ترد.. ولو أجابت لأبكت من حولها.. ودع حبيته.. تركها وهو كاره.. حالت الجاهلية بينه وبينها.. لم يستطع البقاء بين أبياتها وجدراهما.. فحملها في قلبه وارتحل.. وتمر أيام وأعوام.. ويكبر ذلك الحب.. ويزداد به الشوق.. فيقسم بالله لها أنه ما زال يحبها..

(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت) ^(١). (ما أطيبك من بلدٍ وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) ^(٢).

لم يستبدل ﷺ حباً يحب.. بل أضاف حباً إلى حب.. إنه يتجه الآن إلى يثرب.. يثرب!! لا إنها ليست يثرب.. فلا يثرب بعد اليوم.. لقد وهبها قلبه.. ووهبها اسماً جديداً.

اسم جديد

فما هو ذلك الاسم.. يقول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب!.. وهي «المدينة» تنفي الناس ^(٣) كما ينفي الكير خبث الحديد» ^(٤) إذا فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة).. المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق..

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه (سيرة ابن كثير ٣٨٥/٢) من طريق شعيب وعقيل وصالح بن كيسان كلهم عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه. وأبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان جليلان.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٩٧١/٢).

(٣) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم والبيهقي (٥١٩/٢).

أما أهلها.. فعلى طريق مكة يترددون.. ينتظرون (يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)^(١).. فرحوا بأصحابه واستقبلوهم.. وفتحوا لهم بيوتهم وصدورهم.. و (لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا)^(٢) قدومه.. كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا.. وذلك في أيام حارّة)^(٣).. هذه هي المدينة المشتاقه وهؤلاء هم أهلها..

أما رسول الله ﷺ، فما زال على الرضاء يسير.. وفي مسيره ذلك يلتقي بشاب يحبه، يلتقي بشاب من أبطال الإسلام، إنه زوج (ذات النطاقين) زوج أسماء بنت أبي بكر الصديق واسمه: الزبير بن العوام، فهل كان قادماً من المدينة؟.. لا.. لقد كان في الشام، سافر مع قافلة من قوافل الصيف ثم عاد.. لقد (لقي رسول الله ﷺ في ركب من المسلمين كانوا تجاراً بالشام قافلين إلى مكة، فعارضوا رسول الله ﷺ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً)^(٤).. قبل ﷺ الهدية من ابن عمته، ولبس وصاحبه الثياب، وأقبلا على المدينة.. يختلط بياض ثيابهم بياض السراب.. لكن بعد أن أحرقت الشمس المنتظرين، فعادوا بعد انتظار طويل..

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) أي توقعوه وسألوا عنه.

(٣) سنده قوي. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٢٦٨) حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة عن رجال من الصحابة. ومحمد ثقة (التقريب ٢/١٥٠) وعبد الرحمن ولد على عهد النبي ﷺ وروايته عن الصحابة ويشهد له ما قبله.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

أقبل رسول الله ﷺ وأبو بكر فلم يرهما أحد من الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين.. ولا حتى من المشركين عابدي الأوثان.. لكن يهودياً رأهما.. كان فوق حصن قومه.. واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حارات مغلقة عليهم وما زال جزء منهم كذلك إلى أيامنا هذه.. ربما كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأن بقية البشر لا يستحقون شرف الاتصال بهم.. سندع اليهود وما يعتقدون لتتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى.. ماذا فعل.. وماذا جرى للأنصار بعد ذلك.. وهل دخل ﷺ المدينة أم تريت أم..؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشرة.. هل خاف من يهود؟ هل كان خائفاً من شيء.. لا.. لكنه مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء) ونزل على أناسٍ من الأنصار يقال لهم (بنو عمرو بن عوف) وهذه هي القصة:

(سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة.. فانقلبوا يوماً بعدما أطلوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم^(١) من آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين^(٢) يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب.. هذا جدكم^(٣) الذي تنتظرون.

(١) الأطم: هو الحصن.

(٢) أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير.

(٣) أي حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/٣٨٤).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.. فقام أبو بكر للناس.. وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فظفق من جاء من الأنصار -ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك^(١)..

أما الأنصار.. فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ ثقله تظله.. وتوهج من حوله، أما قباء فـ:

كيف كانت قباء

كانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه.. تبشر به من حولها.. فانتشر الخبر، وشاع حتى وصل إلى يهودي آخر فلم يصبر، لقد أطلق قدميه للريح والفرع.. يتجه بهما نحو ابن عم له كان يجلس بين نخلٍ له فقال:

(يا فلان قاتل الله بني قيلة^(٢)).. والله إنهم ليجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي^(٣)..

لا أعرف ما حدث لليهودي لكنني أعلم ما حدث لأحد عبيده.. كان عبده الكادح الحزين فوقه.. فوق نخلة في رأس عذق يعمل يتصعب منه العرق والخوف.. لقد سمع الخبر فأخذته رعدةً هزته وهزته حتى كاد يسقط من على العذق لكنه تماسك حتى انحدر منها.. وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر فقال له:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.

(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(ماذا تقول.. ماذا تقول..؟)^(١) صمت اليهودي الذي حمل الخير ولم يجبه.. لكن سيده أجابه عن هذا السؤال إجابة مؤلمة.. أجابه لكمة شديدة ثم قال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)^(٢). تجرع العبد المسكين الآلام والقهر وأخرج من صدره اعتذار المساكين المغلوب على أمرهم وقال: (لا شيء إنما أردت أن أستنبهه عما قال)^(٣).

وعندما خيم الليل على مراتع بني عمرو بن عوف وقباء.. كان شبح ذلك العبد المسكين يتسلل كالظلام في الظلام.. متخفياً خائفاً.. يتسلل حتى ظفر بمجلس رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره.. كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره.. وتوشك أن ترتحل أو يرتحل.. دخل هذا الكادح على رسول الله ﷺ ثم قال:

(إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالحٌ ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربتة إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

كلوا وأمسك^(٤) يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة)^(٥).

ثم انصرف ذلك الرجل الغريب وعاد من حيث أتى.. عاد إلى سيده اليهودي.. ترى هل أرسله سيده.. أم أنه ذهب من تلقاء نفسه؟ وما معنى

(١) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٢) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٤) أي كف يده ولم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.

(٥) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.

قوله: هذه واحدة؟ ولماذا انصرف بهذه السرعة.. لغز محير هذا المسكين القادم من العبودية والمجهول.. ولعل الأيام تكشف لنا مزيداً من أسرارها.. ذهب المسكين، وذهب الليل وراءه.. ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة.. وأسس المسجد.. وصلى فيه رسول الله ﷺ)^(١) وصلى فيه أصحابه.. وبشر كل من يأتي إلى هذا المسجد ببشرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)^(٢).

بقي ﷺ أربع عشرة ليلة في قباء بين قلوب أهلها.. ولما تحرك قلبه نحو المدينة بعث رسولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدمه فجاءوا متزينين بالفرحة والسلاح..

يقول أحد الأنصار: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم: «بنو عمرو بن عوف» فأقام فيهم «أربع عشرة ليلة» ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)^(٣).

ويقول أبو بكر رضي الله عنه: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم: أيهم يتزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار أحوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رسول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)^(٤) كانت أمسيةً صاخبةً

(١) حديث حسن عدا المحذوف رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٥٠٦/٢).

بالهتاف للأضياف.. أمسية صاحبة فشمس محمد تجوب شوارع المدينة.. المدينة تعانق هذا النور المناسب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال... وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ.. أشرقت الشمس بعد أن نهض الجميع للصلاة.. أشرقت الشمس والأطفال بوجه محمد ﷺ حيث كان يتحرك نحو المكان الذي أمر به.. كان صباحاً منعشاً وجميلاً.. وكان موكبه ﷺ يتهادى بين القلوب والبيوت... الأطفال يركضون.. يقفزون.. يهتفون.. وتلك العيون البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة.. كان الأطفال لوحة من مطر وبراءة.. أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال يصف فرحته وشغفه وركضه معهم فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد..

وأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد..

فأسعى.. ولا أرى شيئاً.

حتى جاء النبي ﷺ وصاحبه، فكنا في بعض جدر المدينة، ثم بعثنا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالوا:

انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟..

فما رأينا منظرًا شبيهاً به يومئذ^(١) ويقول رضي الله عنه: (شهدت

(١) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد (الفتح ٢٠/٢٩١) حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس بن مالك... وهاشم يلقب بـ قيصر وهو ثقة

يوم دخل النبي ﷺ فلم أرَ يوماً أحسن ولا أضوأ منه^(١).. وعبر أنس عن ذلك اليوم بحروف تنبض بالمشاعر فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء)^(٢).

مشاعر.. مشاعر

المدينة في تلك اللحظات كانت تتبختر بالمشاعر.. تتزين بالإسلام كانت مدينة منورة بقاء الحبيب الذي طال الشوق إليه.. أحقاً رسول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شوارعها وتصافح قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مسلم أن يعيشها.. وأن يسكب في حضرتها شيئاً من الدموع.. لقد كان الموكب يتحرك ببطء فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع.. وابتسامات الأطفال والتفاتاتهم البريئة السعيدة.. أبو بكر كان أسعد الناس وأحظى الناس بعد رسول الله ﷺ بهذا الحب والاحتراف.. يحدثنا فيقول:
(ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأناجير^(٣))، واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون:

الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمد^(٤).

(التهديب ١١/١٨) وسليمان بن المغيرة ثقة... وثابت البناني تابعي ثقة. والحديث صححه الذهبي في سيرته (٣٣٣).

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي (٥٠٨/٢) وأحمد (٢٤٠/٣) واللفظ للبيهقي من طريق حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجه (٢٧٣/١) للإمام الألباني.

(٣) السطوح.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه ورواه أحمد واللفظ له.

(جاء رسول الله.. جاء رسول الله..)

الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد^(١).. أحد المتبهجين يتحدث.. البراء بن عازب طفل من الأنصار يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به.. حتى رأيت الولايد^(٢) والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله^(٣)).

وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشي عن فرحهم بمحمد ﷺ بأسلوب مميز.. أنس بن مالك ذلك الطفل السعيد.. طاف المدينة وطاف حول الموكب.. وشاهد فرح أهلها.. ووصف فرح الصحابة من أهل الحبشة فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الحبشة بحراهم فرحاً بقدمه)^(٤) ولم يكن الرقص هو الأسلوب الوحيد في التعبير كان هناك الغناء بمحمد ﷺ وبجوار محمد..

الغناء والدفوف والمشاعر شاهدها ﷺ فماذا فعل وماذا قال ﷺ لتلك الفتيات.. أنس بن مالك أيضاً يحدثنا عن ذلك فيقول: (مر رسول الله ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف [ويتغنين ويقلن]:

(١) جزء من رواية البخاري ومسلم.

(٢) أي البنات.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري.

(٤) صحح إسناده الإمام الألباني في صحيح السنن (٣/٩٣٠) ورواه أحمد في مسنده (الفتح الرباني ٢٠/٢٩٠) من طريق عبد الرزاق أخرنا معمر عن ثابت عن أنس وهذا السند رجاله ثقات لكن فيه ضعفاً لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابن معين: معمر عن ثابت ضعيف، وقال مرة: إذا حدثك معمر عن العراقيين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس.. فأما أهل الكوفة وأهل البصرة فلا... وقال مرة: حديث معمر عن ثابت وعاصم وهشام وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشيخ ناصر طريق أخرى فهو ضعيف.

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
 فقال النبي ﷺ: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»^(١) يا لهذا النبي ما
 أعظمه.. وما أبسطه وما أرق مشاعره.. التي يعلنها للصغير وللكبير في
 البيوت وعلى الطرقات.. بل إنه يعلن حبه حتى على الجبال القاسية من
 حوله.. يمر ﷺ من عند جبل أحد بالمدينة فيقول: (هذا جبل يحبنا
 ونحبه)^(٢) نبي الله يحب المدينة وأهلها.. والمدينة وأهلها.. أشجارها وجبالها
 يحبون الله ورسوله.. الكرم يسيل.. و الدماء تسيل فرحاً به ﷺ يقول
 أحدهم: (لما قدم ﷺ المدينة نخرتُ جزوراً)^(٣).

ويواصل موكب الحب مسيره في شوارع المدينة وسط مهرجان من
 السعادة.. زحامٌ من البهجة يحيط برسول الله ﷺ.. اشتد الزحام (فصعد
 الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون:
 يا محمد.. يا رسول الله.. يا محمد.. يا رسول الله)^(٤).

في المدينة كانت القلوب بيوتاً.. وكانت البيوت قلوباً.. كانت
 الأيدي تمتد إلى الزمام.. والعيون البراقة شاخصة تحتضنه وتعانقه.. تحاول
 الارتواء منه فتزداد عطشاً ولهفةً.. وتواصل الركن والنداء حتى..

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي (٥٠٨/٢) وابن ماجه (الصحيح ٣٢٠/١) واللفظ للبيهقي
 عدا ما بين المعقوفتين فلاين ماجه... وسنده هو: عيسى بن يونس، عن عوف الأعرابي،
 عن ثمامة عن أنس.. وعيسى ثقة. انظر التقريب (١٠٣/٢) وعوف بن أبي جميلة ثقة
 أيضاً. التقريب (٨٩/٢) و ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٢) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٩١) حدثنا وكيع، حدثنا شعبة عن محارب
 ابن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

توقفت الناقة

(فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري.. وهذا بابي. فقال ﷺ:

«اذهب فهى لنا مقيلاً».. فذهب فهياً لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلاً.. قوما على بركة الله فقيلاً^(١).

وحل ﷺ في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثنى الشرف الذي حل بين جدران مترله.. المدينة كلها إلا عيوناً كانت تتأمل من بعيد.. وقفت كما وقف عمر بن الخطاب وهو يرقب مشهد النازحين إلى أنهار الحبشة.. لكن هذه العيون المتلصصة لم تكن حزينة كحزن عمر.. ولا نادمة كندم عمر.. إنها منغمسة في دبق الأحقاد الأسود.. من هذه القلوب قلب رجل اسمه:

عبد الله بن أبي بن سلول

من عبد الله هذا.. وما هي قصته..؟

كان بين الأوس والحروب حروب مريرة وثارات أوشكت على إفنائهم.. وكان بين تلك الحروب فترات من التعب والهدنة والفتور.. تنطمر معها جمة الحرب تحت رماد من التعقل أحياناً والملل أحياناً.. أو التحفز للانقضاء.. وكانت السنوات التي بايعوا فيها الرسول ﷺ سنوات من الركود.. كانت المدينة فيها ترقد على بركان هادئ من الثارات والدماء.. في تلك السنوات تصالح الطرفان على تنويع رجل اسمه عبد الله بن أبي بن سلول ليكون زعيماً ليثرب.. لكن شيئاً من ذلك لم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ للبيهقي (٥٢٨/٢).

يحدث.. فرغم الاحتفاء بالهدنة وحقن الدماء.. إلا أن المدينة كانت لا تتنفس ابن أبي سلول في هوائها.. فهو مجرد هدنة هشة لا أكثر.. وقد سئمو الهدن الهشة..

لقد كانت أجواء المدينة مشبعة بالقادم.. مرطبة بالانتظار.. المدينة ونيوها ويهودها يشعرون بغد هابط لا يحمل على جناحه رجلاً مؤقتاً كابن سلول.. أما اليهود فكانوا ينتظرون نبياً يفنون به العرب الوثنيين.. ويخلصهم من هذا الشتات المخيف.. تأثر بهم بعض الوثنيين من أهل المدينة فكانوا ينتظرونه.. ويريدون أن يسبقوا اليهود إليه.. حتى ولو اضطروا إلى مزاحمة اليهود في حصونهم.. وكان من هؤلاء المنتظرين ثلاثة من بني هذل هم:

أسد وأسيد وثلعبة

ثلاثة من الشباب ليسوا من اليهود.. انصهروا مع اليهود ليفوزوا معهم بهذا النبي القادم كالصباح.. يحدثنا عنهم رجل من بني قريظة رجل عاش مع أسد وأسيد وثلعبة في حصون يهود بني قريظة.. يحدثنا ويحدث رجلاً جالساً بقربه اسمه عاصم فيقول له:

(هل تدري ما كان علامة إسلام ثلعبة بن سعدة، وأسيد بن سعدة، وأسد بن عبيد - نفر من بني هذل ليسوا من بني قريظة ولا بني النضير، [كانوا فوق ذاك] نسبهم من بني [هذل] أتوا بني قريظة، كانوا معهم في الجاهلية ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال عاصم: قلت: لا. قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام يقال له: ابن الهبيان، قدم علينا قبل الإسلام بـ [ستين] فحل بين أظهرنا والله

مارأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له: يا ابن الهييان قم فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فيقولون: كم؟ فيقول: صاعاً تماًراً، [أو مدين من شعير] عن كل إنسان. فنخرجها، فيخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه حتى يمر السحاب السراح سائلة، ونسقى به، ففعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، ثم حضرته الوفاة، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قلنا: الله أعلم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلمكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحد^(١).

وسبق الأنصار اليهود فأسلموا ودعوا رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقبلوه استقبالاً كالحلم.. فاهتارت آمال عبد الله بن أبي بن سلول بالزعامة.. بعد أن أدرك أهل المدينة أن وحدتهم لن تدوم بزعامته.. ولن تمتد تلك الزعامة في الأعماق والزمان إلا برسالة يخلع الجميع كل ما عليهم ليلبسوها.. فتنحوا عن ابن سلول وامتدت الأيدي والقلوب إلى الله ورسوله..

وكأني بابن سلول يتمنى لو لم يطل به العمر ليرى هذا الاحتفال.. وموقف ابن سلول هذا موقف قاصر.. فقد كان بإمكانه أن يصبح زعيماً

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٨٠/٢) وأبو نعيم في الدلائل (٨١/١) واللفظ له عدا ما بين المعقوفين.. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة... وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وعالم جليل من رجال الشيخين.. التقريب (٣٨٤/١) وشيخه صحابي من بني قريظة.

وعظيماً وخالداً لو صافح رسول الله ﷺ لكنه أبي وتولى.. هذا هو ابن سلول.. فهل هناك من يشاركه هذا الشعور؟.

أجل.. هناك اليهود الذين تركوا أرض الخمر والخمير من أجله.. فهم ينتظرونه منذ سنوات وسنوات.. لكن ما الذي حدث.. كيف ينتظرونه.. فإذا رأوه وتحققوا أنه هو رفضوه وعادوه؟. طفلة بريئة لم تلوثها أحقاد اليهود اسمها صفية بنت حيي بن أخطب تحدثنا عن موقفهم وسبب عداوتهم..

والدها زعيم من زعماء يهود.. وعمها أيضاً زعيم.. أما هي فكانت أحب أولادهم على الإطلاق.. يهشون للقائها.. يشون في وجهها ويتسمون إلا في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تذكره صفية جيداً.. فتقول: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحداً أحب إليهما مني.. لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رسول الله ﷺ قباء ونزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي «أبو ياسر بن أخطب» مغلسين، فوالله ما جاءنا إلا مع مغيب الشمس، فجاءنا فاترين كسلانين ساقطين، يمشان الهويني^(١)، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي:

أهو هو؟ قال: نعم.. والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت^(٢) ولكن

(١) مشي فيه فتور وضعف.

(٢) في سنده ضعف، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم والبيهقي (٥٣٣/٢) وفي سنده جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم

لماذا هذه العداوة.. لماذا هذا الفتور والإحباط؟.. إنها العنصرية. فهذا الرجلان يمثلان خطأً يسلكه معظم اليهود.. اليهود المغضوب عليهم.. وقد غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وينكرونه.. جاءهم عيسى فأنكروه بل حاولوا قتله.. وها هو محمد ﷺ بين أيديهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يرفضونه.. إن محمداً عربي ليس من أبناء إسرائيل.. ليس من سلالة يهود إذاً فهو مرفوض وكما رفض حبي بن أخطب وأخوه الدخول في الإسلام فقد عاند وكابر يهودي آخر مثلهما تنصل من كل وعوده السابقة لليهود ولأهل المدينة فما هي وعوده السابقة.. وكيف تنصل منها؟ تلك قصة حضرها طفل مضطجع بفناء أهله.. حفظها لنا ثم قصها علينا بعد قدوم رسول الله ﷺ للمدينة.

يوشع يرفض الإسلام

يقول سلمة بن سلام بن وقش:

(كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.. فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل - وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي^(١) - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار.. فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟

وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمد بن عمرو بن حزم وله رؤية وليس له سماع إلا من الصحابة (التقريب ١٩٥/٢) وحفيده تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (٤٠٥/١) وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٥٣٢/٢).

(١) المتكلم هو سلمة بن سلام.

قال: نعم.. والذي يحلف به، [لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي، وأني أنجو من النار غداً^(١)][^(٢)].

قالوا: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟

قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن.

قالوا: متى تراه؟

فنظر إليّ وأنا أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا^(٣)، فأما به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويحك يا فلان.. أأنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به [وكان يقال له يوشع]^(٤).

ويقول محمد بن سلمة رضي الله عنه:

(لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له «يوشع» فسمعته - وإني لغلام في إزار يقول:

(١) أي من شدة نار جهنم أعادنا الله منها يتمنى أن يوضع في أعظم فرن في الدنيا ثم يطبق عليه ويحرق فيه أهون عليه من دخول نار جهنم.

(٢) ما بين المعرفين لفظ البيهقي.

(٣) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٧٨/٢) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة بن سلام رضي الله عنه: وشيخ ابن إسحاق تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (التقريب ٣٥٨/١) ويشهد له ما بعده.

قد أظلمكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت، ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه.. فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً^(١) ولم يقتصروا على ذلك بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. وطمسوا أسماءه المكتوبة في التوراة.. لكن تبقى فيها عبارات قوية لا تنطبق إلا عليه مثل هذه العبارة الموجودة حتى الآن في التوراة المحرفة.. تقول التوراة:

(وحي يأتي من بلاد العرب.. في الوعر في بلاد العرب.. قابلوا الهارب بجبزه فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد.. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب.. وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)^(٢).. لقد ظن اليهود أن هذا النبي القادم من أرض العرب الوعرة الشديدة الوعورة -وهي مكة -.. ظنوا أنه سوف يفني أبناء عدنان وهم العرب على أيدي اليهود.. ولكن عندما تبين أن هذا النبي من أبناء عدنان العربي حسدوه.. لكن لماذا يحسدونه؟ السبب موجود في هذه القصة التي تروي انتقال النبوة من أبناء يعقوب -وهو إسرائيل- جد اليهود إلى أبناء عدنان -واسمه في التوراة: قيدار- وهو جد العرب فكيف انتقلت النبوة..

إبراهيم وأبناؤه

كان لإبراهيم ﷺ ولدان إسماعيل وهو الأكبر وإسحاق.. وهما نبيان

(١) ذكره الإمام ابن كثير في سيرته (٢٩٣/١) فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا الجزء من الإسناد صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٢) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٣).

عليهما الصلاة والسلام.. إسماعيل هو جد العرب، وإسحاق هو والد يعقوب جد اليهود وليعقوب ابن إسحاق ﷺ اسم آخر هو إسرائيل.. رزق يعقوب أو إسرائيل باثني عشر ولداً أحدهم نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام.. وعندما صار يوسف عليه الصلاة والسلام وزيراً عند عزيز مصر انتقل والده وإخوته إلى هناك.. فيوسف وإخوته هم أبناء إسرائيل والذين تحولوا إلى اثني عشرة عائلة وتزايدت أعدادهم في مصر.. حتى جاء زمن الطاغية فرعون ومن أبناء إسرائيل ولد موسى وأخوه هارون عليهما الصلاة والسلام.. وقد بعثه الله نبياً بالتوحيد لإنقاذ بني إسرائيل من الشرك والاضطهاد.. ثم تولى القيادة من بعد موته في سنياء تلميذه النبي: يوشع عليه الصلاة والسلام.. ثم جاء أنبياء كثيرون من أبناء إسرائيل من بينهم داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام.. حتى جاء الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه الصلاة والسلام وهو أيضاً من أبناء إسرائيل.. كل هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل جاءوا لإعادة قومهم إلى التوحيد وترك الشرك والبدع والانحراف.. ومع ذلك استمر انحراف اليهود -بني إسرائيل- حتى وصل بهم الأمر إلى اغتيال وذبح بعض الأنبياء كما حدث لنبي الله زكريا وابنه يحيى وهما في زمن عيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام.. بل حاولوا اغتيال عيسى ولما رفعه الله تعقبوا أتباعه بالقتل والتشريد.. وكان من أشرس اليهود الذين فتكوا بأتباع عيسى ﷺ رجل اسمه «شاءول»^(١) هذا الطاغوت أحس بأن الاضطهاد لا يفني الأديان ولا يفني أتباعها بل يزيدهم رسوخاً وثباتاً وتصفية.. لذلك بحث هو وأشرار اليهود عن طريقة للقضاء على تعاليم الله لعيسى بن مريم فاكتشف أن محاربة الدين من الداخل أجدى من محاربته من الخارج..

(١) واسمه الذي يشتهر به عند النصارى وفي الإنجيل المخرف هو: (بولس أو بول).

فأظهر لأتباع عيسى بن مريم أنه قد تاب وندم على ما قام به من قتل وتعذيب.. وأظهر لهم الرهينة والتنسك.. وبعد أن تأكد من اقتناع من حوله بتوبته وبعد مرور زمن على ذلك بدأ بتنفيذ مخططه اليهودي الخبيث.. فقد ادعى أنه رأى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في البرق بين السحاب وأنه قد منحه حق النبوة.. ثم جاء بالطامة الكبرى فادعى أن عيسى بن مريم هو ابن الله.. وأن عيسى بن مريم نفسه أوحى له بذلك.. ثم تحول إلى تعاليم عيسى فنسخ كثيراً منها.. كالحتان وأكل لحم الخنزير.. وأدخل الوثنية إلى تعاليم نبي الله عليه الصلاة والسلام.. وأفسدها إلى اليوم.. فإذا كان اليهود قد فعلوا كل هذا وأكثر مع أنبياء من اليهود أنفسهم.. من إخوتهم.. فهل يُتوقع أن يستقبلوا محمداً ﷺ بالأحضان والقلوب المتسمة.. وهو ليس من أبناء اليهود؟ الإجابة معروفة.

فاليهود ينتظرون نبياً منهم ليسحقوا به العرب وسائر الأمم لا ليهدوا به العرب.. فكيف يؤمنون بنبي يجعل من هؤلاء العرب سادة الدنيا وقادة العالم.. حسدُ بني إسرائيل يقول: لا.. وألف لا.. لكن عالماً من يهود.. لا يقول: لا

عبد الله بن سلام لا يقول : لا

.. رجل من بني إسرائيل.. من اليهود.. عالم ومثقف كبقية علماء اليهود لكن صدره أبيض كالثلج.. واسع المدى.. متلهف للحقيقة كالضياح كالعطش.. عالم اسمه عبد الله بن سلام.. صادق اسمه عبد الله ابن سلام.. كان يحدث من حوله فيقول:

(لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل^(١) الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ.. فجئت في الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: يا أيها الناس:

أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)^(٢).

كلمات قليلة تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر.. أي مجتمع سيولد في المدينة.. مجتمع تفسو بين أهله التحايا والهدايا والسلام.. مجتمع يمد يديه للمحتاج.. ويشق الطرقات بين الأقارب والأرحام.. وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه.. وتسكن الطيور في الأوكار.. تخلق أرواح مؤمنة إلى ربها تناجي وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرحيم.. أيقن ابن سلام أن هذا الرجل ليس بكذاب.. ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحب والسلام..

لكن أين كان ابن سلام عندما قدم رسول الله ﷺ؟ أنس بن مالك يقول إنه كان في نخل لأهله يحترف لهم الرطب.. فجاء وأدوات الاختراف بيديه نسي أن يتركها من شدة ذهوله.. يقول أنس:

(وقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ، فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله.. فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب..

(١) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

(٢) سنده صحيح. رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي (٥٣١/٢) من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة من رجال الشيخين عن زرارة بن أبي أوفى العامري وهو ثقة عابد وتابعي من رجالهما (التقريب ٨٩/٢) و (٢٥٩/١).

فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله
يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها، فجاء وهي معه.. وسمع
من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله..

وقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي
الله، هذه داري.. وهذا بابي.. قال ﷺ:

«انطلق فهبي لنا مقيلاً»، فذهب فهياً ثم جاء.. فقال: يا رسول
الله ﷺ قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلاً^(١).

لقد ذهب عبد الله بن سلام.. سمع وعاد فمتى أسلم وكيف أسلم؟
يقول أنس: (فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال:

أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنت جئت بحق، ولقد علمت يهود أني
سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم.. فادعهم فسلهم عني قبل
أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا في ما
ليس في، فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم
لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأنني جئت بحق أسلموا» فقالوا: ما
نعلمه^(٢). ترى هل أسلم هذا العالم المثقف لجرد رؤيته رسول الله ﷺ
دون استفسار.. دون سؤال أو حصول على علامة وبيان..؟ هذا ما لا
يفعله عادة المثقفون والعلماء وعبد الله بن سلام منهم.. فهو لم يسلم
مباشرة.. أنس بن مالك مرة أخرى يتحدث.. مرة أخرى يخصص حديثه
عن ابن سلام.. فيقول:

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

(سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ... فأتى النبي ﷺ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة^(١)؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما يترع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟ قال ﷺ:

«أخبرني بهن جبريل آنفاً».. قال ابن سلام: جبريل؟! قال ﷺ:

«نعم».. قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.. ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة نزع الولد.

قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت^(٢)، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسلمهم عني بهتوني، فجاءت اليهود إليه.. قال ﷺ:

«أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا..

(١) علامات الساعة، وعلامات الساعة كثيرة... منها بعثة رسول الله ﷺ لكن لها علامات

كبرى عجيبة مفاجئة للعالم هذه أولها ومنها خروج اليهودي المسيح الدجال ونزول

المسيح عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من جهة المغرب...

(٢) أقوام يفترون ويكذبون ويلصقون في المرء ما ليس فيه.

وسيدنا وابن سيدنا.. قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟»
قالوا: أعاده الله من ذلك..، فخرج عبد الله، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا:

شرنا وابن شرنا.. وتنقصوه^(١). قال ابن سلام: هذا الذي كنت
أخاف يا رسول الله^(٢).

هذا هو الفرق بين اليهود والنصارى بل وغير النصارى غالباً
فالنصارى ضلوا الطريق فسماهم الله (الضالين).. أما اليهود فهم يعرفون
الحق ويتركونه ولذلك وصفهم الله بـ: (المغضوب عليهم) والتاريخ
يحدثنا عن اليهود كثيراً وعن رفضهم وقتلهم الأنبياء والمصلحين.. بل إنهم
سبب ضلال النصارى^(٣) وبعدهم عن الحق.. فلا غرابة ولا عجب أن
رفضوا رسالة الإسلام، لا سيما وأن النبي ﷺ ليس منهم.. هؤلاء يهود..
وغبي كل الغباء من يظن أنهم غير ذلك.. والتاريخ شاهد والواقع على
طرقنا يتلو علينا كل صباح مؤامراتهم..

فلننصرف عنهم كما انصرفوا عن رسول الله ﷺ.. ولندخل مع
رسول الله ﷺ إلى دار أبي أيوب.. الذي أصبح مقراً مؤقتاً لرسول الله ﷺ
ريثما يجد له منزلاً مستقلاً به وبزوجته القادمة سودة رضي الله عنها..
فتحنا الباب فوجدنا أبا أيوب رجلاً من كرم.. رجلاً من شعور.. مهذب
وحساس ومحب لله ولرسول الله ﷺ وللإسلام أكثر من نفسه.. كان
صدره أفسح من بيته.. وكانت يدها غيمتين.. جدران بيت أبي أيوب

(١) عابوه.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٥٢٩/٢).

(٣) كما مر معنا في قصة بولس أو شاءول.

تحكي لنا هذه القصة.. تروي لنا كم كان أبو أيوب مسلماً.. كم كان عظيماً.. يقول أبو أيوب:

(لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفلى، وأنا وأم أيوب في العلو.. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فإظهر أنت فكن في العلو، ونزل نحن فنكون في السفلى. فقال ﷺ:

«يا أبا أيوب إن أرفق بنا ومن يغشانا أن أكون في سفلى البيت».. فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب^(١) لنا فيه ماء، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نضع له العشاء ثم نبعث إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده^(٢) فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فرده رسول الله ﷺ، فلم أر ليده فيه أثراً.. فجئته فزعاً، فقلت:

يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه.. فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة»^(٣) وما دام ﷺ يكره رائحتها

(١) وعاء يوضع فيه الماء كالزير والجرة.

(٢) أي بحثوا عن مواضع أصابعه وقصدوها.

(٣) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق وصرح بالسماع من شيخه يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي حدثني أبو أيوب، ويزيد ومرثد فقيهان ثقتان وأبو رهم هو كلثوم بن الحصين أحد الصحابة رضي الله عنهم. انظر سيرة ابن كثير (٢/٢٧٧).

فأبو أيوب يكرهها كذلك، لقد قال لرسول الله ﷺ (فإني أكره ما تكره)^(١).. ومع ذلك لم تسكن نفس أبي أيوب، لم يجد للراحة مكاناً.. لم يجد للراحة طعماً رغم شدة فرحه برسول الله ﷺ داخل بيته.. لماذا؟.. لماذا؟

أبو أيوب مُخرج

لو رأيته وهو يسير في منزله لأشفقت عليه.. فهو لا يتحرك إلا في مساحة ضيقة من بيته.. كأن الجن والأشباح تتزل في البقية الباقية.. لقد حدد له زاوية من المنزل يتحرك فيها وينتقل وينام.. أما البقية الباقية فلا.. ذلك لأن الإسلام صنع منه قلباً وحساً مرهفاً.. فهو لا يريد أن يمشي فوق رأس رسول الله ﷺ.. فقد (انتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!!

فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ يعني في ذلك فقال ﷺ: "السفل أرفق بنا" .. فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفلى)^(٢).. لن تستغرب الدنيا ما قام به أبو أيوب رضي الله عنه فهو ابن سحابة هتون تحوم في سماء الإيثار والكرم.. ابن سحابة اسمها الأنصار.. الأنصار الذين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٣).. هذه شهادة الله لهم تتزل عليهم من فوق العرش تعبر السماوات سماءً يتغنى بها الأنصار.. يتغنى بها بنو النجار أحوال رسول الله ﷺ وأبو أيوب من الأنصار.. وأبو أيوب من بني النجار وإن

(١) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي (٥٠٩/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي (٥٠٩/٢).

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

كانت (خير دور الأنصار بني النجار)^(١) فإن (في كل دور الأنصار خير)^(٢) ... فالله جعل (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)^(٣) ... ف (لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله)^(٤).

الأنصار الآن يتوافدون.. يتتابعون نحو رسول الله ﷺ.. يسلمون.. يثلجون صدورهم بالقرب من حبيبهم.. كانوا يحملون الولاء والحب وشيئاً من الطعام.. كلُّ حسب ما يجد.. لكن أحد الفقراء المعدمين الذين لا يملكون حتى ثيابهم كان على الباب ينتظر..

كانت هيئته رثة تدمي القلب.. وتدمع العين.. ومع ذلك استطاع بعد جهد وعرق أن يحصل على شيء من طعام لا ليأكله.. لا ليتصدق به بل ليهديه.

فمن هذا الشخص الغريب؟

أذكرون ذلك المسكين الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو في قباء وقدم له صدقة من طعام فأكل الصحابة منه ولم يأكل رسول الله ﷺ.. قباء تذكره.. وأنتم؟.. هاهو يأتي مرة أخرى يحمل هدية من طعام تحملها يدان تشققتا من العبودية والكدح والشقاء.. تحمله أقدامه دامية.. عصفتها الدروب والثلوج والرمضاء والرياح.. وما إن وقف ذلك المسكين أمام رسول الله ﷺ حتى قال له:

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) متفق عليه وهو آخر الحديث السابق.

(٣) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٤).

(٤) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٣).

(إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها... فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه)^(١).

فقال ذلك المسكين في نفسه: (هاتان اثنتان)^(٢) ثم خرج من عند رسول الله ﷺ وهو أحر شوقاً مما كان عليه.. عاد لسيدة اليهودي يكدح ويكدح.. وينتظر النهار بين نخيل المدينة.. فمن أجل النهار جاء.. جاء من مكان بعيد.. جاء سيداً.. جاء مبتسماً وباكياً.. جاء عبداً مقيداً.. جاء من مر السنين.. ولن تضيره أيام قليلة من الانتظار.. فرما طلع النهار وانزاح ليله الدامي الطويل.

أما رسول الله ﷺ فمكث ما شاء الله له أن يمكث في ضيافة أبي أيوب.. ولم يكن هناك من مسجد للصلاة ف (كان يحب أن يصلي حيث أدرسته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم)^(٣).

لكن المدينة اليوم عاصمة للإسلام.. وهي تتسع كل يوم بالوافدين والمهاجرين.. وكان لا بد لها من مسجد.. وقرب بيت أبي أيوب لمح رسول الله ﷺ حائطاً لبني النجار.. لم ير رسول الله ﷺ أنسب منه مكاناً لمسجده.. فكانت هذه القصة:

قصة بناء المسجد النبوي

لقد جاء الأمر (ببناء المسجد.. فأرسل إلى ملاً بني النجار فقال:

يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا..؟ فقالوا:

(١) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٢٨).

والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل.. قال:

وكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل.. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع... فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»^(١)

لم يكن رسول الله ﷺ قاعداً.. يكحل عينيه بمشهد السواعد تشتد أمامه وتعرق.. بل كان يعرق مثلهم ويحمل مثلهم.. لقد ساهم ﷺ في بناء مسجده وبناء مسجد قباء كما ساهم وهو شاب في بناء مسجد الله الحرام في مكة التي طرد منها ومن كعبتها.. وفي المدينة كان الصحابة يتدفقون نشاطاً وبناءً.. هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يتميز عن بقية الصحابة..

.. يحدثنا عما قام به عمار صحابي اسمه أبو سعيد الخدري فيقول:
(كنا نحمل في بناء المسجد لينة.. لينة، وعمار يحمل لبنتين.. لبنتين.. فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه)^(٢) ثم يقول ﷺ وحيأ.. يقول غيباً.. يقول: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)^(٣) أما عمار فكان رغم استبشاره بهذه الشهادة.. يخشى على أمة

(١) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٣٠٧/٢) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة. أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة الحققة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٣) حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٣٠٧/٢) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة.

الإسلام.. يخشى عليها فيقول: (أعوذ بالله من الفتن)^(١) ثم ينصرف إلى عمله والصحابة حوله حركة نشطة.. هذا أحدهم.. يغوص في الطين بمهارة.. ويعالجه بطريقة مدهشة أعجبت النبي ﷺ فقال لمن حوله ممتدحاً فعل ذلك الرجل الماهر بعمله الوافد من اليمامة ليكتب الله له شرف المساهمة في بناء المسجد النبوي.. يقول ﷺ: «قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم بناءً»^(٢).

وتم بناء المسجد كما أراد ﷺ: مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده من خشب النخل^(٣).

لكن ما قصة هذا اليمامي

طلق بن علي اليمامي يحكي قصته.. يرويها بنفسه يفخر بها وحق له أن يفخر.. يقول رضي الله عنه: (بنيت مع النبي ﷺ مسجد المدينة فكان يقول:

أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(١) حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٣٠٧/٢) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة. أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٢) سنده صحيح. رواه النسائي والبيهقي واللفظ له (٥٤٢/٢) وابن حبان (٤٠٥/٣) من طريق ملازم بن عمرو وهو يمامي صدوق (التقريب ٢٩١/٢) حدثنا عبد الله بن بدر وهو يمامي ثقة (التقريب ٤٠٣/١) وشيخه هو قيس ابن الصحابي طلق الذي ساهم في البناء وهو تابعي ثقة (التقريب ١٢٩/٢) وقصة الوفادة عند الطبراني (٣٩٩/٨) وابن حبان (٤٠٤/٣) بالسند نفسه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٥٤١/٢).

مكنوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم له مساً^(١).

ويحكى هذا الصحابي قصة قدومه فيقول:

(خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ، فأخبرناه أن بأرضنا بيعة^(٢) لنا.. واستوهبناه

من فضل طهوره، فدعا بماء فمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وقال:

اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم^(٣)، وانضحوا

مكاتها من هذا الماء، واتخذوا مكاتها مسجداً فقلنا:

يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف.. قال ﷺ: «فمدوه من الماء فإنه

لا يزيده إلا طيباً»... قال: فتشاحنا على حمل الإداوة أينما يحملها،

فجعلناها نوباً بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلما قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا،

وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي، فنادين للصلاة.. فقال الراهب: دعوة حق

ثم هرب فلم يرَ بعد^(٤) هذا ما حدث في أرض اليمامة أما في المدينة.

فبعد أن تم بناء المسجد.. وعُمرَ بالصلاة والحياة.. وضع لرسول

الله ﷺ جذع نخلة يخطب عليها.. لكن الوفود تكثر كل يوم...

والمهاجرون في ازدياد.. والناس تريد أن تستمع إلى خطب رسول الله ﷺ..

إلى وحي ربها.. فلا بد من بناء منبر مرتفع يمكن الحاضرين من الاستماع

(١) سنده صحيح. رواه النسائي والبيهقي واللفظ له (٥٤٢/٢) وابن حبان (٤٠٥/٣) من

طريق ملازم بن عمرو وهو يمامي صدوق (التقريب ٢/٢٩١) حدثنا عبد الله بن بدر وهو

يمامي ثقة (التقريب ١/٤٠٣) وشيخه هو قيس ابن الصحابي طلق الذي ساهم في البناء

وهو تابعي ثقة (التقريب ٢/١٢٩) وقصة الوفادة عند الطبراني (٣٩٩/٨) وابن حبان

(٤٠٤/٣) بالسند نفسه.

(٢) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٣) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٤) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وهو صحيح.

والرؤية.. وافق ﷺ على هذا الاقتراح.. لكن شيئاً محزناً حدث فأحزن من في المسجد وأبكاهم.. شيء غريب ومؤثر حقاً..

عند صنع المنبر

أحد الذين حضروا تلك الدموع.. صحابي اسمه: سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول:

كان رسول الله ﷺ يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس وكثروا قيل له: يا رسول الله لو جعلت منبراً تشرف على الناس منه؟

فبعث إلى النجار فانطلق.. فانطلقت معه حتى أتى الغابة فقطع منها أثلاً.. فعمله وهياًه ثم أتينا نحمله، فكان «درجتين» والثالثة مقعد لرسول الله ﷺ.. فوالله ما هو إلا أن قعد عليه رسول الله ﷺ.. فتكلم، وفقدته الخشبة.. فخارت كخوار الثور لها حنين حتى فزع الناس.. وكثر البكاء مما رأوا بها، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة»^(١). تأثر ﷺ بذلك الحنين وهو على المنبر (فترل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تنن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت)^(٢) كأن هذا الجذع متفرع من جذور الحب.. كأنه أحد

(١) حديث حسن. رواه أبو نعيم في الدلائل (٤٠٣)، أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة عن عمارة بن غزية أنه سمع عباس بن سهل يخبر عن أبيه وهذا سند صحيح لولا اختلاط ابن لهيعة لكنه لم ينفرد فقد رواه البيهقي من طريقين عن أبي بكر بن أويس عن سعد بن سعيد بن قيس عن عباس عن أبيه (٥٥٩/٢) وعلمته سعد بن سعيد وحديثه حسن بالشواهد فهو صدوق سعي الحفظ.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري والبيهقي (٥٦٠/٢).

المهاجرين والأنصار.. كأنه مكة.. مكة التي تفتقد إلى وجه ابنها وحبيبها ﷺ.. كأنه تلك الحجارة التي كانت تسلم عليه ﷺ كلما مر بها.. وتبادله حباً بحب وشوقاً بشوق.. هذا الجذع بكى لأن رسول الله ﷺ لن يخطب عليه بعد اليوم.. لن يحظى بدفء جسده بعد اليوم... وسوف يفتقد إلى ذكر الله يفوح عطراً وهدايةً من رسول الله ﷺ.. لقد عبر ﷺ عمًا بأعماق هذه الشجرة عندما قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها) ^(١) إنها تغبط:

امرأة من الأنصار وغلماها تبرعا بالمنبر

فالأنصارية هي التي تطوعت وغلماها لبناء المنبر.. يحدثنا عن ذلك أحد كرام الأنصار: جابر بن عبد الله فيقول:

(إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله.. ألا أجعل لك منبراً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً..، فقال ﷺ:

«إن شئت»..، فعملت له منبراً، فلما كان يوم الجمعة قعد على المنبر الذي صنع له، فصاحت النحلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فترل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه فجعلت تنن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت. قال ﷺ: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها» ^(٢) ثم عاد ﷺ إلى منبره.

فماذا صنع

يقول سهل الساعدي: إن المرأة أمرت غلامها (فعملها من طرفاء

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٥٦٠/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٥٦٠/٢).

الغابة.. ثم جاء بها فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ههنا.. ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها.. وكبر وهو عليها.. ثم ركع وهو عليها.. ثم نزل القهقري.. فسجد في أصل المنبر.. ثم عاد.. فلما فرغ أقبل على الناس فقال:

«أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي.. فعمل هذه الثلاث درجات»^(١) إذاً فمنبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات لا أكثر.. ثلاث درجات بسيطة لا أكثر..

فهنيئاً لتلك الأنصارية.. هنيئاً لسلامها وهنيئاً لذلك المنبر.. فمنبر الأثل لم يعد ينتمي إلى الأثل.. لم يعد ينتسب إلى الأرض.. منبر الأنصارية صار:

منبراً من الجنة

فقد التفت ﷺ إلى منبره يوماً فقال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»^(٢).

وأما ما بين المنبر وبين رسول الله ﷺ فمساحة من الربيع الخالد.. والفيض الغامر الواعد بالنعيم.. فقد قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٣).

أما المسجد فقد اكتمل بناؤه.. واكتمل العقد بجوهرة ثالثة تزين صدر السفر.. محطة ثالثة لقوافل المؤمنين بناها ﷺ في المدينة.. يزيلون فيها

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٥٥٥/٢).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي (١٥٠/١) والبيهقي (٥٦٤/٢).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (١١٩٥).

العناء والذنوب وينهلون الربيع والثواب «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا.. والمسجد الحرام.. ومسجد بيت المقدس»^(١)... لا تشد الرحال من أجل العبادة إلى أي مسجد في الدنيا إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.. فمن أتعب مطاياه إلى غيرها فقد أتعبته البدعة والشيطان.. والإسلام نبع صاف ورقراق.. والبدعة تلوثه.. والشيطان يلوث قلوب أصحابها.. لكن لماذا هذه المساجد فقط هي مناخ المرتحل ومستراحه؟ الإجابة لا تأتي من الهواء.. لا تأتي من الهوى.. الإجابة تنزل وحيًا.

تنزل أجرًا عندما قال ﷺ: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)^(٢).

فهم الصحابة ذلك وأدركوا أن السفر من أجل العبادة والصلاة لا يجوز مهما كان ذلك المكان المنشود مقدسًا.. إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.. حتى ولو كان هذا المكان جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى تكليمًا.. وأنزل عليه فيه التوراة.. وهذه القصة حدثت بين صحابين تشهد بتفاني الصحابة من أجل بقاء الإسلام جديدًا دون تشويه.. دون بدع.. (لقد لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور.. صليت فيه، قال أبو بصرة: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع (٧١٤/٢).

الأقصى»^(١) وبهذه التصفية والتربية يبقى الإسلام جديداً.. دون شوائب.. دون بدع.. كما أنزل على محمد ﷺ.

إذاً فقد سعدت المدينة باحتضانها لمسجد يؤسس رسول الله ﷺ على التقوى كما سعدت مكة من قبل بتأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام..

وبنى ﷺ له بيتاً ملاصقاً للمسجد عبارة عن حجرات صغيرة فسودة قادمة قريباً من مكة.. أما عائشة فرمما كانت مع هذا الركب الذي يلوح بين السراب.. وفيه امرأة حامل.. امرأة عظيمة كانت تحمل المسؤوليات والطعام إلى رسول الله ﷺ.. كانت تقطع حزاماً لها نصفين ليستخدمه ﷺ في هجرته إلى المدينة فيربط زاده وما يحتاجه.. إنها ذات التاريخ الأبيض.. ذات النطاقين.. أسماء بنت الصديق الأكبر.. والصاحب الأبر.. (هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلية)^(٢).. لم تبال بثقل حملها فمدينة الأنوار والحب تنتظرها.. وهي لا تستطيع مقاومة ذلك الحب فيها.. أما ذلك الجنين في بطنها فكان على موعد مع سبق والشرف ليكون أولاً في سجلات الهجرة والإسلام.

أسماء الآن في طريقها إلى المدينة.. هي الآن في قباء قد أثقلها الحمل والتعب.. لا تستطيع المشي.. لا تستطيع الوصول إلى المدينة فالآلام الولادة شديدة.. إنها المرة الأولى التي تعاني فيها من هذه الآلام.. فبقيت في قباء حتى تمت ولادتها بسلام وطفلٍ كالورد تحدثنا عنه فتقول: (خرجت وأنا متم.. فأتيت المدينة فزلت بقباء.. فولدته بقباء.. ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمر فمضغها ثم تفل في فيه.. فكان أول شيء

(١) حديث صحيح انظر إرواء الغليل (٤/١٤٢) وقول النبي ﷺ عند البخاري ومسلم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٩).

دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة.. ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام^(١).

هذا الطفل هو عبد الله بن الزبير بن العوام.. أمه أسماء وجدته أبو بكر أما خالته عائشة.. فبعد وصولها عانت من مرض تساقط منه شعرها تقول رضي الله عنها: (قدمنا المدينة فترلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفي جميمة)^(٢) أي أنها شفيت فعاد شعرها جميمة وهو الشعر إذا سقط على المنكبين.. فرحت عائشة بجميمتها وهي...

تنتظر أسعد أيام حياتها

فهي زوج رسول الله ﷺ لكنها كانت في بيت أبيها لم تنتقل بعد إلى بيت الزوجية والنبوة والحب الطهور.. وتلك الحجرات الصغيرات كن يتلهفن عليها حتى إذا جاء شهر شوال من تلك السنة... وشهر شوال محبوب لدى عائشة.. إنها تقول عنه: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال.. وبني بي في شوال.. فأني نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني.. وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال)^(٣).

ولزفاف عائشة قصة تحب أن ترويها لنا فتقول رضي الله عنها:
(أتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعني صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (ابن كثير ٣٣١/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٩٤).

(٣) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد. انظر سيرة ابن كثير (٣٣٢/٢) حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أمية، عن عبد الله بن عروة بن الزبير، عن أبيه عن عائشة وهذا الإسناد صحيح: وكيع ثقة معروف... إسماعيل ثقة ثبت... عبد الله بن عروة ثقة ثبت... وسفيان إمام ثقة ثبت معروف.

على باب الدار وإني لأهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين^(١).

هذه قصة الزفاف.. وهكذا صار لعائشة رضي الله عنها حجرة من تلك الحجرات المتواضعة.. وصار لها نصيب في حياته ﷺ وقلبه.. يزداد مع الأيام حتى صارت أحب الناس إليه.. يقول أحد الصحابة واسمه عبد الله بن شقيق:

(قلت لعائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟)

قالت: عائشة.. قلت: فمن الرجال؟

قالت: أبوها^(٢).

وصحابي آخر قدم على رسول الله ﷺ فجرى بينهما حوار عن الحب.. يقول هذا الصحابي رضي الله عنه: (أتيته.. قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها.. قلت: ثم من؟ قال: عمر.. فعد رجلاً^(٣)).

المرأة من جديد تقفز في المقدمة.. تتقدم فتسير أمام من يدخلون قلب رسول الله ﷺ.. وقلب رسول الله ﷺ كان مدينة منورة أخرى للجميع.. سعدوا بدخولها.. واطمأنوا بالعيش فيها.. ومن آثار تلك الطمأنينة والحسب

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٩٤).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٣٥٨).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٣٥٨).

بين المهاجرين والأنصار هذه الخطوات التي يخطوها حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وهو يتجه إلى أحد بيوت الأنصار.. إلى بيت قيس بن فهد.. حمله حب مصاهرة الأنصار الكرام والتماهي معهم إلى يوم القيامة.. خطب حمزة رضي الله عنه خولة بنت قيس فوافقت ووافق أبوها.. وزفت إليه وسكنا معا في بيت تعمره السكينة والإيمان ويزوره النبي ﷺ ليقضي فيه وقتا كأنسام البحار عند المساء.. خولة رضي الله عنها تتحدث عن تلك الزيارات التي كان يقوم بها النبي ﷺ لبيت عمه.. وتتحدث عن عدوبته عليه ﷺ: (أن حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوج خولة بنت قيس بن قهد الأنصارية من بني النجار.. قال وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها وكانت تحدث عنه ﷺ أحاديث قالت جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله.. الله بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا وكذا.. قال أجل.. وأحب الناس إلى أن يروى منه قومك قالت فقدمت إليه برمة فيها خبزة أو حريرة.. فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت أصابعه فقال: حس.. ثم قال: ابن آدم إن أصابه البرد قال: حس.. وإن أصابه الحر قال: حس) ^(١) وتقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكر الدنيا فقال رسول الله ﷺ: إن الدنيا خضرة حلوة فمن أخذها بحقها بورك له فيها.. ورب متخوض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقي الله) ^(٢) كان ﷺ يزور أصحابه أيضاً يتفقدهم ويتحسس معاناتهم..

(١) سنده قوي رواه أحمد ٤١٠/٦ من طريق يحيى بن سعيد عن يونس تابعي ثقة: التقريب ٣٢٤/٢ وللحديث شواهد قوية عند الطبراني: المعجم الكبير ٢٢٧/٢٤ تحت عنوان: خولة بنت قيس بن قهيد بن قيس بن ثعلبة الأنصاري امرأة حمزة بن عبد المطلب.

(٢) سنده قوي رواه أحمد ٣٦٤/٦ وغيره من طريق يحيى بن سعيد أن عمر بن كئيب بن أفلح مولي أبي أيوب الأنصاري أخبره أنه سمع عبيد سنوطا يحدث عن خولة وعمر تابعي ثقة

ولأنهم جميعاً بين أضلاعهم ﷺ فلا بد أن يدلف معهم شيء من الأحران يشعر به ويشاركهم معاناته.. كان يتقاسم معهم الأحران والأفراح..

فخلال تلك البهجة.. خلال فرح المدينة بعرس محمد ﷺ وعائشة.. خلال الفرح بالمهاجرين والإسلام كانت قافلة الحياة الطويلة تمر.. تعبر لا تتوقف.. تحمل الفرح والأحران والمفاجآت.. قافلة الحياة تحمل هذه المرة حزناً يتأهب لدخول بيت أحد أبطال العقبة والبيعة الخالدة:

بيت أسعد بن زرارة

الذي كان في أيامه الأخيرة يعاني من المرض.. فيقول أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة في الشوكة^(١).

لكن سعداً مات رضي الله عنه.. مات فترك جرحاً في قلوب المسلمين.. وترك دعاءً في قلب رجل اسمه كعب بن مالك رضي الله عنه.. كان كعب يدعو له كلما سمع صوت المؤذن ليوم الجمعة.. فلماذا هذا النداء بالذات وما هي ذكرياته.. الإجابة أخذها عبد الرحمن من والده كعب بن مالك.. بعد أن بلغ كعب من الكبر عتياً وشاب رأسه وذهب بصره.. يقول عبد الرحمن: إن والده

(كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة.. فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة.. قال:

من رجال مسلم انظر التقريب ٦٢/٢ وسنوطا ثقة قال العجلي في معرفة الثقات ١٢٢/٢: عبيد سنوطا مدني تابعي ثقة.

(١) سنده صحيح. رواه ابن جرير (ابن كثير ٣٢٩/٢) أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا يزيد بن زريع، عن معمر عن الزهري عن أنس... ومحمد بن عبد الأعلى ثقة (التقريب ١٨٢/٢) وشيخه أوثق منه (التقريب ٣٦٤/٢) والبقية أئمة أغنياء عن التعريف.

لأنه أول من جمّع بنا في هزم النبيت.. من حرة بني بياضة.

.. في نقيع يقال له نقيع الخضّمات.. قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون^(١).. رحم الله أسعد بن زرارة.. ربما كان هو هذا الذي فوق الأعناق.. هاهم يترلونه إلى قبره ويدفونونه.. النبي ﷺ حزين عند قبره.. وهاهم الصحابة يلفهم الوجوم ويتسلل الحزن بينهم.. ويتسلل بينهم رجل لم يعرف الحزن هذه اللحظة فقط.. بل تشربته عروقه وشبابه فأصبح من لحمه ودمه.. حزين تصرعه الدنيا وتشفيه وتحمله وترتحل به حتى أوصلته إلى هذا القبر.

فمن هذا المتسلل؟

من هذا المتسلل بين المقابر..؟ إنه ذلك الرقيق المتسلل ليلاً إلى قباء عندما وصل رسول الله ﷺ إلى هناك.. هل تذكرون تلك الصدقة التي حملها.. قدمها لرسول الله ﷺ فلم يأكل منها وجعل أصحابه يأكلون.. إنه الشخص نفسه الذي حمل هدية من طعام إلى رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري.. ذلك الشخص المحير.. ذلك الرقيق المليء بالأسرار والعبودية والهموم هو هذا المتسلل الذي مشى إلى رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرق قد تبع جنازة الصحابي الجليل.. وعلى رسول الله ﷺ شملتان.. لن أستمّر.. سأترككم معه.. يفتح لكم قلبه ودروبه وتاريخه.. ليتحدث إليكم يقول رضي الله عنه:

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (١٨٧/٣): حدثني محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أخبره... وهذا السند صحيح. شيخ ابن إسحاق ثقة (التقريب ١٤٦/٢) ووالده اسمه: أسعد بن سهل بن حنيف له رؤية وهو معدود في الصحابة (التقريب ٦٤/١) وشيخه من كبار التابعين وثقاتهم (التقريب ٤٩٦/١).

(جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد^(١))... قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان^(٢) وهو جالس في أصحابه.. فسلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رأني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أبي أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم^(٣) فعرفته، فأكبت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول».. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي^(٤) إذا فهذا المسكين يبحث عن نبي وقد وجده.. لكن من هو صاحبه وما هي قصته وما هو حديثه...؟

مرة أخرى سأتركم معكم يتحدثكم كما حدث رسول الله ﷺ حديثاً مبللاً بالدموع والشقاء والدلال.. حديثاً طويلاً يقول فيه:

(كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان.. من أهل قرية يقال لها جيء.. وكان أبي دهقان^(٥) قريته.. وكنت أحب خلق الله إليه.. فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية - أي ملازم النار - واجتهدت في المجوسية^(٦) حتى كنت قطن^(٧) النار الذي يوقدها لا يتركها

(١) بقيق الغرقد: هو مقبرة المدينة.

(٢) الشملة: كساء يتلف به المرء.

(٣) خاتم النبوة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢٩٦/١) ومن طريقه رواه أحمد (٤٤١/٥) فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي - من فيه - قال: كنت رجلاً فارسياً... وهذه السلسلة من الرجال كالذهب، عاصم بن عمر بن قتادة وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي والبقية من الصحابة رضي الله عنهم. انظر التقريب (٣٨٥/١).

(٥) الدهقان: هو رئيس القرية أو التاجر.

(٦) المجوسية: دين يعبد أهله النار.

(٧) أي خازن النار والمعنى بها.

تخبو ساعة.. وكانت لأبي ضيعة^(١) عظيمة... فشغل في بنيان له يوماً فقال لي:

يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي.. فاذهب إليها فاطَّلِعْهَا.. وأمرني فيها ببعض ما يريد.. ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري..

فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها.. فمررت بكنيسة من كنائس النصرارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون.. وكنت لا أدري ما أمر الناس - لحبس أبي إياي في بيته - فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم.. وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه.. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها.. ثم قلت لهم:

أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام..

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله.. فلما جئت قال: أي بني.. أي كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟.. قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم.. فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.. قال: أي بني... ليس في ذلك الدين خير.. دينك ودين آبائك خير منه.. قلت:

كلا والله إنه لخير من ديننا.. فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته..

(١) بساتين وأشجار وكروم.

وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام
-تجار من النصارى- فأخبروني بهم.. فقدم عليهم ركب الشام -تجار من
النصارى- فجاءوني النصارى فأخبروني بهم.. فقلت:

إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوني.. فلما أرادوا
الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم.. فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت
معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت:

من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف^(١) في الكنيسة..
فجئته فقلت له:

إني قد رغبت في هذا الدين.. وأحببت أن أكون معك.. وأخدمك
في كنيستك وأتعلم منك فأصلي معك.. قال: ادخل..

فدخلت معه.. فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها..
فإذا جمعوا له شيئاً كثره لنفسه ولم يعطه المساكين.. حتى جمع سبع قلال
من ذهب وورق^(٢)... وأبغضته بغضاً شديداً لما رأته يصنع.. ثم مات
واجتمعت له النصارى ليدفنوه..

فقلت لهم:

إن هذا كان رجل سوء.. يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها.. فإذا
جئتموه بما كثرها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم:

أنا أدلكم على كثره.. قالوا: فدلنا.. فأريتهم موضعه فاستخرجوا

(١) رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

(٢) الورق: الفضة.

سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً.. فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً.. فصلبوه
ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فوضعه مكانه.. فما رأيت رجلاً لا يصلي
الخميس أرى أنه أفضل منه.. وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة.. ولا
أدأب ليلاً ونهاراً.. فأحبيته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله.. فأقمت معه
زماناً.. ثم حضرته الوفاة.. فقلت له:

إني قد كنت معك.. وأحبيتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك.. وقد
حضرك ما ترى من أمر الله تعالى.. فيلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟

قال: أي بني.. والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد
هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل^(١) وهو
فلان.. وهو على ما كنت عليه فالحق به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل.. فقلت: يا فلان.. إن
فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك.. وأخبرني أنك على أمره.. فقال لي:
أقم عندي.. فأقمت عنده فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه.. فلم
يلبث أن مات.. فلما حضرته الوفاة قلت له:

يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك.. وقد حضرك
من أمر الله ما ترى.. فيلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني.. والله
ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه.. إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان..
فالحق به..

(١) مدينة معظمها على الضفة اليمنى لنهر دجلة بالعراق.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين^(١).. فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي.. فقال: أقم عندي.. فأقمت عنده.. فوجدته على أمر صاحبيه.. فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت.. فلما حضر قلت له:

يا فلان.. إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إليك.. فألى من توصي بي وتأمرني..
قال:

يا بني.. والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا أمرك أن تأتيه.. إلا رجلاً بعمورية^(٢) من أرض الروم.. فإنه على مثل ما نحن عليه.. فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية.. فأخبرته خبري.. فقال:
أقم عندي.. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم..
واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة.. ثم نزل به أمر الله.. فلما حضر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إليك.. فألى من توصي بي.. وبم تأمرني؟ قال:

أي بني.. والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأتيه.. ولكن قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم.. يخرج بأرض العرب.. مهاجره إلى أرض بين حرتين^(٣)..، بينهما نخل.. به

(١) مدينة من مدن الجزيرة.

(٢) مدينة بأسيا الصغرى (تركيا الآن).

(٣) الحرة: أرض ذات أحجار سوداء.

علامات لا تخفى.. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.. بين كتفيه خاتم النبوة.. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل..

ثم مات وغيب.. ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث..

ثم مر بي نفر من كلب -تجار - فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراي هذه وغنيمي هذه.. قالوا: نعم.. فأعطيتهموها وحملوني معهم.. حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني.. فباعوني من رجل يهودي عبداً.. فكنت عنده.. ورأيت النخل.. فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي.. ولم يحق في نفسي.. فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة.. فابتاعني منه.. فاحتملني إلى المدينة.. فوالله ما هو إلا أن رأيتها.. فعرفتها بصفة صاحبي لها.. فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ.. فأقام بمكة ما أقام.. ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق.. ثم هاجر إلى المدينة.. فوالله إني لفي رأس عذق^(١) لسيدي أعمل فيه بعض العمل.. وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال:

يا فلان.. قاتل الله بني قيلة^(٢).. والله إنهم لمجتمعون الآن بقباءِ على رجلٍ قدم من مكة يزعم أنه نبي..

فلما سمعتها أخذتني الرعدة.. حتى ظننت أني ساقط على سيدي.. فترلت عن النخلة.. فجعلت أقول لابن عمه:

(١) العذق - يفتح العين - النخلة يحملها.

(٢) اسم جده الأوس والخزرج.

ماذا تقول.. ماذا تقول..؟

فغضب سيدي فلكني لكمة شديدة.. ثم قال: مالك ولهذا!! أقبل على عملك.. فقلت: لا شيء.. إنما أردت أن أستثبته عما قال.. وقد كان عندي شيء قد جمعته.. فلما أمسيت أخذته.. ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء..^(١).

إذاً فرسول الله ﷺ يعرف وجه هذا الغريب ويعرف قصته معه في قباء عندما قدم لرسول الله ﷺ صدقة من طعام فلم يأكل منها.. ولكنه أكل من هديته التي قدمها له في بيت أبي أيوب.. وهاهو يرى خاتم النبوة على ظهره ﷺ.

ثلاث علامات ذاق من أجلها سلمان ألوان المر.. والترحال والتغرب والتشرد.. تشققت يده من الكد والكبح وهو ابن النعيم والدلال.. حياة طويلة ترسف في قيود الحديد والعبودية والرق.. كان في غنى عنها لكنه ليس في غنى عن التوحيد.. فالتوحيد يعني له عالماً من النعيم.. والحقيقة المدهشة المثيرة والانطلاق في آفاق الخلود والتحليق بلا حدود.. لم يجدها في رماد نار الجوس.. ولا بين تصاليب النصارى ولا وسط أحقاد اليهود.. وجدها بين يدي محمد ﷺ.. فهدأت نفسه الثائرة وارتاحت روحه المتعبة ووجد الجدار الذي يسند إليه ظهره بعد طول العناء.. عثر على من يمسخ دموعه وعرقه في طيبة الطيبة بين إخوة له في الشقاء والبحث والانتظار والوصول.. فقصص عليهم ما وجدته وما عاناه

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

(فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)^(١).

ولم يكتب ﷺ بإبداء الإعجاب والرضا والابتسام.. فالرجل ما زال يلهث.. ويده تترفان وقدماه دامتان من صخور اليهود وأشواك حقولهم.. رَقَّ ﷺ لحاله وضياعه فقرر كسر هذا الطوق الذي يخنق أنفاس هذا المسكين فالتفت ﷺ إليه وقال: «كاتب يا سلمان»^(٢).. أي تعاهد مع سيدك اليهودي على شيء تقدمه له مقابل حررتك..

لم يكن لدى سلمان شيء يقدمه.. لكن كلمات النبي ﷺ كانت نوافذ مفتوحة على الحرية والحرية.. نهض سلمان من بين المقابر وتوجه إلى ذلك اليهودي.. نهض سلمان وقد انتزع القلوب من حوله.. وغادر ونظرات الإشفاق والعطف تتابعه حتى اختفى..

ونهض النبي ﷺ وأصحابه وقد أثقلهم الحزن على أصحابيهم.

ولم يكتب ﷺ بالحزن على صاحبه الذي دفنه منذ قليل فأسعد بن زرارة ملء السمع والبصر وعائلته من بعده أصبحت بين حناياه ﷺ..

رحل أسعد بن زرارة وترك زهرتين صغيرتين.. هاهو ﷺ يمشي متوجهاً نحوهما في دار أبيهما أسعد.. نبي الله ﷺ يحمل في يده هدية جميلة لهاتين الصغيرتين.. إنها أقراط ذهبية مرصعة باللؤلؤ.. وليس هناك ما يدخل السعادة على الفتاة مثل الحلبي والزينة..

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن ليبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن ليبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

تحدثنا عن هذه الزيارة حفيذة لأسعد بن زرارة اسمها زينب فتقول:

(إن رسول الله ﷺ حلى أمها وخالتها - وكان أبوهما أسعد بن زرارة - أوصى بهما إلى رسول الله ﷺ فحلاهما رعائاً من قبر ذهب فيه لؤلؤ^(١).. لبست الفتاتان تلك الأقراط وتزينتا به.. وبقي عندهما زمناً.. تقول زينب: (وقد أدركت الحلبي أو بعضه)^(٢).. هدية من نبي رقيق المشاعر يحاول تخفيف اليتيم والحزن عن أهل بيت من بيوت الأنصار الكريمة. نبي أهده الله رحمةً وحناناً.. هاهو الغريب من جديد.. يعود بعد أيام.. سلمان

(١) سنده حسن. رواه الحاكم (١٨٧/٣)... محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمار، عن زينب بنت نبيط قالت: وهذا الإسناد حسن من أجل محمد بن عمار بن عمرو بن حزم وشيخته هنا هي زينب بنت نبيط زوجة أنس بن مالك وقد أدركت هذا الحلبي وعرفت قصته (انظر التهذيب ٣٥٩/٩) ويقول الحافظ في التقريب (٦٠٠/٢): يقال لها صحبة... وعلى أي حال فالحلبي لأمها وخالتها وقد أدركته... وحاتم بن إسماعيل حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٣٧/١) وهو من رجال الشيخين... وتلميذه من رجالها وهو ثقة ثبت (التقريب ١٢٣/٢) أما محمد بن إسحاق بن إبراهيم فهو شيخ الإسلام الإمام الثقة صاحب المسند الكبير... وشيخ البخاري ومسلم في غير الصحيح (سير أعلام النبلاء ٣٨٨/١٤).

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم (١٨٧/٣)... محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمار، عن زينب بنت نبيط قالت: وهذا الإسناد حسن من أجل محمد بن عمار بن عمرو بن حزم وشيخته هنا هي زينب بنت نبيط زوجة أنس بن مالك وقد أدركت هذا الحلبي وعرفت قصته (انظر التهذيب ٣٥٩/٩) ويقول الحافظ في التقريب (٦٠٠/٢): يقال لها صحبة... وعلى أي حال فالحلبي لأمها وخالتها وقد أدركته... وحاتم بن إسماعيل حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٣٧/١) وهو من رجال الشيخين... وتلميذه من رجالها وهو ثقة ثبت (التقريب ١٢٣/٢) أما محمد بن إسحاق بن إبراهيم فهو شيخ الإسلام الإمام الثقة صاحب المسند الكبير... وشيخ البخاري ومسلم في غير الصحيح (سير أعلام النبلاء ٣٨٨/١٤).

الفارسي يعود إلى رسول الله ﷺ.. ويقول: (كاتب صاحب علي ثلاثمائة نخلة أحييها له بالقفير وأربعين أوقية)^(١)..

فرح ﷺ بما سمع وهتف بأصحابه من حوله وقال لهم: «أعينوا أحاكم»^(٢)..

امثل الصحابة وتفرقوا يبحثون.. يفتشون عن شيء يزيلون به بقايا الظلم عن أحيهم الفارسي الذي تداولته السنون والشقاء (تداوله بضعة عشر من رب إلى رب)^(٣) وقد آن الأوان أن يستريح بفيء الإسلام..

الصحابة اليوم حركة وعطاء إلا كبيرهم إلا أولهم إنه ليس في السوق.. وليس مع رسول الله ﷺ الذي يعود إلى بيته فيجد زوجته عائشة رضي الله عنها بانتظاره وهي قلقة على أبيها..

كانت تنتظر زوجها ﷺ لتستأذنه في الذهاب للاطمئنان على أبيها.. فماذا حدث للصدیق الأكبر ماذا حدث لحبيبتنا أبي بكر رضي الله عنه..

ماذا حدث لأبي بكر

لم يكن أبو بكر وحده يحتاج إلى الرعاية والمواساة.. بلال بن رباح كان مثله.. وعامر بن فهيرة أيضاً.. فقد (كانوا في بيت واحد)^(٤)..

وصل الخبر إلى عائشة فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم..

(١) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٢) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٤٦).

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (حدثني هشام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن

عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها - انظر ما بعده - (ابن كثير ٣١٦/٢).

وعندما وصلت وجدت حمى المدينة الملتهبة تشتعل في أجسادهم.. وحمى المدينة شديدة فلقد (قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله) (١).

لكن الله يجعل من الضيق منافذاً وأبوأباً.. ويجعل من المعاناة بشائراً وعوداً.. قال ﷺ لأصحابه: «لا يصبر على لأواء المدينة وجهدها أحد إلا كنت له شفيحاً أو شهيداً» (٢).

ويقول لهم: «الحمى حظ كل مؤمن من النار» (٣).

وما دامت الحمى من القدر فعلاجها من القدر أيضاً.. فالقدر يعالج بالقدر.. أرشد ﷺ أصحابه إلى الصبر.. وأرشدهم أيضاً إلى العلاج فقال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» (٤) «الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد» (٥).

هذه هي حال الحمى فكيف كانت حال أبي بكر وصاحبيه رضي الله عنهم.. لقد كانوا مزيجاً من:

الحمى والحنين.. والشعر والهديان

وصلت عائشة فكان حوارها معهم حيناً.. وشعراً وهدياناً.. عائشة تحكي ما جرى في تلك الزيارة فتقول رضي الله عنها:

(لما قدم رسول الله ﷺ المدينة.. قدمها وهي أوبأ أرض الله من

(١) حديث قوي السند (رواه البيهقي ٥٦٧/٢): الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.. الأصم إمام وثقة معروف وسماع شيخه للسيرة صحيح، ويونس بن بكير أحد رواه السيرة وهو حسن الحديث. (التقريب ٣٨٤/٢) وهشام ووالده لا يسأل عنهما وقد مرا معنا كثيراً.

(٢) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه..
فكان أبو بكر، و عامر بن فهيرة وبلال -موليا أبي بكر - في بيت واحد
فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم -وذلك قبل أن يضرب علينا
الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك... فدنوت من أبي
بكر فقلت:

كيف تجدك يا أبت؟.. فقال:

كل امرئ أصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول.. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة
فقلت: كيف تجدك يا عامر؟.. قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه
فقلت: والله ما يدري ما يقول.. وكان بلال إذا أدركته الحمى
اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بفتح وحوالي إذخر وجيليل
وهل أردن يوماً مياه مِحْنَةً وهل يبدون لي شامة وطفيل^(١)
كان بلال يحترق من الحمى لكنه أشد احتراقاً بشوقه المستعر إلى مكة..
إلى سوق مِحْنَة في أسفل مكة إلى جبلي شامة وطفيل اللذين يطلان كالحب
على ذلك السوق.. كان يحن إلى مراتع الصبا بين تلك النباتات.. بين الإذخر
والجيليل.. ثم يزفر بأنفاسه الملتهبة بالحمى فيقول والحسرة في صدره:

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣١٦/٢) وقد سبق الكلام عليه... وهو
عند البخاري ومسلم أيضاً انظر ابن كثير (٣١٧/٢).

(اللهم العن عتبة بن ربيعة.. وشيبة بن ربيعة.. وأمّية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء)^(١).

تأثر النبي ﷺ بهذا الشوق والحنين.. وأخذته الشفقة بأصحابه وبالمدينة التي تسكن قلبه عندما سمع شكوى حبيته عائشة التي تقول:

(ذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى فقال ﷺ:

«اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيبة^(٢)»^(٣).

وفي ليلة من تلك الليالي المحمومة كان ﷺ في فراشه وعيناه نائمتان.. في تلك الليلة رأى شيئاً مخيفاً ومفرحاً في منامه.. فبشر به أصحابه وبشر به المدينة وقال:

(رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيبة.. فأولتها: أن وباء المدينة نقل إلى مهيبة وهي الجحفة)^(٤).. وارتحل الوباء.. وارتحلت الحمى عن أبي بكر وبلال وعن عامر بن فهيرة ليعودوا حول رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار ويكحل عينيه بهم.. لكن تلك المجالس الطيبة تفتقد إلى أحد عظماء الأنصار.. ورسول الله ﷺ لا يعيش في أبراج بعيداً عن أصحابه.. إنه منهم وبينهم يضافحهم ويتسم في وجوههم.. يمشي في أسواقهم.. ويأكل من طعامهم.. ويزورهم في منازلهم.. ويسأل عن

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (سيرة ابن كثير ٢/٣١٥).

(٢) الجحفة.

(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٨).

غائبهم.. ويتفقد أحوالهم. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من الصحابة وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه فقال له النبي ﷺ: «تجبه؟» فقال:

يا رسول الله أحبك الله كما أحبه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقدته النبي ﷺ فقال:

«ما لي لا أرى فلاناً».. فقالوا: يا رسول الله.. بنيه الذي رأيته هلك. فلقى النبي ﷺ فسأله عن بنيه، فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال ﷺ:

«يا فلان أيما كان أحب إليك: أن تمتع به عمرك.. أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: ياني الله.. بل يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي، هو أحب إلي. قال ﷺ: «فذاك لك». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله جعلني الله فداءك أله خاصة أو لكلنا؟ قال ﷺ: بل لكلكم^(١).

هذه القصة الحزينة الجميلة.. ما أجمل الحب والبراءة فيها.

ما أجمل الطفولة في مجلس النبي ﷺ.. وما أجمل هذا النبي وهو يسأل الرجل عن حبه.. وما أجمله وهو يحرضه على البوح بشيء من أعماقه.. وهو يعزیه.. وهو يعده بعينين بريئتين تتلهفان له عند باب الجنة.. هذه البشرية من عند الله ليست للرجال وحدهم.. وهذه العناية منه ﷺ ليست للرجال فقط.. يحدثنا صحابي آخر فيقول: (كان ﷺ يتعهد الأنصار، ويعودهم، ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مات ابنها وليس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعاً شديداً، فأتاها النبي ﷺ ومعه أصحابه،

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (١٦٢) وقد رواه النسائي وأحمد والحاكم.

فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل: يعزيها، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه بلغني أنك جزعت على ابنك فأمرها بتقوى الله وبالصبر»، فقالت: يا رسول الله.. ما لي لا أجزع وإني امرأة رقوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب: الذي يبقى ولدها»، ثم قال: «ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسبهم إلا أدخله الله بهم الجنة»، فقال عمر وهو عن يمين النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي.. واثنين؟ قال ﷺ: «واثنين»^(١).

إذا فالنبي ﷺ (كان يتعهد الأنصار، ويعودهم ويسأل عنهم)^(٢).

كان يتفقدهم رجالاً ونساءً.. أغنياء وفقراء.. كان يفرح معهم.. ويواسيهم في مصائبهم وأحزانهم.. كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة وهمومها..

هاهو يتهياً للخروج.. سوف يعود مريضاً.. وهذه المرة لم يكن المريض رجلاً عادياً إنه أحد أبطال الأنصار وزعمائهم.. لقد سمع ﷺ بأن سعد بن عبادة يلزم فراشه فتحركت مشاعره نحو أخيه وحبيبه وتحركت دابته نحو هذا الأنصاري الكريم.. دعونا نمشي خلف رسول الله ﷺ فسوف يصادف في طريقه.

شجرة غريبة

رآها ﷺ في المدينة.. نبتة مشوهة تظهر لأول مرة.. أثارها غبار دابة

(١) سنده حسن على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجوائز (١٦٤) وقد عزاه للحاكم والبخاري تبعاً للهيتمي.

(٢) سنده حسن على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجوائز (١٦٤) وقد عزاه للحاكم والبخاري تبعاً للهيتمي.

رسول الله ﷺ المتجهة تحمل حياً نحو سعد بن عبادة.. أثارها ذلك الغبار فاهتزت وتطايرت أشواكها فجرحت مشاعر رسول الله ﷺ.. ما هذه الشجرة.. وهل وصل ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة..؟ لا أحد يستطيع وصف ما حدث مثل الطفل أسامة بن زيد حبيب رسول الله ﷺ فقد كان يركب خلف رسول الله ﷺ فوق تلك الدابة.. هاهو أسامة.. يحدثنا فيقول:

(إن رسول الله ﷺ ركب حماراً عليه إكاف^(١) على قطيفة فدكية^(٢).. وأردف أسامة بن زيد ورائه.. يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر.. حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسلمين.. ومن المشركين عبدة الأوثان.. واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة.. فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة^(٣)، خمر^(٤) ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا.

فسلم رسول الله ﷺ.. ثم وقف فترل فدعاهم إلى الله عز وجل.. وقرأ عليهم القرآن..

فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً.. فلا تؤذنا به في مجالسنا.. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه..

(١) سرج الحمار.

(٢) نسبة إلى فدك وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.

(٣) غبارها.

(٤) غطى.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله.. فاعشنا به في مجالسنا
فإننا نحب ذلك.. واستب المسلمون والمشركون.. واليهود.. حتى كادوا
يتشاورون^(١)..

فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.. ثم ركب رسول الله ﷺ
دابته حتى دخل على سعد بن عبادَةَ.. فقال له رسول الله ﷺ:
«أيا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي..؟»
قال: كذا- وكذا.. قال سعد بن عبادَةَ:

يا رسول الله اعف عنه واصفح.. فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد
جاء الله بالحق الذي أنزل عليك.. ولقد اصططح أهل هذه البحيرة^(٢) على
أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاة^(٣)، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شرق
بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت..

فغفا عنه رسول الله ﷺ.. وكان وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل
الكتاب كما أمره الله عز وجل ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل:
﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أذىً كثيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٤).

وقال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

(١) يتواثبون للقتال.

(٢) أي القرية أي المدينة المنورة.

(٣) أي يجعلوه زعيماً للأوس والخزرج.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة.

وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله عز وجل به..^(١).

لأنه ظل وارف للجميع.. حتى لهؤلاء المشركين واليهود.. ولولا ذلك لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس.. وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول ابن أبي إلى كهف للأصنام والمشركين وكهف لليهود.. لقد تحول إلى كهف لمشروع يحاك في الظلام لتقويض هذه الدولة الجديدة..

عبد الله بن أبي لم يتأذ من غبار الدابة.. ولم يخمر أنفه من أجل سلامة رئتيه.. فهو ليس غريباً على الغبار.. والغبار ليس بغريب عليه.. لكنه خمر عقله وقلبه عن الحقيقة..

هو يضيق براكب الدابة وبكل ما يفعله ويقول.. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها نبي الله ﷺ على كل بيت.. إنه يرى نكسته في فرح الرجال والنساء وابتسامات الأطفال وهم يلتصقون برسول الله ﷺ.

لا أدري ما هو مصير المدينة لو توج عبد الله بن أبي بن سلول.. وإلى أي قاع سوف يرسو بها.. إن زعامة عبد الله بن أبي ليست -في حالة نجاحها- سوى تأجيل لوقت انفجار قنبلة موقوتة فالجاهلية هي الجاهلية.. والثأر لا يطفئه سوى الثأر ما دامت الأصنام رابضة في البيوت والأندية..

عبد الله بن أبي بن سلول المشرك ضاق بهؤلاء الأضياف المهاجرين.. وطار صوابه لهذا الكرم الأنصاري.. لقد فقد صداقاته وزعامته.. فقومه يحبونهم أكثر مما يحبونه.. إنهم يلتقون في ذلك المسجد خمس مرات في اليوم.. كيف ذلك.. أليس من سبيل إلى استعادة أحد منهم.. أو شيءٍ منهم.. أليس من سبيل إلى إعادة هؤلاء المهاجرين وطردهم مع نبيهم من

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٥٦٦).

المدينة... أليس من سبيل إلى تشريدكم خلف جبال المدينة..؟ المدينة تقول: لا يا ابن أبي بن سلول.. ليس هناك من سبيل.. فلقد تغير أصحابك.. غيرهم نبي الله.. وغير نفوسهم.. وغير بلدتك وغير اسمها.. وإن لم تكن تحمل هذا التغيير وهذا الحب الذي تكرهه فاذهب إلى دار أنس بن مالك لتنظر ماذا يفعل نبي الله ﷺ.. وماذا يفعل معه المهاجرون والأنصار.. اذهب إلى دار أنس بن مالك فهناك أمرٌ خطير لا أظنك سوف تحتمله.

ماذا يحدث في دار أنس

نبي الله ﷺ الآن في دار أنس.. والمهاجرون والأنصار من حوله يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوارحهم.. يتطلعون إلى هدية للجميع.. هاهو أنس بن مالك بين المهاجرين والأنصار.. سألناه:

ما الذي يحدث في داركم يا أنس؟ أخبرنا.. أجاب أنس إجابة كالعيد فقال: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا) ^(١) يا الله.. ما أروعه من خير.. هنيئاً للدنيا..

هنيئاً لك يا أنس.. وهنيئاً لداركم..

هاهم الصحابة يخرجون من الدار.. وقد صاروا أخوة.. فوق أخوة الإسلام.. فالمسلم أخو المسلم.. لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل.. ولن تحدث من بعد.. إنها غيمة وحي.. أمطرهم حباً ثم ارتحلت ولم تمطر أحداً سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة وهو يحدثنا عنها فيقول:

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأحمد واللفظ لأحمد (١١١/٣).

(كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)^(١) لقد آخى ﷺ بين صحابته.. فمأهت الأرواح بالأرواح..

هاهو أبو عبيدة يمسك بيد أخيه.. نسأل أنساً مرة أخرى فيجيب أن رسول الله ﷺ قد (آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة)^(٢). ونسأل أنساً رضي الله عنه: من هذا الذي يلح ويلح على عبد الرحمن ابن عوف فيقول رضي الله عنه:

(إن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري.. فقال له سعد: أي أخي.. أنا أكثر أهل المدينة مالاً.. فانظر شطر مالي فخذه.. وتحتي امرأتان.. فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها. فقال عبد الرحمن:

بارك الله لك في أهلك ومالك.. دلوني على السوق.. فدلوه.. فذهب.. فاشترى وباع فربح.. فجاء بشيء من أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث.. فجاء وعليه ودع زعفران.. فقال رسول الله ﷺ: «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة.. قال ﷺ: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب.. قال ﷺ: أولم ولو شاة. قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)^(٣).

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

(٣) سنده صحيح. رواه الإمام أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٢٧) حدثنا عفان، حدثنا حماد،

حدثنا ثابت وحميد عن أنس، عفان بن مسلم ثقة ثبت من رجال الشيخين (التقريب

إن أخوة النسب تركض وتركض.. وتلهث وتتعب فلا تستطيع الإمساك بما أمسكت به أخوة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع.. لقد حولت دار أنس سعد بن الربيع ربيعاً يتقلب فيه عبد الرحمن بن عوف.. ربيعاً أنصاريّاً.. يتنقل فيه عبد الرحمن ويسافر فلا يجد له حدوداً.. يبحث عن أطرافه فلا يرى سوى الربيع أينما حل.. أينما اتجه.. وعندما يحاصره هذا الكرم يتوجه بقلب المتيم المأخوذ إلى رسول الله ﷺ يشتكي من هذا الحب.. ومن هذا الكرم.. يتوجه هو والمهاجرون..

ويقول هو و (المهاجرون): يا رسول الله:

يا رسول الله.. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل.. ولا أحسن بدلاً من كثير.. لقد كفونا المؤونة.. وأشركونا في المهناً.. حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.. قال ﷺ:

«لا.. ما أنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»^(١).

يحق للمهاجرين أن يشتكوا... ويحق لهم أن يختاروا فلقد تساءلت الدنيا: من هؤلاء الهاربين الهائمين.. المشردين.. من ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢).

٢٥/٢) وحامد وشيخاه أئمة ثقات معروفون. وهو عند البخاري دون قول عبد الرحمن في آخر الحديث (٥٠٧٢).

(١) سنده ثلاثي صحيح. رواه الإمام أحمد (ابن كثير ٣٢٨/٢) حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد من رجال الشيخين (التقريب ٣٧٢/٢) وشيخه حميد ابن أبي حميد الطويل وهو تابعي ثقة سمع من أنس بن مالك. (التقريب ٢٠٢/١).

(٢) سورة الحشر: الآية ٨.

فأجابت طيبة.. وأجابت الأنصار.. وتسابقت الأيدي إلى أحباها المهاجرين.. وأشرعت الأبواب.. لم يكن هناك ازدحام من المهاجرين على أبواب إخوانهم الأنصار.. لكن كان هناك ازدحام بين القلوب الأنصارية على أحباهم المهاجرين.. كانت الأنصار أمواجاً من الرحمة تغمر إخوانهم المهاجرين وتنعشهم بعد طول مسير وطول حرمان وعذاب.. حتى لقد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)^(١).. أي حب هذا.. كانت أيدي الطواغيت تتخطفهم بالسياط واللكمات.. وهذه هي الأيدي المتوضئة تمسح آثار السياط وتمسح الدموع والجراح وتحمل هؤلاء الغرباء إلى حيث الرحب والسعة.. الفقراء من الأنصار كانوا أسرع من الأغنياء ينافسونهم ويطلبون القرعة أيضاً.. فالحب والكرم ليس حكراً على أحد.. فالصدور أفسح من المنازل.. والكلمات ألد من أطيب الطعام.. والشهادة تتزل من فوق سبع سماوات.. شرفاً للأنصار يفخرون وأبناؤهم بحمله.. الشهادة لهم لم تأت من بيت شعر مدفوع الثمن.. أو خطبة من فصيح يتغني بها قري.. الشهادة جاءت من أكرم الأكرمين.. من خالق الكرماء ومعطي الأغنياء.. آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا^(٢) الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).. المرء يُمدح إذا كان كريماً.. ويُمدح أكثر إذا كان يقدم للآخرين كل ما عنده.. لكن أن يكون محتاجاً أشد الحاجة فيقدم للآخرين حاجته الملحة فذلك كرم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وهذا جزء منه. ومعنى اقترعت أي قاموا بإجراء القرعة

لشدة تنافسهم في إكرام المهاجرين وإسكانهم.

(٢) سكنوا.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

انتزعه الأنصار.. وهذا أحدهم.. يشهد له الله.. يشهد له سراجهم.. وهذه امرأة أنصارية سخية يشهد لها الله.. ويشهد لها سراجها.. في ليلة جاع رسول الله ﷺ فيها وجاعت عائشة وجاعت سودة.. ولم يكن في تلك الحجرات الكريمة سوى قطرات من الماء تعكس لمعان النجوم وكرم الأنصار مع ذلك القادم من بعيد.. تلك الليلة تقول لنا: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه.. فقلن: ما معنا إلا الماء.. فقال رسول الله ﷺ: «من يضم.. أو يضيف هذا؟») فقال رجل من الأنصار: أنا.. فانطلق به إلى امرأته.. فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني.. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي^(١) سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء.. فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها.. فأطفأته.. فجعلها يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين.. فلما أصبحت غدا إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ:

ضحك الله الليلة.. أو عجب^(٢) من فعالكما:

فأنزل الله: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) (٤).

ضحك الله وعجب من بيت من بيوت الأنصار ليس فيه سوى طعام الصغار.. ليس فيه سوى الإيمان والكرم.. أي شيء حزنه أيها الأنصاري

(١) أي أوقدي مصباحك وأشعليه.

(٢) ضحك الله وعجب ضحكاً وعجباً يليق بجلال الله وعظمته ليس كضحك المخلوق ولا كعجب المخلوق وليس كمثلته شيء... نؤمن به ونسلم كماء جاء من عند الله ورسوله وصدق الله ورسوله... فالله ليس كمخلوقاته وصفاته ليست كصفات مخلوقاته.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

أنت وزوجتك الكريمة.. أي شيء فعلتماه بأخيكما المسكين.. أي كرم كان هناك عندما ردد الأنصار يا رسول الله.. (اقسم بيننا وبينهم النخل)^(١).. عرق السنين.. وحصاد العمر والجهد يبذله الأنصار كالماء البارد كالبسمة العذبة لإخوانهم المهاجرين.. من يلوم الدنيا في حب الأنصار.. من يلوم المهاجرين في حب الأنصار.. من يلومه ﷺ عندما يعلن حبه للأنصار على الطرقات.. على النساء.. وعلى أطفال كالزهور (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال:

«والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي...»

والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي»^(٢).

يا طيبة.. يا عاشقة الأنبياء والمرسلين.. يا حاضنة الوحي والمهاجرين.. يا أرض الأناشيد والنخيل.. حاصرت القادمين بحبك حتى استسلموا فأعلنوه متفجراً من أعماقهم.. هاهو ﷺ ذات يوم جميل كان فيه جالساً على دروب أطفال الأنصار فلم يصبر.. قام معلناً حبه.. حباً رآه أنس ورواه فقال:

(رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين -حسبت أنه قال من عرس^(٣)

- فقام النبي ﷺ مثلاً^(٤) فقال:

«اللهم أنتم من أحب الناس إلي..»

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٦).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٥).

(٣) الذي قال: حسبت ليس أنس ولكنه أحد الرواة عنه.

(٤) أي مكلفاً نفسه... وجاء في رواية (ممتناً).

اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي»^(١).

إن بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه.. وإثمهم والله ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم.. ولم يفعله أحد بعدهم.. لقد تهادى حب الأنصار وتجاوز الكرم.. لقد تهادوا إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)^(٢).. تألق الأنصار فأوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها.. ثم تركوها تنطلق للأجيال.. أوقفوا شمس التاريخ عندما توجهوا إليه ﷺ بقلوب كالسحاب فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)^(٣) لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي.. ولا يجب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود.. أدرك الأنصار ذلك فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر.. قالوا: سمعنا وأطعنا)^(٤).

وبدأ المهاجرون بالعمل.. وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف.. وبدأ المهاجرون والأنصار صفاً واحداً.. صفاً يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يتتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوباً يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً..

(١) حديث صحيح. رواه البخاري لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٢٩) بلفظ: قرعت.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

الفهرس

٧	هذه القصة
٩	جده عبد المطلب
١٩	كان يحلم بعشرة وذبيح
٢٠	الزواج
٢٢	الفيل يمزق السكون
٢٥	أساطير ومولد
٢٦	طلوع نجم أحمد
٢٨	التسمية
٢٩	رضاعته وحضانه
٣٠	إن محمداً قد قتل
٣١	نعم شق صدره
٣٥	في بيت عبد المطلب
٤٠	في بيت أبي طالب
٤٠	بحيرى والقافلة
٤٢	الأمين والغنم
٤٣	الشباب والنساء
٤٥	خديجة
٤٧	يبني الكعبة ويضع الحجر الأسود
٤٩	النداء الأول لمحمد ﷺ
٥٢	يشتغل بالتجارة

٥٣	حتى الحجارة تجبه
٥٤	لا أصنام
٥٦	غرباء
٦٠	لا تحدث إلا لربي
٦٢	الرؤيا الأخيرة
٦٥	ليلة الحياة والقرآن
٦٧	ثورة في السماء
٦٩	كاهن وجنية
٧٠	توقف الوحي
٧٠	عودة الوحي
٧٢	سرية
٧٢	الوحوش
٧٣	إسلام أبي بكر
٧٥	إسلام علي
٧٦	سابقون سابقون
٧٨	للدعوة أسرارها
٨٠	حر وعبد
٨١	الجهر بالدعوة
٨٢	أبو لهب أول مكذب
٨٤	دعوة بني عبد المطلب فقط
٨٥	الله وحده لا شريك له
٨٧	يؤذون رسول الله ﷺ
٨٨	تعذيب الصحابة

٩٠	أول الشهداء.....
٩١	يسرقون الفقراء.....
٩٦	لقد كانوا مجرمين.....
٩٧	عمر بن الخطاب.....
٩٨	دعوة نبي مضطهد.....
١٠٠	إلى الحبشة.....
١٠٦	عبد الله بن مسعود.....
١٠٧	وحمزة أيضاً يسلم.....
١٠٨	المفاوضات بعد إسلام حمزة.....
١١٢	لا تنازل.....
١١٤	ما حدث لركانة.....
١١٦	إسلام عمر.....
١١٦	أول الدرب دعاء.....
١١٧	عمر يلقي آخر السياط.....
١٢٢	قتل عمر.....
١٢٢	الذهاب إلى أبي طالب.....
١٢٤	الاضطهاد من جديد.....
١٢٥	الهجرة إلى الحبشة ثانية.....
١٣٨	أما في مكة.....
١٤٢	إسلام أبي ذر الغفاري.....
١٤٥	أبو بكر يهاجر.....
١٤٧	دماء رسول الله ﷺ.....
١٤٩	عبس وتولى.....

- ١٥١ الوليد بن المغيرة مؤمن فكافر
- ١٥٢ انشقاق القمر
- ١٥٤ المواساة
- ١٥٥ اعتراف أبي جهل بالحقيقة
- ١٥٦ الجنون تهمة جديدة
- ١٥٨ وحيد في حرة المدينة
- ١٥٩ سعد والفقراء
- ١٦٠ معجزة الذهب
- ١٦٢ مجاعة في مكة
- ١٦٥ الرسول ﷺ والتعجيز
- ١٦٥ فتى قريش لا ييأس
- ١٦٧ من حطم الأصنام؟
- ١٦٨ الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ
- ١٦٩ حبس جماعي في الشعب
- ١٧١ عام الحزن
- ١٧٣ أبو طالب
- ١٧٤ بطل إلى النار
- ١٧٧ الفتى الحزين علي
- ١٧٨ إلى الطائف
- ١٨٤ الجبال تنتقم
- ١٨٦ الإسراء والمعراج
- ١٨٦ شق للسقف شق للصدر
- ١٨٧ البراق

المسجد الأقصى	١٨٩
ترتيب الأحداث	١٩٤
١- في بيت رسول الله ﷺ	١٩٤
٢- في المسجد الحرام عند بئر زمزم	١٩٤
٣- شق صدره ﷺ	١٩٤
٤- إحضار البراق	١٩٥
٥- ركوب البراق	١٩٥
٦- المرور بقبر موسى	١٩٥
٧- الوصول للمسجد الأقصى	١٩٦
٨- الخمر واللبن	١٩٦
العروج للسماء الدنيا	١٩٧
مَنْ مِنَ الأنبياء في السماء الدنيا	١٩٧
في السماء الثانية	١٩٧
السماء الثالثة	١٩٨
في السماء الرابعة	١٩٨
وفي السماء الخامسة	١٩٩
وفي السماء السادسة	١٩٩
في السماء السابعة	١٩٩
«سدرة المنتهى»	٢٠٠
صريف الأقلام	٢٠١
فرض الصلوات	٢٠١
آيات من تحت العرش	٢٠٢
تفضل آخر	٢٠٣

- ٢٠٣ هل رأى ربه وسمعه
- ٢٠٣ دخول الجنة
- ٢٠٣ حوار بين الأنبياء
- ٢٠٤ المسيح الدجال
- ٢٠٥ خازن جهنم
- ٢٠٦ أما في الجنة
- ٢٠٧ وصية
- ٢٠٧ العودة للمسجد الأقصى
- ٢٠٨ رسول الله ﷺ حزين معتزل
- ٢٠٩ لكن أبا بكر لا يقول: كذبت
- ٢٠٩ قریش تطلب الدليل
- ٢١٠ فرض الصلاة
- ٢١٢ أبو جهل يمنع الصلاة
- ٢١٣ لكن قریشاً يضعون السلاح على ظهره
- ٢١٤ لم يبق إلا الدعاء
- ٢١٥ البحث عن الأنصار
- ٢١٩ في عكاظ
- ٢٢٠ همدان
- ٢٢١ فتاة وحرير
- ٢٢١ الزواج بعائشة وسودة
- ٢٢٤ عروس ولكن
- ٢٢٥ في خيام ربيعة
- ٢٢٨ وعند مفروق وقومه

٢٣٢ لقاء الأنصار
٢٣٣ العقبة الأولى
٢٣٥ مصعب بن عمير في يثرب
٢٣٦ غربة مصعب
٢٣٨ حيرة بين الأقصى والكعبة
٢٣٩ العقبة الثانية
٢٤٢ الشيطان يصرخ
٢٤٥ رؤيا
٢٤٦ هجرة عمر بن الخطاب وعياش وهشام
٢٤٨ مأساة هند (أم سلمة)
٢٥١ رسول الله ﷺ يؤمر بالهجرة
٢٥٢ دار الندوة
٢٥٥ علي بن أبي طالب على فراش الموت
٢٥٧ ماذا دهاك يا أبا بكر
٢٦٠ قريش غاضبة
٢٦٣ الله ثالثهما
٢٦٤ مطلوب حياً أو ميتاً
٢٦٧ علي دروب السواحل
٢٦٩ سراقا يتحدث
٢٦٩ سراقا يبحث عن الدماء والدية
٢٧٤ أبو معبد
٢٧٤ خيمتا أم معبد
٢٧٥ عودة أبي معبد

- ٢٧٩ محطات
- ٢٨٠ النبي ﷺ يودع حبيته مكة
- ٢٨٠ اسم جديد
- ٢٨٢ ماذا حدث.. ماذا حدث
- ٢٨٣ كيف كانت قباء
- ٢٨٧ مشاعر.. مشاعر
- ٢٩٠ توقفت الناقة
- ٢٩٠ عبد الله بن أبي بن سلول
- ٢٩١ أسد وأسيد وثلعبية
- ٢٩٤ يوشع يرفض الإسلام
- ٢٩٦ إبراهيم وأبنائه
- ٢٩٨ عبد الله بن سلام لا يقول: لا
- ٣٠٤ أبو أيوب مُحَرَج
- ٣٠٥ فمن هذا الشخص الغريب؟
- ٣٠٦ قصة بناء المسجد النبوي
- ٣٠٨ لكن ما قصة هذا اليمامي
- ٣١٠ عند صنع المنبر
- ٣١١ امرأة من الأنصار ولامها تبرعا بالمنبر
- ٣١٢ فماذا صنع
- ٣١٢ منيراً من الجنة
- ٣١٥ تنتظر أسعد أيام حياتها
- ٣١٨ بيت أسعد بن زرارة
- ٣١٩ فمن هذا المتسلل؟

- ٣٢٩ ماذا حدث لأبي بكر؟
- ٣٣٠ الحمى والحنين والشعر والهديان
- ٣٣٤ شجرة غريبة
- ٣٣٨ ماذا يحدث في دار أنس - المؤاخاة
- ٣٤٥ الفهرس